

جينكيز آيتماتوف

وداعا يا غولساري!

جينكيز آيتماتوف

وداعاً ياغولساري!

نشــر وتوزيع

المكتبة العالميــة

بغداد ـ شارع السعدون ـ ساحة التحرير

الباب الشرقي ص.ب : ٦١٧٧ المنصور

هاتف : ٨٨٨٩٣٥٢

العنوان البرقي ـ بغداد ـ مومطير

ترجمة جليل كمال الدين

وداعا يا غولساري!

كتبت «ليترالورنايا غازيتا» («الجريدة الأدبية») عن قصة «وداعا يا غولساري!» تقول:

«... ان آيتماتوف لقادر على تحويل «نثر الحياة» إلى لآلىء الشعر ...»

موسكو – حزيران ١٩٦٦



١

كانت عربة قديمة تقطع الطريق ، يجرها حصان هرم ، وقد استقلها رجل هرم ايضا وكان الحصان الرهوان الاصفر اللون غولساري حصانا مُسناً ، مُسناً جدا . . .

كانت الطريق تصعد الى الهضبة على نحو مضجر في طوله . وبين التلال الرمادية المقفرة شتاء كانت تدور باستمرار ريح ثلجية ، أما في الصيف فنار القيظ كنار الجحيم .

ولقد كان هذا الارتقاء بالنسبة الى تاناباي عقوبة مريرة دائما فلم يكن يحب السفر البطيء ، ولم يكن يطيقه قط . وفي شبابه ، حين كان يتعين عليه غالبا

السفر الى المركز المنطقي ، فانه كان كـل مرة يطلق حصانه ، في درب الأياب ، رماحة الى الجبل . ما كان يشفق عليه ، بل كان يسوطه بسوطه . اما اذا كان يرتحل مـع رفاق الطريق في عربة نقل طويلة ، تلك المشدودة الى ثيران ، فانه كان يثب منها أثناء السير ، ويأخذ صامتا ثيابـه ، ويمضي ماشيـا . وكان يمضي سريعـا ، كما في الهجـوم ، ولايقف الا بعد أن يرتقي الهضبة . فهناك حيث يتخاطف الهواء بفمه يظل ينتظر الجماعة الزاحفة في الاسفل . وكان قلبه يخفق بضراوة من هذا المشي السريع ويظل يخزه في صدره . ولكن ، ولو كان الأمر كذلك ، الا إنه يظل أفضل من جرجرة الثيران البطيئة .

وقد كان تشورو الراحـل يحب أن يمزح مـن غرابة فعل صديقه ، فكان يبادره بالقول :

ـ هل تريد أن تعرف ، ياتـانـابـاي ، لمـاذا لايحالفك التوفيق ؟ إنه بسبب قلة صبرك . أقسم على ذلك . فـانت دائمـاً تريد كـل شيء بسرعة وتظـل تستعجل الامور أبدا . كأن لسان حالك يقول : أعطني الثورة العالميـة على الفور ! أجـل ، ولن اتكلـم عن الثـورة ، إنك لا تقدر على تحمـل حتى هذا الطريـق العـادي ، والصعود من قرية الكساندروفكا . ان كـل

الناس كالناس ، يرتحلون بهدوء ، إلاك فانت تقفز ، وتعدو عدوا الى الجبل لكأن الذئاب تطاردك . حسناً ، ولكن ماذا تربح بهذا ؟ لا شيء . فالأمر يظل سواء ، فان عليك أن تجلس هناك ، فوق ، لتنتظر الآخرين . واعلم ، انه حتى في الثورة العالمية لا تستطيعن الوثوب لوحدك ، فانك ستظل تنتظر ريثما يلحق بك الآخرون .

بيد ان ذلك كان منذ زمن طويل ، طويل جدا .

وفي هذه المرة لم يلاحظ تاتاباي كيف تجاوز هو المرتفع من قرية الكساندروفكا . فلقد اعتاد ، على ذلك كما يبدو ، مع مرور الزمن . لقد ارتحل لا بسرعة ولا ببطء . ارتحل كيفما اتفق . والآن يمضي في الطريق لوحده دائما . فان اولئك الذين كان يمضي معهم في هذه الطريق ، زمرة ضاجة ، في الثلاثينيات ، لن تجد هم الآن . فمنهم من استشهد في الحرب ، ومنهم من توفي ، ومنهم من هو قعيد البيت يقضي بقية عمره . أما الشبيبة فانها ترتحل في السيارات . وبالطبع لن توافق على الارتحال معه على فرس هزيل بائس .

كانت العجلات تقرع في هذه الارض القديمة . وستظل تطرق طويلا . فأمام العين كان يضطجع

السهب ، أما هناك ، وراء القناة ، فسيكون عليه الارتحال قدرا لايستهان به عبر التلال السفحية .

لقد بدأ منذ زمن طويل يلاحظ أن الحصان بدأ يأفل قوى ، بدأ يضعف . ولكنه ، وهو المهموم بأفكاره المريرة ، لم يقلق تماما . فهل هي يا ترى ، مصيبة كبيرة أن يتعب الحصان في الطريق ؟ لقد وقع اسوأ من هذا قبلا ، وتدبر الأمر . وفي هذه المرة سيتدبره ، فسينقله الحصان على نحو ما ، وسيبلغ غايته ...

أجل ، وأنى له أن يعرف أن حصانه الرهوان العجوز ، غولساري * ، الذي يلقب هكذا بسبب لونه الاصفر الفاتح غير الاعتيادي ، إنما قد اجتاز مرتفع الكساندروفكا للمرة الاخيرة ، وانه الآن إنما يحمله للفراسخ الاخيرة . أنى كان له أن يعرف أن رأس الحصان كان قد داخ كما لو آنه كان مخدرا ، وان في نظرته المعتكرة كانت الارض تسبح في دورات ملونة ، وتتمايل من جانب الى جانب ، ماسة السماء تارة في هذا الطرف وطورا في ذاك ، بحيث ان الطريق كان يسقط ، امام غولساري ، بين الفينة والفينة في فراغ معتم ، فكان يتراءى للحصان ان أمامه ، الى حيث كان

* غولسارى ــ زهرة صفراء . ورد الحب .

يتابع طريقه وحيث كان ينبغي ان تكون الجبال ، كان ثمة يعوم ضباب او دخان مائل لوته الى الاحمر .

وكان قلب الحصان المرهق منذ زمن طويل يؤلمه من الداخل باستمرار وصار التنفس في الرقبية يصعب ايضا . وجعل الثفر ، وقد مال الى جانب ، يخز في الخصر ، أما من الجانب الايسر وتحت الرقبية فان شيئا ما كان يخز الكتف بحدة . ولعل ذلك كان حسكة أو نهاية مسمار كان قد نتأ من البطانة اللبادية للرقبية . وكان الجرح الفاغر فاه منذ زمن طويل في الجزء الكنب من الكتف قد شرع يؤلمه بشكل لايطاق . وتثاقلت القدمان أكثر فأكثر ، كما لو انه كان يخطو في حقل موحل ، محروث حرثا .

غير ان الحصان الهرم ظل يمشي ، مجهدا نفسه ، اما الشيخ تاناباي فكان قلما يستحثه بهز الاعنة ، فلقد كان منشغلا كلية بافكاره طيلة الوقت . لقد كان لديه ما يفكر فيه .

قرعت العجلات في الطريق القديمة . وكان غولساري لايزال ماضيا في مشيته الرهوة الاعتيادية ، خببا قصيرا على ذات الايقاع الخاص ، الذي لم يحد عنه ولا مرة منذ ذلك الوقت ، حين نهض لأول مرة على

قدميه وطفق يعدو غير واثق ، في المرج وراء أمه ، التي كانت فرسا عفراء ضخمة .

كان غولساري حصاناً رهوانا منذ ولادته . وقد وقع له في حياته ، جراء رهوه الذائع الصيت كثير من أيام البؤس وايام النعيم . وفي سابق الأيـام لم يخطر ببال أحد ربطـه باعنة عربة النقـل ، والا لكان ذلك كفرا وتجديفا . ولكن ، كما يقال ، اذا أحاقت المصيبة بالحصان ، فانه سيشرب الماء حتى ولو كان ملجوما ، اما اذا احاقت المصيبة بالفتى ، فانه حتى في جزمتيه الطويلتين سيمضي الى الماء .

كل هذا كان وقتا من الأوقات ، وقد تخلف بعيدا في أغوار الماضي . والآن مضى الحصان الرهوان نحو غايته الاخيرة ببقيا قواه . ولم يقع له ولا مرة ان يسير بذلك البطء نحو النهاية كما لم يقترب قط منها بمثل هذه السرعة . فطيلة الوقت كان هذا الحد الاخير على مبعدة خطوة واحدة منه ليس الا .

وصرت العجلات في الطريق القديمة .

لقد أثار الأحساس بعدم ثبات الارض تحت الحوافر ، أثار على نحو مشوش ، في ذاكرة الحصان الاخذة في الانطفاء ذكرى تلك الأيام الصيفية ، وذلك المرج الخضل المتموج في الجبال ، وذلك العالم العجيب

والخارق ، الذي كانت الشمس فيه تصهل وتقفز وتتواثب في الجبال ، ولكنه ، هو الغبي ، انطلق في إثر الشمس عبر المرج ، عبر النهر ، عبر الشجيرات ، ريثما لحقه حصان القطيع الضخم باذنيه الملتصقتين بسعار وحنق ، فرده على عقبيه . وتراءى له ، آنذاك ، ان القطعان إنما كانت تسير وأقدامها مرفوعة الى فوق ، كما لو كانت في أعماق بحيرة ، اما أمه ، الفرس العفراء الضخمة ، فقد استحالت غيمة حليبية دافئة . وكان يحب تلك اللحظة ، حين تتحول الام فجأة إلى غيمة تأخرة بلطف . لقد اصبحت ضروعها قوية ، مشدودة ، وحلوة ، وكان الحليب يرغي في الشفاه ، فكان يشرق فيه من فرط غزارته وحلاوته . كان يحب الوقوف ، هكذا ، دافنا وجهه في بطن أمه العفراء الضخمة . يا له من حليب ! لذيذ ومسكر ! ان العالم كله ــ الشمس والارض ، والام قد امتزجت جميعا في جرعة الحليب . وكان يمكنه بعد أن يرتوي ان يرتشف جرعة ، ثم جرعة اخرى واخرى ...

واسفاه ، ان ذلك لم يتطاول الا زمنا قصيرا ، بالغ القصر . وسرعان ما تغير كل شيء . فالشمس في السماء ما عادت تصهل أو تثب في الجبال ، انما كانت تطلع في الشرق ، وتنحدر سريعا دون توقف الى الغرب ،

وكفت القطعان عن السير باقدام مرفوعة الى فوق او كما يقال رأسا على عقب ، فتحت قوائمها كان المرج الذي داسته الحوافر طويلا قد اقتم لونه وجعل يبقبق ، اما الاحجار في المضاحل فكانت تطقطق وتتفتت . اما الفرس العفراء الضخمة فقد تجلّت أما صارمة ، فقد عضته على نحو مؤلم في حارك عنقه ، حين بالغ في اضجارها . ولم يَعُد الحليب يكفيه . فتعين عليه ان يقضم العشب . وابتدأت ، هكذا ، تلك الحياة التي امتدت سنين عددا ، والتي حانت نهايتها الآن .

ولم يَعُد الحصان الرهوان ، طيلة كل حياته هذه ، الى ذلك الصيف الرائع الذي ولى الى الأبد . كان يمضي تحت السرج ، ملوحا بقدميه في الطرق المختلفة ، تحت راكبيه المختلفين ، اما الطرق فلم يك لها نهاية . وليس الا الآن ، حين تحولت الشمس من جديد من مكانها ، ومادت الارض تحت الاقدام ، وحين اظلمت الدنيا في عينيه ليس الا في هذا الوقت بالضبط خطر له من جديد ذلك الصيف الذي لم يره منذ وقت غاية في الطول . وها هي تلك الجبال ، وذلك المرج الندي ، وتلك القطعان ، وتلك الفرس الكبيرة تمثل الآن امام عينيه في تألق غريب متموج . وجعل يحرك قدميه مستميتا ، وهو متوتر ، مشدود بكليته ، من اجل

ان يوغل ، منفلتا من تحت طاقمه ، ووائبا متحررا من الرقبية وعريش العربة ، ان يوغل في هذا العالم السحيق، الماضي ، الذي يتفتح له فجأة . لكن الرؤية الخادعة كانت تتنحى في كل مرة وتتقهقر ، وكان ذلك معذبا ممضا . كانت الام تلوح له وتستدعيه كما في الطفولة ، بصهيلها الخافت ، وكانت القطعان تمرق مسرعة ، كما في الطفولة ، ضاربة اياه بجنوبها وذيولها ، أما هو فلم تكفه القوة لدحر عتمة العاصفة الثلجية الوامضة ـ فقد كانت هذه قد اشتعلت أقوى فأقوى ، فكانت تلفحه بذيولها القاسية ، وترميه بالثلج في عينيه ومنخريه ، فكان يرتجف من البرد وهو يسبح في العرق الحار اللاهب ، وما لبث ذلك العالم البعيد الذي لا يطال ان غرق دون ضوضاء ، واختفى في العواصف الثلجية . ها هي الجبال تختفي ، وها قد اختفى المرج والنهر ، وها هي القطعان تهرب عدوا ، وليس الا على نحو معتكر مبقع مرق أمام عينيه ظل الأم ، ظل الفرس العفراء الكبيرة . فلم تكن تريد أن تتركه . وها هي تدعوه . فصهل بكل ما أوتي من قوة ، منتحبا ، الا انه لم يسمع صوته . واختفى كل شيء ، واختفت العاصفة الثلجية أيضا . وكفت العجلات عن القرع . وكف الجرح تحت الرقبية عن الايلام .

وتوقف الرهوان ، متمايلا من جانب الى جانب . وكان يؤلم عينيه النظر . ودوى دوى غريب لا حد له في رأسه .

فرمى تاناباي السوط على مقدمة العربة ، وهبط بخرق منها ، وسوى ساقيه الخدرتين وقومهما ، ثم تقدم مضطربا الى الحصان .

ـ ايه ، يالك من سيىء ! ـ عذل حصانه بهدوء ، وهو يتطلّع اليه .

ووقف ذاك ، وكاد يتخلص من الرقبية اذ حرر منها رأسا ضخما يستند الى رقبة طويلة نحيلة . كانت اضلاعه تصعد وتهبط أعلى وأسفل على نحو متوتر ، رافعة جنبين هزيلين ، رخوين . وقد كان لفترة ما أصفر اللون فاتحا ، ذهبيا ، أما الآن فهو بني من العرق والوسخ . وكانت تيارات العرق الرمادية تهبط في أشرطة صغيرة من العصعص البارز الى البطن ، على القوائم والحوافر .

ـ لكأني لم استحثك . ـ بدأ تاناباي يتذمر ويدمدم . وخفف من توثيق حزام السرج ، وحل حبل الرقبية ، وفك اللجام . وكان اللجام قد تندى بلعاب حار لزج . فمسح تاناباي بردن معطفه خطم الحصان ورقبته . وانقذف بعدئذ الى العربة يجمع منها بقايا

العلف ، والتقط ما ملأ نصف حضنه ، ورماه عند قدمي الحصان . بيد ان هذا لم يلق بالا الى العلف ، وكانت تأخذ بمجامعه رعدة خفيفة .

وحمل تاناباي بيده الى الحصان شيئا من العلف .

ـ هاك ، خذ ، كل ، ولكن ماذا دهاك !

كانت شفتا الحصان قد تحركتا بعض الشيء ولكنهما ، على أي حال ، لم تستطيعا التهام العلف . وتطلع تاناباي اليه مباشرة في عينيه واقتم في الحال . ففي عيني الحصان الغائرتين عميقا ، نصف المفتوحتين ، ذات الجفون المتغضنة المنسولة ، لم ير هو شيئا . لقد انطفئتا وكانتا فارغتين كشباكي بيت مهجور .

واجال تاناباي طرفه ذاهلاً في ما يحيطه : في البعيد كانت الجبال ، وفي الجوار سهب أجرد وما من أحد في الطريق . ففي مثل هذا الوقت يندر المارة هنا .

ووقف الحصان الهرم والرجل الهرم وحيدين في الطريق البري .

كان ذلك في نهاية شباط . وكان الثلج قد زال عن السهول ، ولم يبق الا في الوديان والمنخفضات القصبية حيث كان الثلج قد ظل مكوما بشكل اعمدة فقرية حيوانية في مرابض الشتاء الخفية . وكانت الريح تأتي برائحة الثلج الراقد الخفيفة ، وعلى العموم كانت

الارض لا تزال متجلدة بشكل ما ، مزرقة ، هامدة دونما حياة . وكان السهب الحجري في نهاية الشتاء مقفرا ومضجرا . ومن مجرد مظهره شعر تاناباي برجفة اقشعر منها بدنه .

وتفحص ، وهو يرفع لحية شعثاء رمادية ، تفحص طويلا ، وهو يلقي نظرة من تحت زدنه الناصل اللون الى الغرب . كانت الشمس معلقة بين الغيوم في الافق . وقد تسرب في الافق غروب داخن غير ألق . ما كان شيء ينذر بالطقس السيىء ، ولكن مع ذلك كان الجو باردا ومريعا .

«لو كنت قد عرفت إلامَ يؤول الامر ، لكان افضل لي ان لا ارتحل – تأوه تاناباي آسفا ، – اما الآن فلا إلى هنا ولا إلى هناك ، قف وسط هذه البرية المقفرة . عبثا أرهق الحصان» .

أجل ، لعله كان ينبغي عليه ان يسافر صباح الغد . ففي النهار يمكن أن يلتقي بمار ما لو حدث حادث في الطريق . أما هو فقد ارتحل بعد الظهر . اوذا ممكن في مثل هذا الوقت ؟

وارتقى تاناباي اليفاع من اجل ان يلقي نظرة عله يلمع في البعيد سيارة رائحة أو غادية . ولكن لا في هذا الاتجاه ولا في ذاك لم يسمع ولم ير شيئا . فقفل راجعا الى العربة .

«عبثـا ارتحلـت» ، ـ اخذ تاناباي يفكر من جديد ، لائما نفسه ، ليس في المرة الاولى ، بسبب هذا الاستعجال الابدي . وحنق مما حدث ليس على نفسه فحسب ، بل وعلى كل ما سبب له الاستعجال بالارتحال من بيت ابنه . بالطبع كان ينبغي عليه ان يبات ليلته ، وان يمنح الحصان فرصة راحة .. أما هو .. !

ولوح تاناباي بيده غاضبا يائسا . «كلا ، ما كنت لأبقى في أيما حالة . لكنت ذهبت من عندهم ماشيا ! ـ طفق يتبرر أمام نفسه ، ـ أو ممكن حقا التكلم بهذا الشكل مع والد الزوج ؟ أيا من كنت ـ أظل أبا . أية كنة هذه التي تقول : ايه ، لأي شيء كان يلزمك أن تنتسب الى الحزب ، مادمت تقضي حياتك كلها في الرعي ، وها هم يطردونك عند شيخوختك ... والابن طيب بدوره ! انه صامت ، ولا يجرؤ ان يرفع عينيه . ستقول له زوجته : تبرأ من ابيك ، وسيتبرأ . إنه ضعيف الارادة ، ومع ذلك يريد الرئاسة . أواه ، ماجدوى الكلام ! انه جيل آخر هذا الجيل ، قوم آخرون» .

وصار تاناباي يشعر بالضيق من الحرارة ، ففك ياقة قميصه ، وطفق يمشي حول العربة ، وهو يتنفس

بعسر ، ناسياً امر حصانه ، والطريق ، والليـل الذي سيحل وشيكا . ولم يستطع أن يهدأ بحال . لقد ضبط نفسه هنـاك ، في بيت ابنه ، واعتبر اهـانة لكرامتـه الشجار مع كنته . لكنه انفجر فجاة ولو استطاع لكان قد قذف بوجههـا الآن بكل ماقد فكر فيه بمرارة في الطريق ، ولكان قد قال لها : « لست أنت من قبلني في الحزب ولا انت من طردني منـه . أنى لـك ان تعرفي ، أيتها الكنة ، ما وقع آنذاك . بالطبع الآن ممكن الحكم بسهولة . فالآن كل متعلم ، وكل يعرف ويفهم كل شيء ويحظى بالاحترام والتكريم . أما منا فقد تطلبوا الكثير ، اجل وكيف تطلبوه . كنا مسؤولين عن الاب والام ، عن الخل والخصم ، عن أنفسنا ، وحتى عن افعال كلبة الجار ، عن كل شيء كنا نسأل . اما كونهم فصلوني ، فهذا أمر لا يعنيك . إن هذا الأمر هو مصيبتي ، أيتها الكنة . فلا تمسيها ! »

ـ لا تمسيهـا ! ـ استطـرد يعيد جهـارا ، وهو يقرع بخطواتـه عند العربة . ـ لا تمسيهـا ! ـ اكد هو الشيء ذاته . وكان أشد ما يغيظه ويذلـه انه ما كان يعرف ، فيما يبدو ، ماذا عليه ان يقول ، ما خلا هاتين الكلمتين « لا تمسيها ! »

كان لا يزال يمشي ويمشي حول العربة ريثما صحا

على نفسه ليتذكر ان عليه ان يقوم بصنع شيء ما ، عوضا عن البقاء هنا بالذات طوال الليل .

اما غولساري فكان واقفا مربوطا بعنان العربة وهو لا يزال على حالته تلك ، دون حراك ، غير مبال بشيء ، متقوس الظهر ، لاما اقدامه ، كان يبدو كما لو انه قد تخشب .

— ماذا دهاك ؟ — وثب اليه تاناباي فسمع في التو انينه الهادئ الممدود . — أغفوت ؟ أو تشعر بسوء أيها الشيخ ؟ أحالك سيئة ؟ — لمس بعجالة اذني الرهوان الباردتين ، ودس يده في عفرته . هناك كانت برودة ايضا ونداوة . لكن كان أشد ما أرعبه كونه لم يتحسس بالثقل الاعتيادي للعفرة . « لقد شخت تماما، وها قد تناثرت عفرتك ، وخفت حتى لكأنها زغابة . كلنا نشيخ ولكلنا ذات النهاية » ، — كان يفكر بمرارة ، وعلى مضض . ونهض بتردد ، دون أن يعرف ما العمل . فلو ترك الحصان والعربة ، ومضى ماشيا ، فانه كان سيستطيع قبيل منتصف الليل بلوغ مأواه ، وادراك بيته الصغير في الشعب . ثمة كان هو يعيش في قاعدة للرعي مع زوجته ، في جيرة مع ناظر كولخوز الاسماك القاطن على مبعدة كيلومتر ونصف ، أعلى منه ، على النهر . وفي الصيف كان على تاناباي ان يعنى

بالحش ، اما في الشتاء فعليه أن يعنى بالاكداس ، من أجل ان لا يسرق الرعاة العلف او يبذروه قبل وقته .

وفي احد ايام الخريف المنصرم جاء تاناباي الى الدائرة في جملة قضايا ، وقال له الرئيس الجديد ، وهو مهندس زراعي شاب من القادمين الى هنا .

ـ امض ، ايها الشيخ الحكيم ، الى اسطبل الخيل ، لقد اخترنا لك حصانا آخر . حقا انه عجوز بعض الشيء ، لكنه بالنسبة الى عملك مناسب .

ـ أي حصان هذا ؟ ـ نصب تاناباي أذنيه ـ أو فرس هزيل مرة أخرى ؟

ـ هناك سيرونك اياه . اشقر بشكل ما انما عليك ان تعرف ، انك قد امتطيته ، كما يقولون ، وقتا من الاوقات .

وتوجه تاناباي الى الاسطبل ، وحين رأى الحصان الرهوان في الفناء ،انقبض قلبه على نحو مؤلم : «ها اننا نلتقي ، اذن ، من جديد !» ـ قال هو في سرّه وهو يحاور الحصان المنهك الكليل . ولم تسعفه قواه للرفض . فاخذ الحصان معه .

وفي البيت تعرّفت الزوجة بالكاد على الحصان .

ـ تاناباي ، أو حقا هذا هو غولساري ذاك ذاته ؟ ـ قالت دهشة .

ـ هو ، هو ذاته ، وأي عجب في ذلك ؟ـ تمتم تانا باي ، جاهدا ان لا ينظر ناحية زوجته .

ما كان الامر يستحق ولا يدعو لأن يتوسّعا في تداول الذكريات المتعلقة بالحصان . كان ثمة لتاناباي اثم في شبابه . ولاجل ان يتجنب المجرى غير المرغوب للحديث بادر بالقول بصوت رنّ ببعض الخشونة :

ـ حسنا ، لماذا تقفين ، سخني لنا أكلا . انني جائع كالكلب .

ـ أجل ، ها اني أتطلع وأفكر ،ـ اجابت ـ ماذا تعني الشيخوخة . لو لم تقل لي أنت أن هذا هو غولساري ذاته ، لما كنت قد عرفته .

ـ ما وجه العجب هنا ! أتتصورين أننا نبدو في حال أفضل ؟ كلا ، لكل شيء وقته .

ـ وها اني أكلمك عن هذا بالذات .ـ وهزت رأسها متأملة ثم ضحكت بطيبة قلب وهي تقول :ـ لعلك ستعاود الارتحال على حصانك ليلا ؟ سأسمح لك .

ـ كلا !ـ لوّح بيده مستاء وأدار ظهره الى زوجته . كان ينبغي أن يجيب على المزحة بمزحة ولكنه لكي يداري ارتباكه انسل مندسّا تحت سقف العنبر كي يجمع علفا . وانشغل هناك طويلا . كان قد تصوّر أنها نسيت ذلك الامر ، ولكن ها قد تبين العكس .

وتصاعد الدخان من المدخنة ، حيث كانت الزوجة قد سخنت طعاما للعشاء ما تبقى من الغداء البارد ، ولكنه كان لايزال منشغلا بالعلف ، الى ان هتفت تقول :

ــ انزل ، والا فان الاكل سيبرد ثانية .

ولم تتحدث ، المزيد ، عن الماضي ، ولكن علام الحديث ؟ . .

وعني تاناباي بالحصان طوال الخريف والشتاء ، فكان يعلفه النخالة الدافئة ، وشرائح الشوندر . فلقد كانت اسنان غولساري في النزع الاخير ، ولم يتبق منها الا جذاميرُها . وبدا ، كما لو انه قد استطاع ، اخيرا ، أن يشفي الحصان ويمنحه القوة والحيل . وها قد حدثت هذه المصيبة ! فكيف ينبغي تدبير الامر معه الآن ؟

كلا ، لم تك لديه القوة التي تسعفه لأن يترك الحصان في عرض الطريق .

ــ ثم ماذا ، ياغولساري ، أو سنظلّ على هذا المنوال ؟ ــ دفع تاناباي الحصان بيده ، فبدأ يترنح ، وراوح في مكانه . ــ هنا انتظر ، سارجع في الحال .

ورفع بعصا السوط ، من جوف العربة ، كيسا فارغا كان قد حمل به البطاطا للكنة . وتناول من هناك صرة . وكانت زوجته قد خبزت له خبزا للطريق ، ولكنه نسى ذلك ، فقد كان في شغل شاغل عن الاكل .

وكسر تاناباي نصف رغيف ، وفتته قطعا صغيرة في طرف ثوبه ، وحمل الفتات الى الحصان . فتنشق غولساري رائحة الخبز بضجيج ، لكنه لم يستطع الاكل بحال . فجعل تاناباي يطعمه من راحة يده . ودفع له في فمه بعضا من القطع ، فجعل الحصان يلوكها .

–كل ، كل ، لعلنا سنصل بشكل ما ، ها ؟ – قالها تاناباي جذلا – رويدا رويدا ، وعلى مهل ، قد نصل ، ها ؟ أما هناك فليست ثمة ما يخيف ويرعب ، فسنرعاك انا والعجوز سوية وسنشفيك ، – ردّد كلامه . وعلى يديه المرتجفتين سال اللعاب من شفتي الحصان ، اما هو فقد سرّ إذ صار اللعاب أدفا فادفا .

ثم قبض على اعنة الحصان .

– هلم بنا ! لا داعي للوقوف ! هلم ! – أمره هو بحزم .

فانفصل الحصان من مكانه ، وصرّت العربة ، وقرعت العجلات الارض على نحو بطيء . ومضينا وئيدا – الرجل الشيخ والحصان الهرم .

« ضعفت تماما ياهذا ، – طفق تاناباي يفكّر في الحصان ، وهو ينقل خطاه على حافة الطريق . – كم لك من العمر ياغولساري ؟ عشرون عاما ، وقد يكون أكثر . لعله اكثر ... »

٢

كانا قد التقيا للمرة الاولى عقب الحرب .

لقد كان الجندي الأول تاناباي باكاسوف في الغرب وفي الشرق كذلك ، وقد تسرح بعد استسلام جيش كوانتون . وبالجملة مكث تاناباي في سلك الجندية ستا من السنين . ولم يحدث له سوء ، فالله ستر ، وليس الامرة واحدة رض وهو في قافلة عربات ، ومرة أخرى جُرح بشظية في صدره ، ورقد شهرين في المستشفى العسكري ، وبعد ذلك التحق من جديد بوحدته .

وحين كان راجعا الى البيت ، فان بائعات المحطات اطلقن عليه لقب الشيخ ، ولكن كان هذا يحمل معنى المزاح اكثر من اي شيء آخر . ولذا فان تاناباي لم يغتظ تماما من ذلك . فالحق انه لم يعد شابا ، ولكن لم يصبح بعد شيخا بالمقابل ، كل ما في الامر انه يبدو من حيث مظهره كبير السن ، لقد اسمر ما فيه الكفاية لفترة الحرب ، ونشب الشيب في شاربيه ، الا انه روحا وجسدا كان لايزال قويا ، متينا . وبعد عام أنجب من زوجته بنتا ، فاخرى بعد ذلك . وقد تزوجتا ، وأصبحتا مطفلتين ، وغالبا ما كانتا يغشيانه صيفا . كان زوج كبراهما سائقا . فكان هذا يحشر الجميع في جوف

سيارته وينطلق بهم الى الجبال ، نحو نسيبيه المسنين .
كلا ، ما كان ثمة ما يسوؤهما في تصرفات بنتيهما أو صهريهما ، اما الابن فشأنه شأن آخر ...

بعد النصر عندما كان في طريق العودة ، بدا آنذاك كما لو ان الحياة الحقيقية قد ابتدأت الآن على التو . كان الفؤاد مغتبطا تماما . وفي المحطات الكبيرة كان قطارهم يستقبل ويودع من قبل جوقات موسيقية تعزف بالآلات النحاسية . وفي البيت كانت زوجته تنتظره ، وقد دخل الابن عامه الثامن ، وكان يتهيأ للدخول الى المدرسة . عندما كان في الطريق راوده شعور ، كما لو انه قد ولد من جديد في هذا الكون ، وكما لو ان كل شيء مما كان قبل هذا لم يك له اي شأن بتاتا . كان بودّه أن ينسى كل شيء ، وبوده أن يفكر بالمستقبل فقط . وتصور المستقبل واضحا بسيطا : ينبغي العيش ، وتنشئة الاطفال ، وتدبير امور المعيشة ، وبناء بيت ، وباختصار ينبغي ان يعيش . اما الآن فلن يحول دون ذلك اي عائق ، ذلك ان الماضي كله كان قد قُدم ضمانة لكي يمكن الآن ، وبعد كل شيء ، بدء تلك الحياة الحقيقية ، التي نشدوها طيلة هذا الوقت والتي من اجلها انتصروا واستشهدوا في الحرب . ولكنه اتضح ان تاناباي كان

مستعجلا ، مستعجلا جدا . فقد كان يجب على المرء ان يعمل سنوات وسنوات لضمان المستقبل .

وفي البداية عمل تاناباي طرّاقا في ورشة حدادة . فقد كان له ، وقتا من الاوقات ، حذق خاص في ذلك ، فكان ينقضّ بشراهة على السندان ، من الصباح حتى المساء منهالا بضربات عنيفة متلاحقة بشكل كان الحداد معه لا يلحق الا بالكاد ليدور تحت المطرقة قطعة الحديد المتوهجة . بل هو لا يزال حتى الآن يسمع احيانا الطرق الرتيب المتواصل وذلك الدوي في ورشة الحدادة ، الذي كان يغطي على كافة الازعاجات والهموم . فآنذاك لم يكن يكفي لا الخبز ، ولا الملابس ، وكانت النساء يمشين في قالوشات باقدام عارية ولم يكن الاطفال يعرفون طعم السكر ، وغص الكولخوز حتى الهامة بالديون ، وجمدت حساباته في البنك ، اما هو ، تاناباي ،فكان يتخلص من كل هذا بالمطرقة . كان يهوي بالمطرقة بكل قوته ، فكان السندان يدوي ، وكان رذاذ الشرر الازرق يتطاير . «أوغ ـ خا ، أوغ ـ خا ـ كان يزفر ، رافعا المطرقة وهاويا بها ، وهو لا يني يفكر : سيسوى كل شيء ،فالامر الاساسي ـ اننا انتصرنا ، انتصرنا» . وتردّد المطرقة «انتصرنا ، انتصرنا ... نا ... نا ...نا !» ولم يكن هو لوحده على هذه الحال ،

ففي تلك الايام عاش الجميع بريح النصر واحلامه ، كما يعاش بالخبز .

اما بعدئذ فقد اصبح تاناباي من رعاة القطعان ، وارتحل الى الجبال . أقنعه بذلك تشورو . كان تشورو المرحوم هذا رئيسا للكولخوز ، وظل كذلك طوال الحرب . فبسبب قلبه المريض لم يؤخذ في الجندية . وفيما يبدو انه كان قعيد البيت ، الا انه مع ذلك شاخ ما فيه الكفاية . وقد لاحظ تاناباي ذلك فور رجوعه .

كان من المستبعد حقا ان يكون انسان آخر قد استطاع اقناع تاناباي باستبدال عمله في ورشة الحدادة برعي القطعان . بيد ان تشورو هذا كان صديقه القديم الحميم . وفي وقت من الاوقات بدآ سوية ، كعضوين في منظمة الكومسومول ، الدعاية من أجل انشاء الكولخوز ، وسوية نزعا ملكية الكولاك . وقد سعى تاناباي بالذات وعلى نحو خاص ليتم ذلك . فكان لا يرحم احدا ممن ادرجت اسماؤهم في سجل من ينبغي نزع ملكيتهم ...

قدم تشورو اليه الى ورشة الحدادة ، واقنعه بضرورة الانتقال وبدا انه كان جد مسرور بذلك .

ــ ولكني خشيت أن تكون قد التصقت بالمطرقة ، ولن تنفصل عنها ــ قال له مبتسما .

كان تشورو مريضا ، نحيلا ، قد استطالت رقبته ، وانتشرت الغضون على كلتا وجنتيه . وكان الوقت لازال دافئا ، ولكن تشورو حتى في الصيف كان يمضي في صديريه الذي لا يتغير .

جلسا القرفصاء ، عند قناة الري ، غير بعيد من ورشة الحدادة ، وتجاذبا اطراف الحديث . وتذكر تاناباي كيف كان تشورو في شبابه . ففي تلك الفترة كان هو أثقف واحد في القرية ، وكان شابا متميزا . وقد احترمه الناس لطبعه الهادئ الطيب . اما تاناباي فلم تعجبه طيبته . وكان في الاجتماعات ينهد فيعذل تشورو على تسامحه ولينه اللذين لايصح السكوت عنهما في الصراع الطبقي مع العدو . ووجه تاناباي هذا النقد على نحو فعال كما يقدم النقد على صفحات الجرائد . بل كان يعيد فعلا كل ما سمعه في القراءات الجهرية ، يُعيده مستظهرا اياه . واحيانا كان يرتعب هو ذاته من كلماته التي يتفوه بها . ولكن في الحقيقة كان ذلك يتم على افضل شكل .

– أتدري ، لقد كنت امس الاول في الجبال – انشأ تشورو يحكي ، – وسألني الشيوخ الطاعنون في السن ، هل رجع كافة الجنود ؟ قلت لهم : اجل ، الجميع ، جميع من بقي قيد الحياة . «ومتى سينخرطون

في العمل ؟» واجيب : انهم يعملون – بعض في الحقول ، وبعض في اعمال البناء ، وبعض آخر في مكان آخر . «ونحن ايضا نعرف هذا . ولكن من سيرعى القطعان ؟ أينتظرون ، ريثما نموت ولم يتبق لنا الا القليل لنعيشه» . ولقد صرت أشعر بالخجل . هل تسمع الى اي قصد يصلون بالحديث ويوغلون به ؟ لقد ارسلنا هؤلاء الشيوخ ، في زمن الحرب ، الى الجبال ، رعاة للقطعان . وهم هناك منذ ذلك الوقت . انت تعرف احسن من غيرك ان هذا العمل ليس بعمل الطاعنين في السن . فطيلة الوقت ينبغي أن تكون على صهوة الحصان ، دون هدوء أو راحة ، لا ليلا ولا نهارا وفي ليالي الشتاء فالامر اصعب كثيرا ! هل تتذكر ديربيشباي الذي تجمد وهو على السرج ؟ على ان هؤلاء الشيوخ هم الذين روّضوا الخيول – فقد كانت الخيول لازمة للجيش . جرب في سنيك السبعين ان يحملك جواد جموح الى الجبال وفي السهوب فسوف لن يبقى منك شيء الا ركام عظامك ! شكرا لهم لمجرد وقوفهم هناك واصطبارهم ! اما جنود الجبهة قد عادوا منها متكبرين ويزعمون انهم رأوا الوان المدنية خارج الحدود ، وليس بودهم بعد هذا ان يرعوا القطعان ويقولون انهم لا يريدون قضاء الوقت في الجبال . هكذا تجري الامور .

ولكل هذا ساعدنا ، يا تاناباي ، فانك ان مضيت لهذا العمل ، فاننا سنجبر الآخرين ايضا ايحذوا حذوك .

ـ حسنا ، يا تشورو ، ساحاول أن اكلّم امرأتي ـ اجابه تاناباي . اما هو نفسه فكان يفكر : « لقد عركتنا حياة رهيبة وذقنا حلوها ومرها ، اما انت ، ياتشورو ، فلا زلت كما كنت . وستقع في داهية جراء طيبتك هذه . ولعل ذلك سيؤدي الى خير على نحو ما . لقد رأينا كل شيء في الحرب ، وعلينا جميعا ان نكون أطيب وانبل . ولعل هذا هو آكد شيء في الحياة ؟ »

وعلى هذا افترقا ، ومضى تاناباي الى عمله في ورشة الحدادة . اما تشورو فقد هتف به فجأة :

ـ قف ، ياتاناباي ! ـ واقترب منه راكبا على حصانه ، وانحنى اليه وهو على قربوس السرج ، متطلعا اليه في وجهه ـ أنت لن تزعل مني بحال ؟ ـ سأله بصوت منخفض ـ هل تدري انني لا أجدن الوقت بأيما صورة . لقد كان بودي ان نجلس ، وان نتحدث من صميم القلب ، كما كنا نفعل في الماضي . كم من السنين لم نتلاق ! لقد تصورت أنه ما إن تنتهي الحرب حتى تخفّ المشاغل ولكن الهموم لم تتناقص . واحيانا لا تغمض لي عين لانه تنثال في الذهن شتى الافكار : كيف العمل من اجل النهوض باقتصاد التعاونية وكيف يمكن

اطعام الناس وتنفيذ مختلف الخطط . والناس ما عادوا نفس الناس الذين عرفناهم . انهم يريدون ان يعيشوا على نحو افضل .

ولم يقيض لهم ، والحال هذي ان يتكاشفا مكاشفة حميمة ، إذ لم يجدا وقتا للجلوس منفردين . وكان الوقت قد تصرّم ، وفيما بعد لم تسنح الفرصة لمقابلتهما .

وعند ذاك ، اي حين بدأ تاناباي العمل راعيا لقطعان الخيل في الجبال رأى لأول مرة في قطيع الراعي ترغوي الطاعن في السنّ ، ذلك المهر الأشقر الذي كان عمره آنذاك عاما ونصف العام .

– ماذا ، ستترك في إرثك ايها الشيخ الحكيم ؟ ان قطيعك ليس في الحالة الجيدة جدا ! أليس كذلك ؟ – قرص تاناباي راعي القطعان العجوز بهذه الكلمات ، حين انهيا عدّ الخيول وخرجا بها من الزريبة .

كان ترغوي هذا شيخا هزيلا ، قصير القامة مثل صبي ، دون شعرة واحد في وجهه ذي التجاعيد . وكانت قبعته الفضفاضة الشعثاء من صوف الغنم ، تغطي رأسه كما لوانها فطر . ومثل هؤلاء المسنون عادة نشطاء ، مشاكسون وصاخبون .

لكن ترغوي لم يغتظ .

ـ وفي الواقع فالقطيع هو القطيع ، ـ اجاب دون استياء . ـ ليس ثمة ما يستحق التباهي على نحو خاص . عندما ستسوق القطيع ـ سترى الامر بنفسك .

ـ اجل ، سأفعل ذلك ، ايها الاب ، فلم اكن اعني شيئا عندما قلت ذلك ، ـ قالها تاناباي بلهجة مصالحة .

ـ يوجد حصان واحد ! ـ ودفع ترغوي عن عينيه قبعته المنسدلة على جبهته ، وهو ينهض نصف نهوض على الركاب ، مشيرا بمقبض السوط ، ـ هو ذلك المهر الاشقر ، الذي يرعى في الناحية اليمنى . انه سيصبح حصانا ممتازا .

ـ ذلك هو ـ هو المستدير كالكرة ؟ ـ انه صغير القد بعض الشيء كما يبدو من مظهره ، وحقوه قصير .

ـ انه متأخر النمو . حالما يكبر يصبح رائعا .

ـ ولكن ماذا فيه ؟ باي خصلة يمتاز ؟

ـ انه رهوان منذ ولادته .

ـ ثم ماذا ؟

ـ قلما صادفت مثله . وضريب هذا كان يثمن اعظم التثمين في السنين السالفة . وكان البعض يضاربون حتى الموت في المسابقات من اجل الحصول على مثل هذا الحصان .

ـ حسنا ، دعنا نرى ! ـ استطرد تاناباي .

وهمزا فرسيهمـا ، مندفعين الى طرف القطيـع ، وفصلا المهر الاشقر عن القطيع وساقاه امامهما . وكان المهر مستعدا لان يركض شيئا . لقد نفض ناصيته بجذل ونخر وانطلق على الفور من مكانه كمـا لو انّه قد شد بنابض ، وانطلق في رهو سريع نشيط ، راسما نصف دورة كبيرة ليعود بعد ذلك الى القطيع . فهتف تاناباي مسحورا ، وقد شغف بركضه :

– اوه ! انظر كيف يجري ! انظر !

– ماذا تصورت ، اذن ! – علق الراعي العجوز بتحدّ .

واسرعا خببا في اثر المهر الرهوان وهتفا ، مثل طفلين صغيرين في مسابقـات ركض الخيول . وكان صوتاهما قد بلغا مسامع المهر . فجعل يزيد باستمرار من سرعـة عدوه ، من دون توتر تقريبـا ، دون كبوة واحدة ، مضى بتنـاسق وانسجـام كمـا لو انه يحلق تحليقا .

ولزمهما ان يطلقا فرسيهما في رَمح سريع ، ولكن ذلك المهر واصل المضي بنفس ايقاع عدوه ذاك .

– او لا ترى ، ياتاناباي ! – صاح ترغوي اثناء الجري ، ملوحا بقبعته ، – انه مرهف ، حاد السمع ،

مثل سكين في اليد ، انظر كيف يتجاوب مع الهتاف ! آيت آيت ، آيت - آ - آي !

وحين رجع المهر الاشقر أخيرا الى القطيع ، فانهما تركاه يرتاح . لكنهما لم يستطيعا فترة طويلة ان يهدآ ، ويهدئا فرسيهما الهائجتين .

- طيب ، شكرا لك ، يا ترغوي ، لقد ربيت حصانا اصيلا . حتى لقد اغتبط قلبي اغتباطا .

- انه حصان ممتاز ، - وافق الرجل المسن . - فقط احذر ، - واكتسى وجهه سيماء الجد فجأة ، وهو يهرش رأسه - لا تحسده . ولا تثرثر قبل الاوان . فعلى الحصان الرهوان ، كما على الفتاة الجميلة ، يتهافت صيادون كثيرون . ومصير الفتاة كالتالي : ان تقع في ايد طيبة - تبدأ تزهر ، وتقر العين بها ، وان تقع في أيد سيئة ، فانك ستعاني الامرين وانت تنظر اليها . ولا يجدي هنا شيء . وهكذا هو الامر مع الحصان الجيد . فمن اليسير القضاء عليه . ومن الممكن ان يكبو فيموت في العدو .

- لا تقلق ، ايها الشيخ الجليل ، انني ايضا استطيع ان اميز هذا الامر ، لست بألغِرّ .

- تلك هي المسألة ، اما كنيته فهي غولساري ، تذكر هذا !

ـ غولساري ؟

ـ اجل ، فان حفيدتي قد اتت لزيارتي في العام الماضي ، وهي التي دعته بهذا الاسم . لقد احبته . وآنذاك كان هو مهرا حوليا . تذكر : غولساري .

وظهر ان الشيخ ترغوي كان رجلا كثير الكلام . فقد ظل طوال الليل يوزع وصاياه وملاحظاته . وقد استمع تاناباي اليه مصطبرا .

ومضى في توديع ترغوي وزوجته مسافة حوالي سبعة فراسخ من المرتع . وتبقت الخيمة (بيت الشعر) فارغة ، وهو الذي كان عليه ان يؤوي فيها نفسه وعائلته . وفي خيمة اخرى كان سيعيش مساعده . ولكنهم لحد الآن لم يختاروا له مساعدا . وهكذا فقد ظل لوحده في الوقت الحاضر . وفي الوداع ذكره ترغوي من جديد :

ـ لا تمس الاشقر في الوقت الحاضر . ولا تستودعه احدا . وروضه انت بنفسك في الربيع . وكن حذرا . حين يتقبل السرج لا تركض به كثيرا . اذا حثثته كثيرا سيغير رهوته فيفسد عدوه . وحاذر ان لا يكتظ من شرب الماء منفعلا ، في الايام الاولى . فان سقط الماء في قدميه ، فان التهاب الجلد سيظهر في

الاطراف . ومتى ما روضته اربي اياه ، ان كان العمر سيمتد بي حتى آنذاك ...

ارتحل ترغوي مع عجوزه ، تاركا لتاناباي قطيع الخيول ، والخيمة والجبال ، وقائدا معه بعيرا حمله عفشه ومتاعه ...

آه ، لو عرف غولساري كم من الاحاديث دارت حوله وكم ستدور ، والى اي غاية سيؤدي كل هذا !..

كان يمضي في القطيع حراً كما كان الامر في السابق . وحوله كانت ذات الاشياء : ذات الجبال ، وذات الاعشاب والانهار . وليس الا عوضا عن الشيخ السابق صار يسوق القطيع سيد آخر ـ في معطف رمادي وفي قبعة ذات طرفين تغطي الاذنين . كان صوت السيد الجديد مصحوبا ببحّة ، ولكنه كان مدويا ومتسلطا . وسرعان ما تعوده القطيع . فليعد في كافة الانحاء ، ان اعجبه ذلك .

ثم هطل الثلج . هطل غالبا ورقد طويلا . فكانت الخيول تجرف الثلج بحوافرها لتبلغ العشب . واسود وجه الراعي ، اما يداه فقد تجسأتا بسبب الريح . وها هو الآن يسير في جزمتين طويلتين من اللبد ، متدثرا بفروة كبيرة قصد الدفء . وقد نما شعر غولساري طويلا ، ومع ذلك فلازال يشعر بالبرد ، وخصوصا

اثناء الليل . وفي الليالي الصقيعية كان القطيع يتألب جمهورا كثيفا في موقع هادىء محمي من الريح ويغطيه الندى المثلج على وقفته تلك حتى شروق الشمس . فكان الراعي يدور حوله على حصانه ، ويصفق بقفازاته ، ويفرك ويدعك وجهه . وكان يختفي احيانا ويظهر من جديد .وكان الافضل بالنسبة للقطيع حين لا يغيب ولو لمدة مؤقتة . وحين كان يصرخ او يتنحنح من الصقيع ـ كان القطيع يرفع الرؤوس ، ويرهف السمع منصبا الآذان ، ولكن هنا بالذات ، وحين يقتنع القطيع ان الراعي بجانبه ، يبدأ القطيع يغفو تحت حفيف وصفير الريح الليلية . ومنذ ذلك الشتاء رسخ صوت تاناباي في ذاكرة غولساري ، طوال حياته .

وذات مرة هبت عاصفة ثلجية ليلا في الجبال . فسقط الثلج واخذ يتكدس في العفرات ، واثقل الذيول، وصفع العيون ورشها . فعمّ الاضطراب والقلق في صفوف القطيع . فتلاصقت الخيول بعض ببعض ، وجعلت ترتجف . وصارت الأفراس المسنة تشخر بانزعاج ، دافعة المهار الى وسط القطيع . وازاحت غولساري دافعة اياه الى الطرف الاقصى ، ولم يستطع هذا بحال التوغل وسط كومة الخيول . فصار يرفس ويركل ، دافعا الخيول الاخرى ليشق لنفسه طريقا ،

فوجد نفسه معزولا تماما في احد الجوانب ، وهنـــا بالذات تلقى جزاءه من حصان القطيع الضخم . وكان هذا قد جاب طويلا في الجوار وحول القطيع المحتشد ، وحرث الثلج بحوافره القوية ، والقى القطيع في كومة واحدة . واحيانا كان ينقـــذف الى مكان ما في احـــد الجوانب ، حانيا رأسه بشكل تهديدي توعدي وضاما اذنيه ، ويضيع في الظلمة ، فلم يكن يُسمع الا شخيره ، ويعود من جديد ، راكضا الى الخيول وملؤه الحنـــق والغضب . وحين لحظ هو غولساري الشارد في جانب ، انقضّ عليه بصدره ، واستدار ، ليركله في جنبه بقوة رهيبة بحافري قدميه الخلفيتين . وكان هذا على درجة من الايلام بحيث ان غولساري كاد يختنق . وهــوى شيء ما في جوفه ، ومن شدة الضربـــة زعق وبالكاد تمالك نفسه واقفا . ولم يحاول بعد ذلك ان يتصرف على هواه . ووقف مسالمـــا ، متسمّرا في جانـــب القطيع ، وجنبه يئن مــــن الألم ، والاستيـــاء والحنق يعصفان به بسبب الحصان الشرس . وهدأت الأفراس ، وهنا ما لبث ان سمع عواءا مزعجا مطيلا . انـــه لم يسمع قط عواء الذئب ، واستشعر كيف تجمد كل شيء في نفسه ، في لحظة ، وتخثر . وارتجف القطيع ، وتوتر ، مرهفا السمع . وسكن كل شيء . ولكن هذا

السكون كان مرعبا . وكان الثلج لا يزال يهطل ، ملتصقا بحفيف على خطم غولساري المرفوع . أين الراعي ؟ لقد كان لازما جدا في هذه الدقيقة . لو سّمع صوته على الاقل ، وتُنشّقت الرائحة الداخنة لفروته . لكنه ليس موجودا . فاشاح غولساري بعينيه الى جانب ، وتخشب من فرط رعبه . وكما لو ان شبحا ما خطف من جانبه ، وانبطح في الظلمـــــة على الثلج . فانتكص غولساري بحدة ، وجفل القطيع في الحال مندفعـــا ، وانفصل من مكانه واثبا . انطلقت الخيول تصهل وتزعق بضراوة ، فاقدة الرشد ، واندفعت ، مجنونة ، كالتيار الجارف ، في حلكة الظلام الدامس . ولم تك تلك القوة التي كانت تستطيع ايقافها . وانقذفت الخيول الى امام بكل ما أوتيت من قوة ، تجذب الواحدة الاخرى ، وانقضت كجلمود صخر حطّه السيل من عل . وانطلق غولساري ، دون ان يفهم شيئا ، انطلق في رمح لاهب ضار . وفجأة دوى طـــلق ثم سُمع آخـــر . وسمعت الخيول في عدوها صراخ راعيها المسعور . كان الصراخ يُسمع في مكان ما من احد الجوانب ، وما عتم ان لاقى القطيع ليقطع عليه الطريق ، دون ان يكّف ثم صار يُسمع من الامام . وقـــد ادركت الخيول الآن هـــذا الصوت الذي لا يهدأ ولا ينقطع ، وفهمته ، فانقـــادت

وراءه . آجل ، لقد كان راعيها معها . كان يجري امامها بمنتهى السرعة ، مخاطراً بالوقوع ، في أيما لحظة ، في شعب او هوة جبلية . كان قد صرخ بقوى منهارة ، ثم جعل يبح ، ولكنه واصل الصراخ بكل صورة : «كايت ، كايت ، كايتا ـ آ ـ آيت !» وطفقت الخيول تعدو في اثره ، منقذة من الخطار الذي احاق بها والرعب الذي لاحقها .

وقبيل الفجر ساق تاناباي القطيع الى المكان القديم . وليس الا هنا استكنت الخيول ووقفت . وكان البخار قد انعقد فوق القطيع سحابة كثيفة ، وكانت جنوب الخيول ترتفع وتنخفض ، وهي لا تزال ترتجف من الهلع الذي عانته . فصارت تلتهم الثلج بنهم . والتهم تاناباي الثلج ايضا . كان قد جلس القرفصاء وانشأ يدس في فمه حفنات من الكتل الصغيرة الباردة البيضاء . ثم قعد طويلا ، دون حراك ، عاطفا بوجهه على راحتيه . وكان الثلج ما برح يهطل . فكان يموع فور وقوعه على ظهور الخيل الحارة ، ويسيل قطرات عكرة صفراء .

وكرت الايام وذاب الثلج ، واخضرّ العشب ، وتعاظم نمو جسم غولساري سريعا . كان القطيع قد نصل لونه ، وابتدأ يتلامع بشعر جديد . وكأنه لم يكن

نقص في العلف ابدا . لم تكن الخيل تتذكر ذلك ، وليس سوى الانسان كان يتذكره . كان يتذكر القر والزمهرير ، وليالي سطو الذئاب ، وكيف كان يتجمد في السرج ، وكيف كان يعض شفتيه ، من أجل ان لا يبكي ، مدفئا بنار الشعاليل اطرافه المتجمدة . تذكر الغطاء الجليدي الربيعي ، والارض المقيدة بالجرب الرصاصي . تذكر كيف نفقت آنذاك الخيول الضعيفة في القطيع ، وكيف جاء الى دائرة الكولخوز ، هابطا من الجبال ، ووقّع ، دون ان يرفع طرفه ، محضرا بجائحة البهائم ، وكيف صار يصرخ ويدق بجمع يده طاولة الرئيس :

— لا تنظر الي بهذا الشكل ! لست بالفاشي امامك ! اين العنابر للقطعان ، اين العلف ، اين الشوفان ، اين الملح ؟ بالريح وحده نعيش ! او هكذا اُوصينا ان ندبر امورنا الاقتصادية ؟ الا ترى ، بأية أسمال أمشي أنا ! انظر الى مساكننا ، تعال لترى كيف نعيش ! اننا حتى من الخبز لا نشبع ! . وحتى في الجبهة كان الحال أفضل بمائة مرة مما نحن عليه الآن . أما انت فتنظر اليّ ، بعد ذلك كله ، كما لو اني انا الذي خنق هذه الخيول واجهز عليها !

وتذكر الصمت الرهيب الذي جابهه به الرئيس ،

ووجهه المربدّ . وتذكر كيف أحسّ بالخجل من كلماته تلك وكيف بدأ يعتذر :

ـ طيب ، سامحني ، اصفح عني ، لقد انفعلت .ـ كان يخرج هذه الكلمات متلجلجا .

ـ على العكس انك من ينبغي عليه مسامحتي ـ قال له تشورو .

وأحس بالمزيد من الخجل ، حين دعى الرئيس أمينة المخزن ، وأمرها :

ـ اعطيه خمسة كيلوغرامات من الطحين .

ـ ولكن ماذا لدار الحضانة ؟

ـ اية دور حضانة ؟ انك دائما تخلطين . نفذي الامر ـ امر تشورو بحدة .

وكاد تاناباي ان يرفض رفضا باتا ، فمادام الحليب سيتدفق ، فسيكون شراب الكوميس جاهزا ، ولكنه اذ نظر ناحية الرئيس واذ حدس خداعه المر ، اجبر نفسه على الصمت . وبعد ذلك كان في كل مرة يتشيط بالشعرية المصنوعة من هذا الطحين . فكان يرمي بالملعقة جانبا :

ـ ماذا ، أتريدين احراقي ؟

ـ ولكن انتظر حتى يبرد فانك لست بالصغير ،ـ كانت تجيبه امرأته بهدوء .

تذكر ذلك ، تذكر كل شيء ...

ولكن ها قد حل نوار . جعلت الاحصنة تحمحم ، متهارشة متقاتلة فيما بينها ، طاردة الافراس الصغيرة من احصنة القطعان الاخرى . وانقذف الرعاة مستميتين ، طاردين الاحصنة المشاكسة ، وتسابوا فيما بينهم ، واحيانا تناوشوا بالايدي ، ولوحوا بالسياط . وكان غولساري في شغل شاغل عن كل هذا . فالشمس كانت تشرق متناوبة مع هطول الامطار ، ونتأ العشب تحت الحوافر . واخضرّت المروج اكثر فاكثر ، فيما ظلت تطل عليها من فوق ثلوج ناصعة البياض اتخذت مستقرها على قمم الجبال . وابتدأ المهر الرهوان الاشقر يعيش زهرة شبابه في ذلك الربيع . لقد تحول من مهرله عام ونصف فحسب ، أزغب ، مستدير ، الى حصان قوي رشيق . وقد استطال قوامه فاقدا الملامح الناعمة ، واتخذ شكلا مثلثا ــ صدرا واسعا ومؤخرة ضيقة . واصبح الرأس عنده الآن كما عند الحصان الرهوان الحقيقي ، نحيفا ، محدودب الانف ، بعينين اتخذتا محجريهما على سعة كافية فيما بينهما ، وشفتين ملمومتين جاسيتين . ولكن هذا لم يهمه قط . كانت تتملكه رغبة واحدة ، رغبة تطلبت راعيه الكثير من الانشغال . تلك كانت الرغبة في الركض . فكان ينطلق ، جاذباً وراءه اقرانه ، ينطلق

بينهم مثل مذنّب اصفر . وكانت تدفعه ، دون كلل ، قوة لا تنضب للجري نحو الجبال ، ونحو منحدراتها وسفوحها ، وعلى طول الشاطئ الحجري ، وفي الدورب بالغة الضيق والحدّة ، وفي الوديان والوهاد . وحتى في هدأة الليل البهيم حين كان يغفو تحت النجوم ، كان يرى في المنام كيف كانت الارض تفر تحته ، وكيف كانت الريح تصفر في عفرته واذنيه ، وكيف كانت تلغط حوافره لكأنها تقرع اجراسا .

وكان موقفه من راعيه كموقفه من أي واحد آخر ليست له معه علاقة . فلا هو يحبه ، ولا هو بالمستشعر ايما سخط عليه ، ذلك لان هذا لم يتدخل في شؤونه . اللهم الا اذا انهد يشتم الخيول حين توغل هذه في الابتعاد . واحيانا لزم الراعي في مناسبات اخرى ، ان يمشق كفل الحصان الاشقر بالسوط الانشوطي مرة او مرتين . فكانت تأخذ بمجامع بدن غولساري قشعريرة ورجفة عند هذا ، لكن ذلك كان في اكثره بسبب عدم التوقع اكثر مما كان من الضرب ذاته ، فكان يزيد بسبب ذلك من سرعة جريه . وكلما شدّد من ركضه ، وهو يعود الى القطيع ، كلما ازداد اعجاب راعيه به ، وهو يجري في اثره مائلا عليه يستحثه بسوطه ذاك . وكان غولساري يسمع من

ورائه هتافات الاستحسان ، كمـــا كان يسمــع كيف كان ذاك يبدأ الغناء وهو على صهوة حصانــــه ، وفي مثل هذه اللحظات كان هو يحبّ راعيه ، يحبّ العدو على ايقاع اغانيه . وقد عرف ، فيما بعد ، هذه الاغاني على نحو جيد ، وكانت أغاني مختلفة ، منها المرحــة ومنها الحزينة ، منها الطويلة ومنها القصيرة ، وكان لبعضها كلمات فيما لم يكن لبعضها الآخر . واحبّ هو ، ايضا ، حين كان الراعـــي يطعم القطيع الملح . فكان هذا يضع كتل الملح للحس في معالف خشبيــة طويلة قائمة على اوتاد صغيرة ، فكان القطيع بأسره ينقضّ عليه انقضاضا . وكان في ذلك متعة كبيرة . ولكنه وقع في الشراك بسبب هذا الملح .

ففي ذات مرة قرع الراعي في سطل فــارغ ، وجعل يدعو الخيول « بو ، بو ، بو ! » فهـــرعت الخيول ، وخرت امام المعالف . ولحس غولساري الملح ، واقفا بين الخيول الاخرى ، ولم يقلق البتــة ، حين صار الراعي يوالي مـع مساعده مداورة القطيــع والسوط الانشوطي بايديهما . ان ذلك لم يعنــه . وبهذا السوط الانشوطي كانا يلتقفان ويقتنصان خيول الركوب ، والافراس الحلوبة ، وأفراسا اخرى ، الاه فقط . فلقد كان حرا على هواه . وفجأة تــزحلقت

انشوطة وبراء على رأسه وتعلقت برقبته . لم يفهم غولساري فيمَ المسألة وفيمَ السر ، فالانشوطة لم ترعبه بعـــد ، وظل يواصل لحس الملـــح . وكانت الأفراس الاخرى تحرن ، وتشبّ على اعقابها ، حين تُرمى عليها الانشوطة ، اما غولساري فلم يتحرّك قيد شعرة . لكن ها هو يشتهي الماء ويودّ ان يمضي الى النهر ليشرب . فاندفع من مكانه . لكن الانشوطة ضاقت على الرقبة واوقفته . مثل هذا لم يقع له ابدا. فانتكص غولساري ، وبدأ يشخر ويغطّ ، ووسّع عينيـــه ، ثم شب على عقبيه . وكانت الخيول قـــد انفضّت من حوله راكضة متفرقة ، وتكشّف هـــو لوحده مع الناس ، الذين كانوا يمسكون به على وهق اشعر . كان صاحبه واقفا في الامام ، ووراءه الراعي الثاني ، وفي الحال جعل اطفال الراعيين يدورون في مكانهم حوله ، وكانوا قد ظهروا هنا منذ زمن قصير ، وقد اضجروه بما فيـــه الكفاية بجريهم السريـــع اللاانتهاء له حول القطيع .

وهيمن الرعب على الحصان . فشبّ مرة اخرى ، واخرى ، واخرى . كانت الشمس تلوح مرة بعد اخرى في عينيه على نحو مضجر مزعج ، منشالة في دوائـــر حارة ، وجعلت الجبال ، والارض ، والناس تهوى ،

منتكسة على ظهورها ، وماعتم ان أغلق العينين برهة فراغ أسود ، مُرعب ، ما لبث الحصان ان انهد يدقّه بقائمتيه الاماميتين .

ولكن مهما دقّ وخفق باطرافه ، فان الانشوطة كانت تضيق عليه أشدّ فاشدّ ، فانقذف الحصان لاهثا ، مختنقا ، لا بعيدا عن الناس بل نحوهم بالذات . فتنحّى الناس جانبا ، وخفّت وطأة الانشوطة لحظة ما ، وما هي الا لحظة حتى جذبهما جرّا على الارض ، جرّاء سرعته البالغة في الحركة . فصرخت النساء ، وابعدت الاطفال الى المساكن . وعلى كل حال وُفق الراعيان لان ينهضا ، ومن جديد صارت الانشوطة تشدّ على رقبة غولساري . وفي هذه المرة كانت من الشدة بحيث استحال التنفس وتعسرّ . وتوقف ، خائرا ، وهو ينوء من دوخان الرأس والاختناق .

وأنشا راعيه يقترب اليه من جانبه مخفّفا الوهق في يديه . ورآه غولساري بعين واحدة . كان الراعي قد اقترب منه بملابس ممزقة ، وخدوش وتسلّخات في وجهه . لكن عيني الراعي نظرتا دون حقد . كان يتنفّس بعسر ، ومالبث ان جعل يكلّمه ، متمطّقا بشفتين مشنجوجتين ، بوهن ، كانه يهمس :

ــ تك ، تك ، غولساري ، لا تخف ، قف ، قف !

ووراءه ، اقترب مساعده منه بحذر ، دون أن يخفّف الوهق . وبلــغ الراعي ، أخيرا ، بيده ، بلــغ الحصان ، ومسّد رأسه ، ومالبث ان رمى بكلمـة الى مساعده باقتضاب ، دون ان يلتفت اليه :

ــ اللجام !

وناوله هذا اللجام .

ــ قف ، يا غولساري ، قف ايهـــا الشاطر .ــ كان يحاوره راعيه . ورمى على رأسه باللجام ، وهو يغطّي عيني الحصان الرهوان براحته .

والآن ما عليه الا ان يلجمه ويسرجه .

وحين رمى باللجام على رأسه ، بدأ غولســـاري يشخر ، وحاول الافلات والانطلاق بعيدا . لكن راعيه وُفّق لان يقبض على شفته العليا .

ــ اعطني المشد ! ــ صاح هو في مســـاعده ، فخف هذا اليه ، ووضع بسرعة على شفته مشدا مــن السيور وجعل يدوّرها بعصا .

وبرك الحصان من الألم على قدميـه الخلفيتين ولم يَعد يقاوم . وكانت الألجمة الحديديــة البــاردة قد بدأت تدوي على الاسنان ومالبثت ان غرزت في زاويتي الفم . وعلى الظهر رموا شيئا مـا ، وشدوا ، وجعلـوا يضغطون الصدر بالسيور على دفعـــات ، وهكذا كان

يترنح ويتمايل من جانب الى جانب . لكن هذا ما كان يعني شيئا . فعلى الشفة كان قد جثم ألم شديد جدا ، لا يطاق . وزلقت عيناه على جبهته من فرط ما ألم به من وجع . ولم يكن ممكنا لا التحرك ، ولا الزفير . وحتى هو لم يلاحظ ، كيف ومتى استوى عليه راعيه ، ولم يفق ويصح على نفسه الا بعد ان نزعوا المشدّ من الشفة .

ووقف دقيقة واخرى ، دون ان يتميز شيئا ، مشدودا بكليته ومتثاقلا ، ثم مال بطرفه ، ناظراً عبر الكتف ، ورأى فجاة على ظهره انسانا . ومن فرط رعبه انقذف بعيدا ، لكن الألجمة خرقت الفم ، اما قدما الانسان الذي امتطاه فقد لزتاه لزّا ، متشبّثتين بقوة ، في جنبيه . فشبّ الحصان ، وبدأ يصهل مستاءا بضراوة ، وبدأ يندفع جيئة وذهوبا ، وهو يرفع بقوة مؤخرته ، متوترا تماما ، من اجل ان ينفض عن نفسه كل ما خنقه ، وانطلق الى جانب ، لكن الوهق الذي كان يمسك بنهايته تحت الركاب انسان آخر ، على حصان آخر ، لم يفلته . وآنذاك جعل يركض في دورة ، جعل يركض متوقعا ان تنفرط الدائرة ، وان ينطلق بعيدا الى حيث يمتد نظره وتقوده عيناه . ومهما كان الامر فان الدائرة لم

تنفكّ ، وكان لا يزال يركض ويركض في دورات . وكان هذا بالذات ما يريـده الراعيـــان . وكان سيده يضربه بالسوط ويلزه بكعبي حذائه . ومع ذلك فقد أفلح الحصـــان في اطراح سيده مرتين . لكن هذا كان ينهض في كل مرة ليثب من جديد الى صهوته .

وقد تطاول هذا أمدا طويلا ، جد طويـل . كان الرأس يدوخ ، والارض تدور حوله ، والمساكن تدور ، والخيول المتناثرة بعيدا تدور ، والجبال تدور ، بـل وحتى الغيوم في السماء تدور . وتعب بعد ذلك وجعل يخطو وئيـــدا . فقـــد اشتهى جدا ان يشرب المـــاء .

لكنهـم لم يسمحـوا له بذلـك . وعنـد المسـاء ، وضعوه ، دون ان ينزعوا السرج عنه ، انمـا خففوا التوثيق فقط ، ووضعوه في المربط لفترة طويلـــة . كانت مقاود الاعنة ملفوفة على قربوس السرج ، الأمر الذي ترتب بسببــــه ان يحتفظ بالرأس مرفوعـــا ، وبالطبع فهو لم يستطع الرقود على الارض في مثل هذا الوضع . وكان الركابان مرفوعين الى فوق وملفوفين على قربوس السرج ايضا . وهكذا ظل واقفا طوال الليل . وقف مسالما ، وقد اياســـه وأوهن عزمـــه كل هذا العناء الذي لا يصدّق ، والذي كان عليه ان يعانيـه . وكانت الألجمة في الفم لا تزال تعوقـــه ، فان أتفـــه

حركة منها كانت تسبّب الما حارقا ، ولم يكن مسرا طعم الحديد . وكان اللجام قد مزق زاويتي الفم المتورّمتين . كما كانت توجعه تحت جنبه الامكنة التي برتها الأحزمة . وكان ظهره تحت حلس السرج يؤلمه جدا . واشتهى الشرب بضراوة . كان يستمع الى ضجيج النهر ، فاستحوذ عليه عطش حاد . كانت القطعان ترعى هناك ، وراء النهر ، كما هو الحال دائما . وقد ترامى اليه وطء حوافر خيول كثيرة ، وصهيل الافراس ، وهتاف رعاة القطعان في الليل . كان الناس قد استكنوا عند الشهاليل يستريحون بجانب مساكنهم . وكان الصبيان يتحرشون بالكلاب ، بل وكانوا يقلدون نباحها . اما هو المسكين فقد لبث واقفا ، وكان الجميع في شغل شاغل عنه ، لا يهمهم أمره .

بزغ القمر بعدئذ . فانقشعت الظلمة جزئيا عن الجبال التي ابتدأت تتأرجح ، منورة بالقمر الاصفر . وازداد تألق النجوم ، وتعاظم اقترابها من الارض . وفيما كان هو يقف هادئا مسالما ، مشدودا الى محل واحد . الا ان فرسا ما كانت تبحث عنه . أجل ، فلقد سمع صهيل الفرس الكميت الصغيرة ، هي نفسها التي نشأ معها والتي كان معها باستمرار ودونما افتراق .

وكان لها فوق غرتها نجمة بيضاء . كانت تحب العدو معه . وقد صارت الاحصنة تطاردهـا بمغازلاتهـا ، ولكنها لم تستسلم لاحد ، وكانت تفرّ معه بعيدا عنها . لقد كانت قاصرة ، كما انه هو لم يكن قد بلغ بعد ذلك العمر ، الذي يجعل ممكنا له اقتراف ما كانت تحاول عمله الاحصنة الاخرى .

وها هي تصهل في مكان ما قريب تماما . اجل ، كانت هذه هي بعينها ، فقد كان يعرف صوتها تماما . وأراد ان يجيبها ، ولكنه خاف ان يفغر فاه المجهد ، الوارم . فقد كان هذا مؤلما على نحو رهيب . وأخيرا وجدته هي نفسها . فعدت اليه بخطى ناشطة سريعة ، متألقة تحت ضوء القمر بنجمتها البيضاء في غرتهـا . وكان ذيلها واطرافها مبللة رطبـة . لقد اتتـه عبر النهر ، حاملة رائحة الماء الباردة . فدفعته بخطمها ، وجعلت تتشمم ، ملتصقة به بشفاه ملمومة ، وفيئة . ونخرت بلطف ، وهي تدعوه للذهاب معا . ولكنـه لم يستطع التحرك من مكانه . فوضعت ، بعدئذ ، رأسها على رقبته وجعلت تهرش عفرته باسنانها . وكان عليه هو بدوره ان يجيبها بالمثل فينيخ رأسه على رقبتها ليحك عفرتها ايضا . بيد انه لم يستطع مبادلتها هذه المداعبة . اذ لم يكن في حال تؤهلـه للحركـة . كان

يشتهي شرب الماء . اواه ، لو كانت تستطيع سقيه الماء ! وحين قفلت راجعة نظر اليها في اثرها الى ان ذاب ظلها في العتمة المسائية وراء النهر . اتت ورجعت اذن . واحسرتاه ، ففاضت الدموع من عينيه . جرت دموعه قطرات كبيرة على خطمه وتساقطت عند قدميه دونما ضجة . لقد بكى الحصان لأول مرة في حياته .

وفي الصباح الباكر جاءه سيده . وأجال طرفه حوله وفيما يحيط به ، فلحظ الجبال الربيعية وتمطّى ، وتأوه مبتسما من الم في عظامه ومفاصله .

ـ اوه ، غولساري ، لقد سحبتني واتعبتني بما فيه الكفاية . ماذا بك ؟ أبرْدت ؟ انظر كيف اصبحت انت ! حسن المظهر جدا .

وأنشأ يرّبت على رقبة الحصان ، وجعل يقول له شيئا ما طيبا ، مضحكا . انّى كان لغولساري ان يعرف ماذا كان يقول له الانسان ، وبِمَ يحدّثه ؟ لكن تاناباي قال :

ـ حسنا ، لا تزعل مني ايها الصديق . لن تظل الى الابد دونما عمل . ستتعود ، وستعود المياه الى مجاريها . اما كونك قد شبعت عذابا فهذا أمر لا يمكن تجاوزه وتخطّيه . فالحياة ، يا ايها الاخ ، هي ذلك الشيء الذي يعلمنا كل شيء وكل حيلة . ولقاء

ذلك لن تركع ، فيما بعد ، ولن تكبو وتعثر بكل حجر في الطريق . هل أمضّ بك الجوع ، ماذا ؟ أتريد الشرب ؟ اعرف ...

واقتاد الحصان الى النهر . فكّ الاعنة ، ونزع اللجام بحذر من الفم الجريح . فانقضّ غولساري وهو يرتجف على الماء ، وانكبّ يشرب بحيث باتت عيناه تؤلمانه من برد الماء . آه ، كم كان لذيذا طعم الماء ، وكم كان هو ممتنا من الانسان لقاء ذلك !

هكذا تم الامر اذن . وسرعان ما صار لا يستشعر أيما تضايق تقريبا من السرج لكثرة ما تعود عليه والفه . بل صار يؤانس في نفسه الجذل والنشاط اذ يحمل فارسه . وكان هذا يقلل من جموحه ، فلا يعطيه الفرصة للعدو السريع ، اما هو فكان يتقحم منطلقا ابدا الى أمام ، راسما ، على نحو واضح متميز ، اثرا دقيقا لرهوه الفنان ، في الطرقات والدروب . لقد تعلم السير تحت السرج بذلك الشكل السريع ، المتناسق ، المنتظم ، بحيث ان الناس كانوا يفغرون الافواه من التعجب والاعجاب :

ـ ضع عليه سطلا مليئا بالماء ـ ولن يريق قطرة واحدة !

اما الراعي القديم ، ترغوي الطاعن في السن ، فقد قال تاناباي :

ـ شكرا لك ، لقد روضته جيدا . وسترى ، الآن كيف سيرتفع ويعلو نجم حصانك الرهوان !

٣

كانت عجلات العربة العتيقة تصرّ ببطء في الطريق البري . وبين آونة واخرى كان الصرير يكف وينقطع . كان الرهوان يتوقف ، وقد خارت قواه . واذ ذاك كان يسمع في غمرة الصمت الابدي الوشيك الحلول ، كيف كانت تتردد داوية في الاذنين دقات القلب : توم ـ توب ، توم ـ توب ، توم ـ توب . . .

وكان الشيخ تاناباي ينتظر ريثما يستريح الحصان ويستجمع انفاسه ، ثم يعاود من جديد لجمه :

ـ فلنمض ، يا غولساري ، هلم بنا ، انظر ، سيحل المساء وشيكا .

وعلى هذا المنوال جرا نفسيهما ساعة ونصف الساعة ، حتى توقف الحصان نهائيا . انه لم يستطع ان يسحب العربة اكثر من هذا الحد . وتململ تاناباي من جديد وتحرك ، وجعل يجري حول العربة :

ــ ماذا دهاك يا غولساري ، ماذا ؟ سيحل الليل وشيكا !

غيران الحصان لم يكن يفهمه . كان واقفاً في عُدته ، يهز برأسه ، الذي اصبح حمله عبئا لا يطيقه ، ويترنح ويتمايل على اقدامه من جانب الى جانب . اما في الاذنين فقد ظل خفق القلب يواصل دقاته : توم ــ توب ، توم ــ توب .

ــ حسنا ، سامحني ، ــ طفق تاناباي يتحدث . ــ كان علي ان أحزر امرك في الحال . فلتذهب الى سقر هذه العربة ، وهذا الطقم ، اواه ، لو استطعت فقط ان اقتادك حيا الى البيت .

والقى بفروته على الأرض ، وانشأ يفكّ الحصان من العربة . اطلقه من العريش ، وسحب الرقبية خطفا عبر الرأس ، ورمى بالطقم كله الى العربة .

ــ ها قد انتهى كل شيء ، ــ قال هو مرتديا فروته وجعل يجيل بصره في الحصان الرهوان الذي حُلّ عن العربة . كان الحصان واقفا وسط السهب المظلم البارد ، مثل شبح ، دونما طقم ، دونما رقبية ، وبرأس تجاوز الحد في ضخامته . ــ يا إلهي ، الى أي شيء تحولت يا غولساري ؟ ــ همس

تاناباي . ـ لو بُعث ورآك الآن ترغوي لقفل راجعا لتوّه الى قبره . . .

وجعل يقتاد الرهوان بالمقاود ، ومن جديد انطلقا وئيدا في الطريق . انسان هرم وحصان هرم . لقد تبقت العربة الملقاة المهجورة وراءهما ، اما أمام، في الغرب ، فقد خيمت في الطريق ظلمة بنفسجية قاتمة . كان الليل ينثال دونما ضجيج في السهب ، مغطيا الجبال بردائه الفضفاض ، مجترفا الافق تماما .

ومضى تاناباي وجعل يتذكر كل شيء يتعلق بالحصان الرهوان في السنين العجاف الطوال ، وأنشأ يتأمل الناس بسخرية مريرة : «كلنا على هذي الحال . يتذكّر احدنا الآخر حتى نهاية الحياة فقط ، وحين يمرض المرء بشدة او يموت ، آنذاك يصبح واضحا لنا جميعا من فقدنا ، وأيا كان هو ، وبأي شيء يتمجد ، وأي أمور انجز . ولكن ما القول في المخلوق غير الناطق ؟ ترى من لم يحمله غولساري ؟ من لم يرتحل عليه ؟ ولكن ما دام قد شاخ ، فهاهم جميعا ينسونه . انه يمضي الآن ، يجرجر بالكاد قدميه . ولكن أي جواد كان ! ..» .

وتذكّر من جديد امورا شتّى ، وعجب كيف انه

لم يعاود منذ زمن طويل افكاره عن الماضي . لقد بُعث الآن حيا لديه كل شيء مما كان وقتـــا من الاوقات . وها قد تجلى يقينا ان لا شيء يختفي دونما أثر . وقبلا كان لا يفكر في الماضي الا قليلا ، او بالاحرى لم يسوغ لنفسه ان يفكر بالماضي ، اما الآن ، وبعد المحادثة مع الابن والكنّة ، وفي غمرة جولانه في الطريق في الليل مع حصانه المحتضر الذي يقتاده خلفه ، الآن جـــعل يتطلع بألم وحزن الى السنين التي عاشها ، ومثلت هذه كلها حية امام باصريه .

هكذا مضى هو موسوقا بافكاره ، امـــا الرهوان فكان يجر بقدميه في المؤخرة ، وهو يشدد طيلة الوقت اكثر فاكثر من جذب المقاود . وحين خدرت يــــد الشيخ ، رمى هو بالمقاود على كتف آخر ، ومن جديد جرّ بالحصان وراءه . وصعب عليه ذلك بعدئـــذ ، فسمح للحصان بان يستريح . ونزع ، بعد ان تأمـــل قليلا ، اللجام من رأس الحصان .

ــ امض الى الامام ، امض كيفمـــــا استطعت ، سأكون أنا وراءك ، لن ارميـــــك ولن اهجرك ــ قال هو ــ طيب ، امض ، امض رويدا .

والآن مضى الحصان في الامام ، وتاناباي وراءه ، وقد رمى باللجام عبر كتفه . انه لن يرمي اللجام قط .

وحين كان غولساري يتوقف ، كان تاناباي يرقبه ريثما يلتقط انفاسه ويستجمع قواه ، ومن جديد كانا يمضيان في الطريق . حصان هرم وانسان هرم .

وابتسم تاناباي بأسى ، متذكرا ، كيف ان في هذه الطريق بالذات جرى ، في وقته غولساري فكان يثير الغبار وراءه كالذيل . وكان الرعاة يقولون ، اذ ذاك ، انه قياسا على هذا الغبار كانوا يتعرفون على عدو الرهوان من بُعد فراسخ كثيرة . وكان الغبار من تحت حوافره يخطّ في السهب اثرا أبيض جاريا ، وفي الطقس الخالي من الريح كان هذا الأثر يعلو على الطريق ويخيم مثل دخان طائرة نفاثة . كان الراعي يقف في مثل هذه الدقائق ، حاجبا عينيه براحة يده ويقول في سره : «انه هو قد أتانا ، غولساري !» وكان يفكر بحسد في ذلك الانسان السعيد الذي كان يطير عليه ، والريح تسفع وجهه . انه لشرف كبير للقرغيزي حين يعدو تحته مثل هذا الحصان الشهير .

كم من رؤساء الكولخوز التقى بهم غولساري وذهبوا ولكنه ظل باقيا ، لقد كانوا مختلفين ـ منهم اذكياء وحمقى ، شرفاء وغير شرفاء ، ولكنهم كلهم دونما استثناء ارتحلوا عليه منذ اليوم الاول حتى اليوم الاخير لرئاستهم . «ترى اين هم الآن ؟ أيتذكرون الآن

غولساري ، الذي كان يحملهم من الصباح حتى المساء ؟» ـطفق يفكر تاناباي .

وبلغا ، اخيرا ، الجسر عبر الوادي . وهنا توقفا مرة اخرى . هنا أخذ الحصان يثني اطرافه ، من اجل ان يضطجع على الارض ، ولكن تاناباي لم يستطع ان يسمح بهذا : والا فلن تستطيع ان تنهضه بأيما قوى ، بعد ذلك .

ـ انهض ، انهض ـ صار يصرخ فيه ، ويضرب في رأسه باللجام .ـوواصل الصراخ ، منزعجا من نفسه لانه ضرب الحصان ـ ماذا بك ، أفلا تفهم ؟ أو تريد ان تموت ؟ لن اسمح لك ! انهض ، انهض ، انهض ! ـ كان يجذب الحصان من عفرته .

وقوّم غولساري اطرافه بصعوبة ، وأنّ بثقل . وبالرغم من ان الجو كان مظلما ، الا ان تاناباي لم يجرؤ ان ينظر الى الحصان في عينيه . وربّت عليه ، ولمسه وجسه ، ثم وضع اذنه على جنبه الايسر ليستمع الى ضربات قلبه . وهناك في صدر الحصان ، كان القلب يطرطش لاهثا بسرعة مثل عجلة الطاحون في اعشاب الماء . وقف على هذه الحال بجانب الحصان طويلا ، محدودبا ، الى ان نغزته خاصرته . ثم انتصب في وقفته ، هازا رأسه ، وتنهد ، وقرر انه ربما تلزمه

المخاطرة ـ وذلك بان ينحرف من الطريق وراء الجسر الى الممر الضيق الذي يمتد على طول الوادي . كان هذا الممر يمضي في الجبال ، وبسلوكه كان يمكن بلوغ البيت على نحو اسرع . حقا ، في الليل ، من المحتمل اضاعة الطريق ، ولكن تاناباي كان يؤمل على نفسه وخبرته ، فقد كان يعرف هذه الاماكن من قديم ، كل ما يحتاجه ان يصمد الحصان .

وفيما كان الشيخ يفكر في ذلك ، كانت قد ومضت في البعيد المصابيح الامامية لسيارة مارّة في الطريق . عوّم الضوء فجأة طالعا من الظلمة في كرتين متالقتين صارتا تقتربان حثيثا ، تجسّسان امامهما الطريق باشعة طويلة مترجحة . وكان تاناباي والحصان واقفين عند الجسر . وبالطبع ، فالسيارة لم تستطع مساعدتهما بحال ، ولكن تاناباي مع ذلك صار ينتظرها . كان ينتظر مجرد الانتظار ، دونما وعي أو تقدير . «اخيرا ، ولو واحدة» ـ كان يفكر مسرورا أنه قد ظهر اناس في الطريق . وطعنته المصابيح الامامية لسيارة نقل في عينيه بحزمة ضوئية قوية فغطاهما بيده .

كان شخصان جالسين في قمرة سيارة ينظران باندهاش الى الرجل الشيخ عند الجسر ، والى الفرس الهزيلة الواقفة بجنبه دون سرج ، دون لجام ، كما

لوانها لم تكن فرسا وانما كلبا متعلقا وراء الانسان . وفي لحظة ما كان تيار مستقيم من الضوء قد أنـــار الشيخ والحصان لدرجة البياض ، فتحــــولا فجأة الى شبحين هزيلين .

ــ غريب ، لماذا هو هنا في منتصف الليل ؟ ــ قال الفتى الطويل النحيف المرتدي قبعة تغطي اذنيه ، والقاعد ازاء السائق .

ــ هذا هو ، وتلك عربته هناك ، ــ اوضـــح السائق موقفا سيارته .ــ ماذا ، ايها الشيخ ؟ ــ صرخ هو مُطلعا رأسه من القمرة .ــ أو انت الذي رمـى العربة في الطريق ؟

ــ اجل ، انا .ــ اجاب تاناباي .

ــ تلك هي المسألة . ننظر ، واذا بمركبة ملقاة في عرض الطريق . ولا احد حولها . اردنا ان نأخـــذ عدّة الحصان ، لكنها هي الاخرى لا تصلح لشيء .

وصمت تاناباي .

وترجّل السائق ، وخطا بعض خطوات ، وهـــو يلهث على الشيخ برائحة الفودكا الحادة ، وشرع يبول في ناحية ما في الطريق .

ــ ولكن ما الذي حصل ؟ ــ سأل هو ملتفتا الى الشيخ .

ـ لم يستطع الحصان المضيّ اكثر ، فقد اعتلّ ، وهو عجوز .

ـ أم ـم . والى أين الآن بالذات ؟

ـ الى البيت . الى قرية «ساريغوسكايا» .

ـ تيو ـ صفر السائق ، ـ يعني الى الجبال ؟ ليس في طريقنا . والا لحشرناك في جوف السيارة ، وبهذا الشكل ، لكنت قد رميتك عند السوفخوز ، ومن هناك تسافر غدا .

ـ شكرا . لكن الحصان معي .

ـ أهذه الجيفة ؟ فلترْمه الى الكلاب ، اطرحه هناك في الوادي ، وتحُلّ المسألة ، ستنقره الغربان . سنساعدك إذا اردت .

ـ اذن واصل طريقك ، ـ قالها الشيخ من بين اسنانه مكتئبا .

ـ حسنا ، لك ماتريد ! ـ ضحك السائق ، وصفق الباب ، كما لو كان يخاطب قمرته ، ـ لقد اخرفّ الشيخ !

وتدحرجت السيارة ، حاملة معها تيارا معتكرا من الضوء . وصرّ الجسر بتثاقل فوق الوادي ، وقد أنير بضوء المصابيح الخلفية ، الضوء الاحمر القاتم ...

ــ لِمَ تضحك من الرجل ؟ وكيف اذا حصل لك مثل هذا ! ؟ ــ قالهـــا الفتى ذو القبعـــة التي تغطي اذنيه ، والجالس في القمرة حذاء السائق .

ــ هراء . . . . ــ آجابه السائق ، وهو يتثاءب ، وقد أدار المقود ، ــ لقد وقعت معي شتى الوقائع . وكان الحق معي ، تصور لا يستطيع ان يفارق الفرس الهزيلة ! مخلفات الماضي ! الآن ، ياخي ، حل التكنيك في كل مكان . في كل مكان تجـــــد التكنيك . وحتى في الحرب . حقا ، لقد حانت النهاية لمثل هؤلاء الشيوخ وهاته الأفراس المسنة !

ــ أيّ وحش انت ! ــ قال الفتى .

ــ لأبصقنّ على كل شيء . ــ اجاب ذلك .

وبعد ان اختفت السيارة ، وخيّم الظلام ثانية في الجوار ، واعتادت العينان الظلمــــــة من جديد ، كان تاناباي قد شرع يحثّ الحصان الرهوان :

ــ طيب ، فلنمض تشو ، تشو ! امض !

ووراء الجسر حرف الحصان من الطريق اللاحب الى الممر الضيق . والآن مضيا يتحركان ببطء في الممر الذي بالكاد كان يلاحظ فوق الوادي وكان القمر قـــد طلع لتوه من وراء الجبال . وكانت النجـــوم تنتظـــر طلوعه ، وهي تأتلق شاحبة في السماء الباردة .

وفي ذلـــك العام ، حين كان غولساري قد رُوّض ودُرب ، كانت القطعان قد سيقت من مراعيها الخريفية في وقت متأخر . استطال الخريف اكثر من المعتاد ، ولكن الشتاء كان خفيف الوقع ، فكان الثلج يهطل غالبا ، ولكن دون ان يرقد طويلا ، وكان العلف كافيا . اما في الربيع فقد هبطت القطعان ثانية ، الى التلال السفحيّة ، وما إن اخضرّ السهب حتى انتقلت الى أسفل .

ولعل ذلك كان أفضل الأوقات عند تاناباي بعد الحرب . كان حصان الشيخوخة الاشهب قد انتظـــره وراء المضيق الجبلي ، بالرغم من قربه ، والى ذلـــك الوقت كان تاناباي يرتحل على الحصان الرهوان الاشقر الفتيّ . ولو وقع بيده ذاك الحصان بعد بضع سنين ، لكان من غير المرجّح أن يتمتع بمثل تلك السعادة ، وبتلك الاثارة الجريئة ، التي كان يمنحها اياه امتطاء غولساري والارتحال عليه . أجل ، ان تاناباي ما كان يمانع احيانا من ان يختال فخورا امام الناس . وانّى له ان لا يختال ويتباهى ، وهو يمتطي صهوة رهوان عدّاء ! وكان غولساري يعرف هذا جيدا . وخصوصا حين كان تاناباي يرتحل الى القرية عبر الحقول ، حين كان يلتقي النساء الماضيات زرافاتٍ الى العمل . فكان

يستوي في السرج ، وهو لايزال بعيدا عنهن ، ويقوّم من جلسته ومن نفسه . وقد افعم توترا ، وكانت اثارته هذه تُعدي الحصان ايضا . فكان غولساري يرفع ذيله باستواء مع ظهره تقريبـــا ، وكانت عفرته تنبسط بصفير في الريـــح . كان يحوّم ناخرا بعض الشيء ، طائرا يحمل فارسه بخفّة ورشاقة . كانت النساء في المناديل البيض والحمر يتنحين عن الدرب ، متناثرات في أطرافه ، غاطسات حتى الرّكَب في القمح الاخضر . وها هنّ يتوقّفن مسحورات ، ليستدرن مرة واحدة ، متألقات بوجوه مشرقة وابتسامات واسنان بيضاء .

ـ أيه أيها الراعي ، على مهلك !

وفي اثره يندلع الضحك والكلمات العاذلة الساخرة :

ـ اسمع ، ستقع يوما ما ، وسنمسك بتلابيبك !

وكان يحدث ان يصطدنه في الحقيقة ، قاطعـــات الطريق عليه ، تمســـك الواحدة بيدي الاخرى . أيّ وقائع كانت تحدث هنا ! فالنساء يحببن العبث . كن يأخذن تاناباي ملقيات بـــه من السرج ، ويقهقهن ، ويزعقن ، مختطفات السوط من يديه :

ـ اعترف ، متى ستأتينا بشراب الكوميس ؟

ـ اننا هنا في الحقل من الصباح حتى المساء ، اما انت فتتنزّه وتتقلب على الحصان الرهوان !

ـ حسنا ، من الذي يعوقكن ؟ امضين للعمل في رعي القطعان ! شيء واحد أوصين بعولكن كي يبحثوا لأنفسهم عن نســـــاء أخريات . وستتجمدن أنتن من الزمهرير مثل قطرات الماء المتجمدة .

ـ هكذا اذن ! ـ وكن يقبلـــن من جديـــد على مضايقته .

ولم يسمح تاناباي ، ولا مرة ، لأحد بأن يمتطي الرهوان . وحتى تلك المرأة ، التي كان يتغيّر مزاجه فور التقائـه بها مرغمـا الرهوان على السير وئيـــدا ، حتى هذه المرأة لم تمتط جصانـــــه ولا مرة واحدة . ولعلها لم تكن تتمنى ذلك .

وفي ذلك العام اُنتخب تاناباي في لجنة مراقبة الكولخوز . فكان يرتحل غالبا الى القرية . وفي كل مرة تقريبا كان يلتقي بتلك المرأة . وكثيرا ما كان يخرج من الهيئة الادارية حانقــــا ساخطا . وكان غولساري يتحسس ذلك حين ينظر الى عينيه ، ويستشعر ذلك من صوته ومن حركات يديه . ولكن حين كان يلاقيها ، كان يرقّ ويلطف دائما .

ـ حسنا ، خفّف الخطو ، الى اين تطير ! ـ كان يهمس له ، مهدئا من جري الحصان اللاهب ، وما إن يحاذي المرأة حتى يبدأ السير متثاقلا .

كان يتحدثان عن شيء ما بخفوت ، والا فانهما يصمتـــان . وكان غولساري يحس كيف كان العبء ينزاح من قلب صاحبه ، وكيف يدفأ صوته ، وترقّ يداه . ولذلك فانه كان يحبّه ويرتاح اليه ، حين كانا يقصدان هذه المرأة .

أنّى للحصان أن يعرف أن الناس كانوا يعيشون بعسر في الكولخوز ، وانهم كانوا لايصيبون شيئـا مـن أيام العمل ، وأن عضو لجنة المراقبة تاناباي باكاسوف كان يستفهـم في الهيئـة الاداريـة ، ويستقصـي الأمر : كيف كان يقع ذلك ، ومتى ستبدأ ، في النهاية ، شروط تلك الحياة التي يمكن ان يعطى معها للدولة شيء ما كما يصيب الناس شيئا أخر بحيث لايعملون مجانا .

وفي العام الماضي كان الموسم سيئا وكان هناك جفاف وعوز في العلف ، أما في العام الحالي فقد تجاوزوا الحدّ المقرّر في تسليم الحاصل والماشية ، مشتغلين مكان الآخرين ، من اجل أن لا توصم المنطقـة بالوصمـة الرديئة ، ولكن ما الذي سيكون في المستقبل ، وعلى أي شيء يعتمد الكولخوزيون ــ فهذا أمر غير معلوم . كان الوقت يتصرّم ، وصــار الناس ينسون الحرب وأهوالها وشدائدها ، ولكنهم استمروا يعيشون كمـا في السابق بما كانوا يجمعون من الحواكير ، وبما كانوا

يتفنّنون في خطفه من الحقول الكولخوزيـة . ولم تكن نقود في الكولخوز : كان كل شيء يعطى للدولة على حساب الكولخوزيين وبخسارتهم ـ الحبوب ، والحليب ، واللحـم . وفي الصيف كانت تربيــة المواشي تغتني وتتوسّـع ، ولكن في الشتاء كان كل شيء يذهب أدراج الريح ، فكانت الماشية تنفق من البرد والجوع . فكان ينبغي ان يسرّع ببناء الحظائر المسقفـــة وزرائب البقر ، وقواعد العلف ، ولكن لم يكن ثمة ما تؤخـذ منه مواد البناء ، كما لم يعدهم أحد باعطائهم ذلك . اما السكن فلأي شيء استحــال في زمن الحــرب ؟ وحيدون اولئك الذين دبّروا أمر سكناهم ، إنهم اولئك الذين كانوا يكثرون من السعي الى الاسواق بالبطاطـا والماشية . ومثل هؤلاء أصبحوا قوة ، وهم قد وجدوا لأنفسهم مواد البناء في مكان ما .

ـ كلا ، لا ينبغي أن يكون الامر كذلك ، أيهـا الرفاق ، ثمة أمرنا هنا ليس كما يُرام ، يلوح لي ان مشكلة كبيرة ألـمّت بنـا ، ـ كان يقـول تاناباي ، ـ كلا ، لا اصدق ان الأمر ينبغي ان يكـــون على هذا الشكل . اما نحن قد نسينا كيف العمل ، او انكـم تسيؤون قيادتنا .

ـ كيف ليس هكذا ؟ أي شيء غير صحيح ؟ ـ كان المحاسب يدفع له الاوراق . ـ انظر الخطط ... هذا الوارد وهذا الصادر ، هذا رصيد الدين ، وهذا القرض ، وذاك هو الرصيد الباقي . لا أرباح ، خسارات فقط . ماذا تريد اكثر ؟ ميّز أولا ، قبل ان تتكلم . أو أنت وحدك شيوعي ، ونحن اعداء الشعب ، نعم ؟

وكان آخرون يلجون الحديث ، بادئين نقاشا ، وضجيجا ، فكان تاناباي يجلس ، ضاغطا بيديه على رأسه ، ويتأمل بيأس فيما يحدث هنا . كان يتعذب من أجل الكولخوز ليس فقط لانه كان يعمل فيه ـ فقد كانت هناك اسباب اخرى ، اسباب خاصة . وكان للبعض حسابات قديمة مع تاناباي . وكان يعرف انهم الآن إنما يضحكون منه في الخفاء ، وعندما يرونه ينظرون بتحدّ في وجهه : ولكن كيف تجري الامور ؟ ربما ستنتزع الملكية مرة أخرى ؟ شيء واحد واضح ان الطلب منّا الآن غير كبير ، اننا نقول لك : مدّ رجليك على قدر غطاءك ! أوه ، لماذا فقط لم تُصب في الجبهة ! ...

وكان يجيبهم بنظرة تقول : انتظروا ، ايها الأوغاد ، سيّان سيكون الأمر على طريقتنا وكما نريد !

ولكن هؤلاء الناس ليسوا غرباء ، إنهم ذووه . وكان اخوه من أمه قولوباي ــ وقد اصبح طاعنا في السن الآن ، كان قد قضّى سبع سنين في سيبيريا . وقد حذا الابناء حذو ابيهم ، فكانوا يكرهون تاناباي بضراوة . ولكن لأي شيء يحبّونه ؟ ولعل أولادهم سيظلّون يكرهون سلالة تاناباي . ولهم في ذلك اسبابهم . ان تلك القضية قديمة ، ولكن الاساءة تعيش طويلاً عند الناس . أو كان ينبغي حقا السلوك بذلك الشكل مع قولوباي ؟ أفلم يكن هذا فلاحا متوسط الحال ليس الا ؟ ولكن القرابة موجودة . كان قولوباي ابنا من الزوجة الكبرى ، أما هو فمن الصغرى ، ولكن عند القرغيز يعدّ هؤلاء الاخوة مثل الأخوة الأشقاء . اذن هو حتى على القرابة اعتدى ، اوه ، ما اكثر ما كانت الاحاديث آنذاك . والآن بالطبع يمكن الحكم بطرق مختلفة . اما آنذاك ؟ أو ليس من أجل الكولخوز اقدم هو على ذلك ؟ ولكن أكان ذلك ضروريا حقا ؟ بالأمس لم يكن ليشكّ في ذلك ، اما بعد الحرب فقد جعل يفكر احيانا خلاف ذلك . أفلم يزد هو بذلك اعداءه واعداء الكولخوز ؟

ــ حسنا ولماذا تقعد ياتاناباي صامتا ، اصح ! ــ كانوا يعيدونه الى الحديث . ومن جديد

كانت تتكرّر الامور ذاتها : ينبغي في الشتاء نقل الدمان الى الحقل ، وجمعه في الاحواش . وما دامت لا توجد عجلات ، اذن يلزم شراء خشب الدردار ، وقطع الحديد للاطارات ، ولكن بأية نقود ، وهل يعطوننا قروضا ، ولكن لقاء أي شيء ؟ ان البنك لا يثق بمجرد الكلمات . والسواقي العتيقة ينبغي إصلاحها ، وحفر سواقي جديدة ، والعمل كبير وصعب . والقوم لا يمضون في الشتاء للعمل ، فالارض متجمدة ولا يمكن نقرها . اما في الربيع فلن تلحق لتتم كل شيء : البذار ، ولادة الماشية ، قلع الاعشاب المضرّة وبعد ذلك الخشّ أيضا ... ولكن كيف سيكون الامر مع تربية الاغنام ؟ أين حظائر الولادة ؟ وفي مزرعة الحليب ليس الحال بأفضل . لقد نخر السقف وتأكل ، والعلف لا يكفي ، والحالبات لا يُردن العمل . انهن يعملن من الصباح الى المساء ، ولكن ماذا يتسلّمن ؟ ولكن كم من المشاغل والهموم والنواقص الاخرى ؟ ان الحال كانت مرعبة احيانا .

ومع ذلك فقد استعاد القوم هممهم ، وجعلوا يناقشون من جديد هذه القضايا في الاجتماعات الحزبية ، في الهيئة الادارية للكولخوز . وكان الرئيس هو تشورو الذي لم يقدّره تاناباي حق قدره ،

الا فيما بعد . فلقد تجلّى ان الانتقاد كان اسهل . وكان تاناباي مسؤولا عن قطيع الخيل ، أما تشورو فعن الجميع وعن كل شيء في الكولخوز . أجل ، كان تشورو رجلا قويا . وحين بدا ان كل شيء قد انهار ، وحين أمسى القوم يدقون الطاولة مهددين إياه في المركز المنطقي ، حين كانوا ينددون به في الكولخوز ، حينذاك لم تهن عزيمة تشورو ولم تخر . ولو كان تاناباي مكانه لكان اما جنّ أو انتحر . اما تشورو فكان قد حافظ على المزرعة التعاونية ، وصمد حتى استنزف قواه والى أن تدهور قلبه تماما ، ثم عمِل عامين منظما حزبيا . كان تشورو يحسن الأقناع ، ويتقن فنّ المحادثة مع الناس . فكان يحصل غالبا ان تاناباي بعد الاستماع اليه ينقلب مؤمنا من جديد ان كل شيء سيحلّ وستسوّى الامور فتُصبح بذلك الشكل الذي حلم به في البداية . وليس الا مرة واحدة فقط تزعزعت ثقته في تشورو ، وحتى في هذه المرة كان هو نفسه صاحب القسط الاكبر في الذنب . . .

ما كان الحصان الرهوان يعرف ما الذي جرى في روح تاناباي ، حينما خرج هذا من الهيئة الادارية بنظرة حانقة مغتاظة ، وقد زوى ما بين حاجبيه ،

وحين ارتقى صهوته بفظاظة وجذب الاعنة بحدّة . لكنه استشعر ان صاحبه في حال بالغة السوء . وبالرغم من ان تاناباي لم يضربه قط ، الا ان الحصان في مثل هذه اللحظات كان يخشى صاحبه ويتهيّبه . وما إن رأى في الطريق تلك المرأة ، حتى فهم الحصان ان الامر سيهون الآن وسيخفّ على صاحبه ، وانه سيلطف ويرقّ ، وانه سيمسك به فيما هو يتكلم بخفوت معها ، اما يداها فستعبثان عبثا رقيقا بعفرته ، وستربّتان على رقبته . ولم يكن لأحد من الناس مثل هاتين اليدين المداعبتين . كانت هاتان اليدان خارقتين ، لدنتين ، وحساستين مثل شفتي تلك الفرس الكميت الصغيرة ذات النجمة في غرّتها . ولم تكن عند أحد في الدنيا عينان مثل تينك اللتين عند هذه المرأة . وكان تاناباي يتحدث معها ، منحنيا على السرج ، وكانت هي اما تبتسم واما تتجهّم ، هازّة برأسها ، غير موافقة على شيء ما ، وكانت عيناها تتلونان بالنور والظل ، مثل احجار في قاع نهر جبلي صغير في ليلة مقمرة . وحين تودعه كانت تلتفت وتهزّ برأسها مرة اخرى .

كان تاناباي يرتحل بعد هذا متأملا . وكان يُرخي الأعنة ويطلقها بحرية ، فكان الحصان الرهوان يمضي

حسبما يريد . كان يخبّ خببا قصيرا في الطريـــق . وكأن صاحبه لم يكن في السرج . وكأن كلا منهما ، هو وصاحبه ، كانا على هواهما . وكانت الاغنية تطلع على هواها . فكان تاناباي يغني بخفوت ، ومن دون وضوح في الكلمات ، وعلى الأيقاع المتناســـق الرتيب لوطء حوافر الرهوان ، كان يغنّي عن عذابات الناس الذين غادروا هذه الدنيا منـــذ زمان . أما الرهـــوان فكان يتولّى دربا معروفا لديه ويحمله الى السهب ، وراء النهر ، والى قطعان الخيل . . .

كان غولساري يحبّ حلول هذا المزاج عنـــد صاحبه ، وكان يحب بطريقته الخاصة هذه المرأة . كان يعرف قوامها ، ومشيتها ، وكان يصطاد بشمّه الحاد ، رائحة ما غريبة ، سحرية ، رائحة عشب غير معروف لديه ، كانت تنبعث منها . كانت تلك رائحة القرنفل . فقد كانت تتحلّى بعقد من أزهار القرنفل .

ـ أو لاحظتِ كيف يحبّك هو ، يا بوبوجان ! ـ كان يقول لها تاناباي ـ ولكن داعبيـــه ، داعبيـــه مرة أخرى . انظري كيف نشر اذنيـــه . تماما كما لو انه عجل . غيرانه ليس من حياة في القطعان بسببه الآن . أعطه الحرية فقط . فانه يقضم مع الاحصنة ، مثـــل كلب ولهذا السبب انني أحتفظ بـــه بعيدا ، تحت

السرج ، فاني أخشى ان تشوهه الاحصنة . فانه لازال هشـّا ، طريء العود .

ــ اجل انه بالذات يحب ، ــ أجابت ، منشغلة بأمر من أمورها .

ــ تريدين القول ان آخرين لا يحبون .

ــ أنا لست بصدد ذلك . لقد استنفدنا حبنا . إني لأشفق عليك .

ــ ولكن علام ؟

ــ انت لست ذلك الانسان الذي يتحمل مثـــل هذه الامور ، فسيكون الأمر عليك عسيرا فيما بعد .

ــ وعليك ؟

ــ مايصيبني ؟ أنا أرملة ، زوجة جندي ، امـا انت . . .

ــ اما أنا فعضو لجنة المراقبة . ها انني أقابلك لاستفسر منك بعض الحقائق . ــ قالها تاناباي محاولا المزاح .

ــ اراك صرت تكثر من الاستفسار عن الحقائق . احذر !

ــ حسنا ، ولكن مـــا ذنبي ؟ انا أمضي وأنت تمضين .

ــ أنا أمضي في طريقي . حسنا ، وداعا . ليس لدي وقت !

ـ ولكن اسمعي ، بوبوجان !

ـ حسنا ماذا ؟ لا داعي ، يا تاناباي . علامَ كل هذا ؟ انك انسان ذكي . ان حـــــالي حتى من دونك لا تطاق .

ـ ماذا ، أفأنا عدوّك ؟

ـ أنت عدوّ نفسك .

ـ كيف لي أن أفهم هذا ؟

ـ كما تريد .

ومضت ، اما تاناباي فقد ارتحـــــل في شوارع القرية كما لو انّه قصد مكانا ما في شغل ، وانعطف الى الطاحونة او الى المدرسة وبعد ان صنع دورة ، رجع كي يمتّع نظره ، ولو من بعيد ، كيف كانت ستطلع هي من بيت حماتها ، حيث أودعت ابنتها وقت العمل ، وكيف ستجيء الى بيتها ، في طرف القرية ، وهي تقود ابنتهـــا بيدهـــا . وكان كـل شيء في هذه المرأة عزيزا عليه : كيف كانت تمضي جاهدة الا تنظر صوبــــه ، ووجهها مُبيض في شالها القاتــــم اللون ، وبنيتهــــــا ، وكليبها الذي كان يركض ازاءهما .

وأخيرا اختفت هي في فناء بيتها ، واستمر هــو في ارتحاله ، وهو يصوّر لنفسه كيف ستفتح قفـــل باب البيت الخــــــالي ، وتطّرح جانبا معطفهــا الرثّ

المضّرب بالقطن ، وتسعى في الفستان وحده من اجل الماء ، وكيف ستوقد النار في الموقد ، وتغسل وتطعم ابنتها ، وتلتقي بقَرتها في القطيع ، وكيف ستنام في الليل وحدها في البيت المظلم الخالي من نأمة صوت ، وكيف ستروح تقنع نفسها واياه ، انه لا ينبغي لهما أن يتحابّا ، وانه هو انسان مُعيل ، وأن العشق في مثل عمره امر مضحك ، وأن لكل شيء وقته ، وأن زوجته امرأة طيبة ، وانها لا تستحق منه ان يجري وراء امرأة أخرى .

وتغيّر حال تاناباي ومزاجه من مثل هذه الافكار . «اذن ، ان هذا ليس مقدّرا لي» ـ طفق يفكر ، وانَخرط يغني اغاني قديمة ، وهو ينظر الى الأفق الداخن وراء النهر ، ناسيا كل شيء في الكون ، ناسيا أموره ، والكولخوز ، والحذاء والملابس للأطفال ، والاصدقاء والخصوم ، وأخاه من أبيه قولوباي ، الذي لا يتحدث معه سنين عددا ، نَاسيا الحرب ، التي قد ولّت تماما لكنها تعود في أحلامه ، واذ ذاك يسيل عرق بارد على جسمه ، وبكلمة ، ناسيا كل شيء مما عاشه . ولم يلاحظ ان الحصان قد اجتاز النهر في مكان العبور خوضا واستمر في طريقه بعد طلوعه على الضفة المقابلة . وليس الا آنذاك فقط ، حين كان الحصان قد

زاد من جريه ، وقد احس ّ قربه من القطيع ، ليس الا آنذاك عاد الى وعيه .

ــتر ــ ر ، غولساري ، الى أين تجـــــري أنت هكذا ! ــ تذكر تاناباي فجاة ، وهو يجذب الاعنة .

*

ومع ذلك فبغض النظر عن كل شيء ، كان ذلك الوقت رائعا سواء بالنسبة له أو بالنسبة الى الرهوان . ان مجد الحصان العدّاء مثل مجد لاعب كرة القدم . ففتى الامس ، المطارد الكرة في المنفسحات خلف الدور يُصبـــح فجاة لاعبا محبوبـــا في كل مكان ، وموضع أحاديث العارفين وموضع اعجاب الجماهير . وكلمـــا أوغل الزمان في الجريان ، كلما تعاظم مجده ، مادام يحرز الانتصارات ويكسب الهدف تلو الهدف . وبعد ذلك يخرج هو تدريجيا من الميدان ويُنسى تماما . وأول من ينساه هم اولئك الذين كانوا اصخب الجميع إعجابا به . ومحل لاعب الكرة الكبير يحلّ لاعب آخر . ومثل هذا طريق مجد الحصان العداء . انه يشتهر ما دام لا يُقهر في المباريات . ولعل الفرق الوحيد هو أن لا احد يحسد الحصان . فالخيول لا تعرف الحسد ،

أما الناس ، ولله الحمد ، لم يتعلموا بعد حسد الخيول وبالرغم من انه طرق الحسد غير مدركة كما يقال ، فأنها لشهيرة تلك الوقائـــــع التي تحكم فيها الشرّ في الانسان ، فكان الحاسدون يدقون مسمارا في حافـــــر الحصان . ايه ، انت أيها الحسد الاسود ! ولكن ما علينا من هذا !

ولقد تحققت نبوءة تورغوي . ففي ذلك الربيع ارتفع عاليا نجم الحصان الرهوان . فقد عرفه الجميع الكبير والصغير «غولساري !» ، «حصان تاناباي» ، «زينة القرية» . . .

وكان الصبيان الشّعث ، الذين لم يستطيعوا بعد نطق حرف الراء ، كانوا يجرون في الشارع المترب ، محاكين جري الحصان ، وفي اثناء الجري كانوا يصرخون «أنا . . . غولسالي . . كلا ، أنـا غولسالي . . . مامـــا ، قولى انني غولســــالي . . . تشـــــو ، الى الامـــــام ، آي ـ ي ـ ي . . . أنا غولسالي» . . .

لقد عرف الحصان الرهوان في سباق الخيل الكبير الاول له ماذا يعني المجد وأي قوة يمتلك . وكان ذلك في أول أيار .

ابتدأت الالعاب ، بعد انتهاء الاجتماع في المرج الكبير عند النهر ، وقدم عدد غفير من الناس من كافـة

الانحاء ماشين وراكبين من السوفخوز المجاور ، من الجبال ، وحتى من كازاخستان . وقدّم الكازاخيون أحصنتهم للسباق .

وقيل انه لم يكن مثل هذا العيد الكبير بعد الحرب .

كان الرهوان قد استشعر منذ الصباح حين كان تاناباي قد أسرجه بعناية كبيرة متفحصا أحزمة السرج ومثابت الرّكب ، كان قد استشعر من تألق عينيه وارتجاف يديه اقتراب شيء ما غير طبيعي . أجل ، كان صاحبه بادي الانفعال .

ـ احذر ، يا غولساري ، لا تخيب آمالي ،ـ همس في اذنه ، وهو يمشط عفرته وغرته ـ لا ينبغي عليك أن تصم نفسك بالعار ، أتسمع ! ليس لنا الحق في ذلك ، أتسمع !

وأحسّ بانتظار شيء ما غير اعتيادي في الهواء ذاته ، المقلق باصوات الناس وجلبتهم ولغطهم . وأسرج الرعاة أحصنتهم في المرابض المجاورة . وكان الصبيان على الافراس ينطلقون في الجوار بالصراخ . ثم قدم رعاة القطعان مرتحلين ، وتحرك الجميع معا الى النهر .

كان غولساري مصعوقا بهذا التكدس للناس

والأفراس في المرج . كانت جلبة وضوضاء تدوي فوق النهر ، والمرج واليفوع على طول الارض التي تغمرها ميـاه الفيضان . وزاغت الانظـــار من مرأى المناديل والفساتين الزاهية الالوان ، والاعلام الحمر ، والعمائم النسوية البيض . وكانت الاحصنة في أفضل عدّتها . ودوت الركب ، وقعقعت الأعنة والشنوف الفضية في صدورها .

ودبكت الأحصنة تحت فرسانهـــا ، مرتصّة في صفوف ، دبكت بنفاد صبر ، محاولـــــة الانطلاق ، وحفرت الارض بحوافرها . وفي حلقة تخطر الشيوخ ، ناظرو الالعاب .

وأحسّ غولساري كيف كان يتعاظم فيه التوتر على نحو مطرد ، واستشعر كيف كان يفيض قوة بكامل كيانه . وتراءى له ان روحا ناريا ملتهبا استقر فيه ، ولكي يتخلص منه ، كان يلزمه أن يسارع بالانطلاق في الحلقة والعَدْو بعيدا .

وما إن أعطى النظّار إشارة الإنطلاق في الحلقة وأرخى تاناباي العنان ، حتى كان الرهوان قد اندفع به نحو الوسط ، وبدأ يدور به ، دون ان يعرف بعد ، الى اين ينطلق . ودوى هتاف في الصفوف: «غولساري! غولساري ! ...»

وتقدم كل الراغبين في المشاركة في سباق الخيل. وتجمّع خمسون شخصا من الفرسان .

– اسألوا البركـــة عند الناس ! – أعلن رئيس ناظري الالعاب باحتفال .

كان الفرسان حليقو الرؤوس بالعصائب المشدودة وثيقا على الجبين ، كانوا يتحركون على طول الصفوف، مرفوعي الايدي براحات مبسوطة ، ومن كل حدب وصوب دوّى صوت واحد «امين !» وارتفعت مئات الأيدي الى الجبـــاه ، ثــم زلقت راحات الايدي على الوجوه ، مثل تيارات مائية جارية .

وبعد ذلك كان الفرسان قد انطلقوا يخبّون الى نقطة الانطلاق، والتي كانت في الحقل، على مبعدة تسعة كيلومترات من هنا .

وفي ذات الوقت ابتدأت الالعاب في حلقة – صراع المشاة والفرسان ، انتزاع الفرسان من السروج ، رُفع عملة نقد من الارض اثناء الجري ، ومباريات أخرى . كان كل هذا ليس الا فاتحـة ، اما الامـر الرئيسي فيبتدىء هنـاك ، الى حيث انطلـق الفرسـان يعدون .

التهب غولساري في الطريق ، ولم يفهم ، لماذا كان صاحبه يعوقه . وتخطرت حوله واحتدمت أحصنة آخرى . فحنق الرهوان وجعل يرتجف من نفاد صبره

وبسبب كثرة الخيول ورغبتها في الجري . واصطف الجميع صفا واحدا عند نقطة الانطلاق ، رأسا الى رأس . ورمح الناظر امام الجبهة من طرفها الى طرفها ، وكان يرفع منديلا أبيض . وتسمر الجميع مثارين ، متأهبين . وها هي تلويحة بمنديل . فانطلقت الاحصنة ، وسوية مع الجميع ، انطلق غولساري الى الامام ، وقد استحوذت عليه حميّا لاهبة ، وارتجت الارض تحت وطأة حوافر الخيل كقرع الطبول ، وانعقدت سحب الغبار . كانت الخيول قد انبطحت في رمح سريع مسعور ، يستحثّها صراخ الفرسان وزعيقهم . وليس الا غولساري وحده ، الذي لم يتقن الرمح السريع ، كان يعدو رهوا . وكان في ذلك ضعفه وقوته معاً .

مضت الخيول كلها ، في البداية كومة مزدحمة متراصّة ، ولكن خلال بضع دقائق ابتدأت تنبسط منفصلة بعضا عن بعض . ولم ير غولساري هذا . شيء واحد — رآه — هو ان الخيول العدّاءة السريعة قد تخطّته وأصبحت أمامه في الطريق . وساطته في بوزه الحصى الساخنة وقطع الطين الجاف والتربة المتطايرة من تحت الحوافر وحواليه كانت الاحصنة تعدو ، والفرسان يزعقون ، والكرابيج تصفر والغبار

يتصاعد . وانعقد الغبار سحابة طارت فوق الارض . وفاحت بقوة رائحة العرق ، ورائحة حجر الصوان ورائحة نبات الشيح المدعوس بالحوافر .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى منتصف الطريق . كانت حوالي عشرة أحصنة لا تزال تجري بسرعة لم يستطع الرهوان اللحاق بها . وهدأ الضجيج على جانبي الطريق ، وتقهقرت الى وراء ضوضاء الافراس المتأخرة ، ولكن حقيقة أن أفراسا أخرى قد احتلّت مكان الطليعة ، وكون أن الاعنة لم تعطه الحرية المطلقة التي يريد ، كل هذا أثار غيظ الرهوان . واقتمّت الدنيا في عينيه من الحنق والريح ، وعامت الطريق بسرعة تحت قدميه ، وقد تدحرجت الشمس لملاقاته ، وهوت ككرة نارية من السماء . وتفصّد العرق الحار في كل جسمه ، وكلما ازداد تعرّق الرهوان ، كلما خفّ الأمر عليه وتعاظم نشاطه في الجري .

وها قد حانت تلك اللحظة ، حين جعلت الخيول العدّاءة تتعب وتتدهور تدريجيا في العدو ، فيما كان الرهوان في ذروة قواه . «تشو ، غولساري ، تشو !» — سمع صوت صاحبه ، وازدادت سرعة تدحرج الشمس لملاقاته . ومضت واحدا بعد آخر

وجـوه الفرسـان المشوهـــة بالغضب ، والتي أدرك غولساري خيولهم وخلـّفهـــا بعيدا وراءه ، ومضـت السياط المتطايرة بسرعة خارقة في الهواء ، وبرقت متلامعة أبواز الخيول المكشـّرة الساخـــرة . واختفت فجأة سلطة اللجام والأعنـّة . لم يبق لغولساري لا سرج ولا فارس – شيء واحد تملكه واحتدم فيه ، انه روح الركض النارية اللاهبة .

ومع ذلك ففي الأمام مضى ، جنبـــا الى جنب ، حصانان من أحصنة السباق العدّاءة ، همـــا الرمادي القاتم والأمغر . فكلاهما انطلقا بمنتهى السرعة ، دون أن يسبق احدهما الآخر ، يحدوهما صراخ فارسيهما ويستحثهما سوطاهما . كانـــا حصانين قويين . وقد طاردهما غولساري طويلا ، وهـا هو يسبقهمـا اخيرا في ارتقاء المرتفع . كان قد وثب على أكمة كما لـو انه كان يثب على قمة موجة كبيرة ، وفي لحظة ما بدا كانه يرتفع في تحليقه ، خفيفا ، عديم الوزن . وضاقت أنفاسه في صدره ، ورشـّته أشعة الشمس في عينيـــه على نحو اكثر ألقا ، ومضى ينحدر سريعا في الطريق ، ولكن سرعان ما سمع وراءه وقع حوافر تطارده . فان ذينك الاثنين : الرمادي القاتم والأمغر ، قرّرا الأخذ

بالثأر . وقد اقتربا من كلا الجانبين متلاصقين تقريبا ، ولم يتأخّر الواحد عن الآخر ولا خطوة .

وهكذا انطلقوا ثلاثتهـــم ينهبون الارض ، وقد اصطقت رؤوسهم معا ، انطلقوا ملتحمين في حركـــة واحدة . وبدا لغولساري أنهم الآن لا يجرون البتة ، وانمـــا تسمّروا وتجمدوا في حال عجيب من الصمت والجمود . بـل كان يمكن تمييز تعبير عيون جاريـه ، وخطميهما الممدودين بتوتّـر ، والالجمة والمقاود وقد قبضت عليها الأسنان بأحكام . وكان الحصان الرمادي القاتم ينظر بضراوة وعناد ، امـــا الامغر فقد كان مضطربا ، وكانت نظراتـــه تتزحلق ، غير واثقة ، في الجانبين . وكان هو بالذات أول من بدأ التقهقر . في البدء اختفت نظرته الآثمة ، الضالّة ، ثـــم عام الى الوراء بوزه بمنخريه المنتفختين ، ولم يعد موجودا ، فقد اختفى . اما الحصان الرمادي القاتـم فقد تخلّف طويلاً وعلى نحو معذّب ، ممضّ . كان يتهاوى ببطء في السباق ، وصارت نظرته تُشبه الزجاج من فرط حقده العاجز . وهكذا مضى هو غير راغب في الاعتراف بالهزيمة .

وبدا ، بعد ان تقهقر منافساه ، بدا كما لو ان الأمر قد سهل وخفّ عبؤه . امـــا أمام العين فكانت

الاشعة المنعكسة من النهر تتفضض ، وكان المرج يخضرّ ، كما كان يسمع الهدير البعيد لأصوات بشرية. فلقد تبيّن ان أكثر الهواة تحمسا قد كمنوا يتربّصون في الطريق . وكانوا يجرون جانبا وهم يهللون بهتافات الاستحسان والتشجيع وألوان الزعيق . وهنا استشعر الحصان الرهوان الضعف فجأة فقد فعلت المسافة البعيدة فعلها . ولم يعرف غولساري ماذا كان يجري خلفه ، ولم يدر : ألحقوا أم لم يلحقوا به . شيء واحد ، انه لم يعد في وسعه الجري ، فقد خارت قواه .

ولكن هناك ، في الامام ، كان حشد كبير من الناس يضج ويتماوج ، وها قد انطلق الحشد ، جماعتين فرسانا ومشاة ، للقاء المتسابقين ، وصارت الصرخات أشد وأقوى . وسمع هو فجأة على نحو واضح ، متميز الهتافات : «غولساري ، غولساري !» فاندفع الرهوان ، وقد أُفعم جوفه بالوان الصراخ والزعيق والهتاف هذه ، كما لو أُفعم بالهواء ، اندفع الى الامام طائراً بقوة جديدة ، آه أيها الناس ، ايها الناس ! ما الذي لا يستطيعونه !

ومع الضجيج الذي لا ينقطع وصرخات الفرح والتهلل التي لا تكفّ ، كان غولساري قد اجتاز ممرا داويا بين صفوف المستقبلين ، وقام بدورة في المرج ، مخفّفا من سرعة جريه .

لكن ذلك لم يكن كل شيء . فالآن ، لا هـو ولا صاحبه لم يعودا ملك نفسيهما . فحين استراح الرهوان قليلا وهدأ ، كان القوم قد ابتعدوا قليلا ملتفين حلقة حول الظافر . ومن جديد دوت الهتافات : «غولساري ، غولساري ، غولساري !» ولكن معهـا دوى اسم صاحبه : «تاناباي ، تاناباي ، تاناباي !»

ومن جديد صنع الناس معجزة ما مع الرهوان . فهـا هو ينطلق الى الحلبة ، ابيّا ومندفعا ، برأس مرفـوع عاليـا ، وعينين متوقدتين . لقـد مضى غولساري ، ثملا من ريح المجد ، مضى يمشي متباهيا ، متبخترا ، ومتراقصا وساعيا إلى عـدو جديد . لقد عرف تمام المعرفة انه جميل ، وجبار ، ومشهور .

وطاف تاناباي حول الناس ومرّ بهم جميعا ، وهو يرفع يدي الظافر مبسوطتين ، ومن جديد ضجّ ، من كـل حدب وصوب ، صـوت التبريك الوحيـد «آمين !» ومن جديـد ارتفعت مئات الأيدي الى الجباه ، وأمرّ بالراحات على الوجوه ، مثل تيارات ماء جارية .

ولحظ الحصان هنـا فجاة ، وبين وجوه كثيرة امرأة يعرفها . لقد تعرّف عليهـا في الحـال ، حين اسدلت راحتيها ، بالرغم من انها في هذه المرة لم تكن

في شالها القاتم اللون ، وانما في منديل ابيض . كانت واقفة في الصف الأول من الحشد سعيدة وجذلة ، وكانت تنظر اليهما ، دون ان تحول عينيها عنهما ، تنظر بعينين مشرقتين ،مثل حجرين في شلال مشمس . فتاق اليها غولساري ، كعادته ، لكي يقف بجنبها ، ومن اجل ان يحدّثها صاحبه ، ولأجل ان تحكّ له هي عفرته ، بيديها الرائعتين ، اللدنتين ، الساحرتين مثل شفتي تلك المهرة الكميت ذات النجمة في غرّتها . لكن تاناباي لسبب ما لم يحوّل المقود تجاهها وإنما أخذ به الى طرف آخر ، فكان الرهوان يدور باستمرار ويريد ان ينطلق اليها ، غير فاهم نيّة صاحبه . ترُى أفلم يلاحظ صاحبه ، أن هنا تقف تلك المرأة التي كان يجب عليه بالتأكيد التحدث معها ؟ ..

اما اليوم الثاني ، أعني ثاني أيار ، فقد كان ايضاً يوم غولساري . وفي هذه المرة ، وعند منتصف النهار ، لعبوا لعبة «خطف العنز» – في رقعة من الارض خاصة في السهب . وهذه اللعبة هي شكل خاص من لعب كرة القدم على ظهور الخيل ، والذي تحل محلّ الكرة فيه جثة عنز بلا رأس . فالعنز مناسب في هذه اللعبة

لأنه يملك شعراً طويلا ، ومتينا ، ويمكن اختطافه من على ظهور الخيل بجذبه من قدمه أو جلده .

ومن جديد امتلأ السهب بالصيحات القديمة ، ومن جديد هدرت الارض بصوت كقرع الطبول . وكان هواة سباق وألعاب الخيل قد تجمعوا تيارا ضاجّا بالزعيق والهتاف حوّم حول اللاعبين . ومرة اخرى كان البطل هنا هو غولساري . وفي هذه المرة صار في الحال ، وقد أحيط بضياء المجد ، أقوى مساهم في اللعبة . وعلى كل حال ، فان تاناباي احتفظ به وادخره الى النهاية ، الى لعبة «أَلمان - بايغا» ، حين يعطى السماح للمناوشة الحرّة : وهنا ، فمن هو ماهر وسريع الحركة ، فانه هو الذي سيلتقف العنز الى قريته . كان الجميع ينتظرون «أَلمان - بايغا» ، ذلك لانها هي ذروة المباريات ، ولأن فيها بالذات يملك كل فارس الحق في المشاركة . وكان كل يريد تجريب حظّه .

وفي ذلك الوقت كانت شمس نوّار قد حطّت بتثاقل على الطرف الكازاخي البعيد . وكانت مثل محّ البيض ، الثخين والمحدّب . فكان يمكن التطلّع اليها ، دون تضييق العينين .

وكان القرغيز والقازاخ يلعبون حتى غاية المساء ،

متدلّين من السروج ، ملتقطين في الجري جثة العنز ، مختطفينَها الواحد من الآخر ، متألّبين جمهورا ضاجّا ، ليتدفقوا من جديد بصراخهم في ميدان اللعبة .

وليس الا حينما مرقت في السهب الظلال الطويلة ، الملونة ، كان الشيوخ قد سمحوا ، اخيرا ، باجراء لعبة «أَلمان – بايغا» . كان العنز قد رمي في الحلقة . وانطلق الهتاف «أَلمان !...»

انقذف الفرسان من كافة الجوانب والاطراف ، واحتشدوا ، محاولين اختطاف جثة العنز من الارض . لكن القيام بذلك وسط الزحام ليس بالأمر السهل على أية حال . فكانت الخيول تدور مبهوتة ، وتعاضت ، وكشرت عن اسنانها . وقد أضنى هذا غولساري ايما إضناء ، كان بودّه ان ينطلق الى الفضاء الرحب ، على ان تاناباي لم يستطع بعد ان يحتاز العنز . وفجأة دوى صوت حاد : «امسكه ، لقد أخذه القازاخ !» ومن دورات الخيول أفلت شاب قازاخي في قميص ممزق على حصان بنيّ فاتح ، متوحش . وانقذف بعيدا وهو يجرّ تحت قدمه ، تحت الركاب جثة العنز .

– امسكوه ! امسك هذا البنيّ الفاتح ! – بدأ الجميع الصراخ ، مندفعين في المطاردة ، – اسرع ، يا تاناباي ، فانك الوحيد الذي يستطيع اللحاق به !

كان القازاخي على الحصان البني الفاتح قد انطلق توا بالعنــز المتدلى تحت الركاب ، الى هناك ، حيث تضرّجت الشمس الغاربة . وبدا كما لو انه بعد فترة قصيرة سيصل طائرا الى هذه الشمس الملتهبة ليتلاشى هناك دخانا أحمر .

لم يفهــم غولساري لماذا يمسك به تاناباي ويصدّه . ولكن هذا كان يعرف انه يلزم منح الفارس القازاخي فرصة الأفلات من مجموع — الفرسان الذين يطاردونه ، والمضيّ أبعد من حشد مواطنيــه الذين كانوا قد أسرعوا اليه لمساعدته . فمــا إن يطوقوا الحصـــان البنيّ الفاتح بطوق ، حتى لا يستطيـع أي وبأيما قوة اختطاف الغنيمة المفلتة ، المستلبة . وليس الا في القتال الفردي كان يمكن التأميل على نجاح ما .

وبعد ان انتظـــر تاناباي تصرّم الوقت اللازم ، أطلق الحصان بكل قوته . وانبطح غولساري طائرا على الارض الهاربة تحت الشمس ، وسرعان ما تقهقر وطء السنابك والاصوات الى الخلف ، وجعلت ضجتها تبتعد تماما ، فيما كانت تقصر المسافة الى الحصان البني الفاتح . وكان ذلك ماضيــا ينوء بعبء ثقيل ، فكان اللحاق به ليس بالأمر الصعب . ووجّه تاناباي الرهوان الى الجانب الايمن من الحصـــان البنيّ الفاتح . وكانت

جثّة العنز معلقة ، تضغطها قدم الفارس على جانب الحصان الأيمن . وها هما يتحاذيان ، فانحنى تاناباي من على السرج ، لكي يختطف العنز من قائمته وينقله الى جانبـــه . لكن القازاخي نقل الغنيمة بمهارة من الجانب الايمن الى الايسر . اما الحصانان فما برحـا ينهبان الارض قاصدين ناحية الشمس مباشرة . والآن صـــار يلزم تاناباي التقهقر قليلا من اجل ان يلحق بالقازاخي من جديد وفي هذه المرة من ناحيته اليسرى. وكان صعبا ان يجعل الرهوان ان يتأخـــر عن الحصان البنيّ الفاتح ، ولكن مع ذلك وفق تاناباي في القيــام بهذه المناورة . ومن جديد أفلح القازاخي في القميص الممزق ، في ان ينقل العنز الى الجانب الآخر.

ــ شاطر ! ــ هتف تاناباي بحمية .

امـا الحصانـان فكانـــا لا يزالان منطلقين صوب الشمس .

ولم يكن ثمة مبرّر للمضيّ في المخاطرة . فلزّ تاناباي رهوانه لِصق الحصـان البني الفاتـح تقريبـا ، وهوى بصدره على قربوس سرج جاره . وحاول ذلك الابتعاد ، لكن تاناباي لم يفلته . وكانت مرونة الرهوان وسرعة حركته قد سمحتا له بالاضطجاع تقريبـا على رقبة الحصان البنيّ الفاتح . وهكذا بلغ هو جثة العنز

وجعل يجذبها جذبا الى ناحيته . وكان اسهل عليه العمل من الناحية اليمنى ، والى ذلك فان كلتا يديه كانتا حرّتين . وها هو قد وفق لجذب حوالي نصف العنز الى ناحيته .

– تماسك الآن ، أيها الأخ القازاخي ! – هتف فيه تاناباي .

– تكذب ، أيها الجار ، لن أعطيك اياه ! – أجاب الآخر .

وابتدأ الصراع في العدو السريع . وها هما وقد اشتبكا مثل نسرين يصطرعان على غنيمة واحدة ، وجعلا يصرخان باشد الصراخ ، وبحّ صوتاهما وزأرا مثل الوهوش ، وقد أراد كل منهما القاء الرعب في قلب الآخر ، وتشابكت أيديهما ، وتفصّد الدم من تحت الاظافر . اما الحصانان ، وقد توحدا بالاشتباك الفردي لفارسيهما ، فقد انطلقا ينهبان الارض في حقد ، مستعجلين ادراك الشمس المتضرجة .

بورك الاجداد الذين خلّفوا لنا ألعاب الرجال المقدامين هذه !

كانت جثة العنز الآن بينهما ، وقد أمسك كلاهما بها الى الاسفل في وضع معلّق بين الحصانين الرّامحين . واقتربت الخاتمة . كانا يشدّان العنز كل الى ناحيته ،

صامتين ، كازّين الاسنان ، موتّرين كل قواهمـــا ، وحاول كلّ ان يضغط بها تحت قدمه ، من اجـل ان ينفصل فيما بعد ، ويمضي بها جانبا . وكان القازاخي قويا . كانت يداه ضخمتين ، قويتين ، والى ذلك فقد كان افتى بكثير من تاناباي . لكن التجربة أمر كبير . وها هو تاناباي قد حرر قدمه اليمنى من الركاب ، على دون توقّـع ، وركزها متكئا على جنب الحصـــان البني الفاتح . وكان وهو يجتذب العنـــز الى صوبـــه ، كان يدفع ، في ذات الوقت ، حصان غريمه بقدمه ، وما لبثت أصابع يد القازاخي ان انفرجت ببطء .

— تماسك ! ــ افلح المهزوم في تحذيره .

ومن الدفعـــة الحادة كاد تاناباي أن يطير من السرج ، ولكنه تماسك مع ذلك . وندّ الهتاف المتهلّل بالفوز من صدره . وانطلق الى امـــام ، وقد استدار برهوانه بقوة ، وهو يضغط تحت الركاب بالغنيمـة التي اغتنمها في مبارزة شريفة . أما لملاقاته فقد طار حشد من الفرسان الهاتفين :

— غولساري ! غولساري أخذها !

وانقذف القازاخ جماعـــة كبيرة لقطع الطريق عليه .

— ايباي ، صده ، أمسك تاناباي !

والآن فالقضية الأساسية إنما كانت هي تجنّب قاطعي الطريق والسعي لكي يحيطه الفرسان من سكان قريته بستار حاجز .

واستدار تاناباي بالرهوان بحدة ، من جديد ، منطلقا الى جانب ، بعيدا عن قاطعي الطريق عليه . «شكرا لك ، يا غولساري ، شكرا لك يا حبيبي ، أيها الذكيّ !» – كان هو يشكر رهوانه في سرّه ، حين كان هذا يزوغ ، ملتقطا أبسط انحراف في حركة جسمه ، يزوغ من المطاردة ، مرتميا الى هذا الجانب او ذاك .

تملّص الرهوان ، وهو يكاد يلتصق بالارض ، طالعا من دورة حادة ، ومضى في خط مستقيم . وهنا اقترب منه ذووه ، والتحقوا به مصطفين على كلا جانبيه ، وحموه من مؤخرته ، ومضوا جميعا كومة ملتحمة مولّين الأدبار . وعلى كل حال فان المطاردين انعطفوا من جديد الى قطع الطريق عليه . وكان يتعيّن عليه ، ثانية ، الاستدارة للهروب من جديد . ومثل اسراب الطيور السريعة الطيران ، التي تنقلب اثناء الطيران من جنح الى جنح ، كان قد انقذف في السهب الفارّون ومطاردوهم من حشود الفرسان . وفي الهواء تصاعد الغبار متضفرّا ، ودوّت الأصوات المتنافرة ،

ووقع أحدهم مع حصانه ، وطار آخر عبر رأس حصانه ، وصار آخر ثالث يعرج لاحقا بحصانه ، ولكن الجميع بقضهم وقضيضهم كانوا ماخوذين بحماس المباراة وحميّتها . وفي اللعب لايسأل أحد عن شيء . فعند المخاطرة والجسارة أم واحدة ...

كانت الشمس تتطلع الى الارض من طرف واحد فحسب . وقد بدأ الغسق ينشر جناحيه ، أما لعبة « ألمان ــ بايغا » فكانت لا تزال تدور في زرقة برد المساء ، وهي تهزّ الارض هزا بسنابك الخيول . ولم يعد أحد يصرخ ، ولم يعد أحد يطارد آخر ، ولكن الجميع واصلوا الجري منجذبين بحميّا الحركة ، مسحورين بها كانت الحشود في جبهة السباق تترنح مثل موجة قاتمة من يفاع الى يفاع على هدي من سلطة الايقاع وموسيقى الجري . أو ليس من جرّاء هذا كانت وجوه الفرسان صموتة مستغرقة ، أو ليس هذا بالذات هو الذي أولد الاصوات الهادرة لآلة « الدمبرا » * القازاخية ولآلة « الكوموز » القرغيزية ! ..

وها هم قد اقتربوا من النهر . وكان هذا يتألّق

---

* « الدمبرا » و « الكوموز » آلتان موسيقيتان .

بفتور وراء الخمائل المظلمة . ولم يتبقّ الا القليل . فوراء النهر كانت نهاية اللعب . فهناك القرية . وكان تاناباي ومن أحاط بـه كانوا كلهـم قـد وثبوا كومةً متراصّة . وكان غولساري يعـدو ، في وسط الاحصنة كسفينة رئيسية ، تحت الحماية .

ولكن ها هو قد تعب ، تعب جدا ـ فقد كان ذلك اليوم بالغ الصعوبة . وقد أُنهكت قوى الرهوان . فكان فارسان ، يعدوان على جانبيه ، كانا يجذبانه من لجامه وقد يدفعان به دون ان يسمحا له بالوقوع . امـــا الآخرون فقد غطّوا تانَاباي من المؤخرة وعلى كـــلا جانبيه على الميمنة وعلى الميسرة . اما هو فقد رقـد بصدره متكئـا على جثة العنز ، المرمية امـام السرج . وكان رأس تاناباي يترنّـح ، وهو بالكاد يتماسك عـلى صهوة الرهوان . ولو لم يكن الفرسان بجنبه ، لما كان لا هو نفسه ولا حصانه في حال تسمـــح بالتحرك الى امام . هكذا ، كما يبدو ، كانوا يعدون قبلا بالغنائم ، وهكذا ، على الارجح ، كانوا ينقذون من الاسر القائد الشجاع الجريح . . .

ها هو النهر ، ها هو المرج ، وها هي المخاضـــة الواسعة المفروش قاعها بالحصباء . ولا زالت مرئية في الظلمة .

ارتمى الفرسان من الطريق الى النهر . وصار النهر من جراء ذلك يغلي ويلغط مزبدا . وخلال سجابات رذاذ الماء المتطاير وطقطقة النعال التي تصمّ الآذان عبرالفرسان بالرهوان الى الضفة الاخرى . انتهى كل شيء ! انه النصر !

وانتزع أحد المواطنين جثّة العنز من سرج تاناباي وعدا بها إلى القرية .

وبقي القازاخ في الجانب الآخر .

ــ شكرا لكم على اللعب ! ــ هتف فيهم القرغيز .

ــ لكم العافية ، وليحالفكم التوفيق ! سنلتقي في الخريف ! ــ أجاب اولئك واستداروا بخيولهم الى الوراء ، وقفلوا راجعين .

اقتّم الجو جدا . كان تاناباي ، اذ ذاك ، قد حلّ ضيفا مدعوا ، اما الرهوان فقد وقف سوية مع الافراس الاخرى في فناء الدار في المربط . لم يتعب غولساري ولامرة مثل هذا التعب ، ربما كان ذلك معادلا لما عاناه في اليوم الأول من ترويضه . ولكن آنذاك كان هو كعود رفيع هشّ بالمقارنة مع ما اصبح عليه الآن . وفي البيت كان الحديث قد انعقد عنه .

ــ فلنشرب ، ياتاناباي ، نخب غولساري : لو لم يكن هو ، لما تيسّر لنا إحراز النصر اليوم .

ـ أجل ، كم كان قويا هـــذا الحصان ، البني الفاتح كأنه أسد . وفارسه الفتى كان قويا أيضا . انه سيحقّق الكثير من البطولات عندهم .

ـ هذا صحيح . ولكن لا زال ماثلاً أمام عيني كيف كان غولساري يزوغ من قاطعي الطريق عليه ، انه ينطرح تماما على الأرض كأنه العشب . وانه ليأسر روح المرء ، وهو يراه في هذه الحال .

ـ اجل فقد كان ينبغي للفرسان في سالف الازمان ان يشنّوا غاراتهم على مثل هذا الحصان . انه ليس حصانا ، انما هو وثّاب اسطوري .

ـ تاناباي ، متى ستسمح له بالمضّي الى الافراس ؟

ـ انه منذ الآن يطاردهن ، ولكني أرى أن الوقت ما زال مبكرا لاطلاقه اليهن . ففي الربيع القادم سيكون الوقت مناسباً تماماً . وفي هذا الخريف سأدعه يرعى ما يشاء ، كي ينمو بدنه ويقوى . . .

كان الناس الثملون قد جلسوا طويلا ،يتجاذبون اطراف الحديث ويحكون بالتفصيل عن مسابقة «الـمَان ـ بايغا» وعن مميزات الرهوان وسرّ قوته ، اما هو فكان واقفا في الفناء ، يقضم لجام الحديد ، فيما كان عرقه يجف . كان عليه ان يقف جائعا حتى

الفجر . ولكن الجوع لم يضايقه . انما كانت امـور اخرى تضايقه ، فكتفاه كانتا تؤلمانـه ، وقد كلّت أقدامـه حتى لم يعد يشعر بوجودهـا من فرط مـا أصابهـا من تعب ونصب ، واحترقت حوافـره من الحرارة ، اما رأسه فكان لا يزال يضج بدوي المسابقة المرهقة . كانت لا تزال تتخاطف امـام انظاره صور المطاردة ، وألوان الصراخ . فكان ينتفض ، بين آونة واخرى ، ويشخر ، وينصّـب اذنيه . كان بودّه أن يهوى في العشـب ، ويـروّح نفسـه ، ويجـول بيـن الافراس في المرتع . لكن صاحبه كان قد تأخر .

وعلى أية حال ، فسرعان ما خرج صاحبه ، وهو يترنّح بعض الشيء ، في الظلمة . كانت تفوح منـه رائحة ما حادة ، حارقة . وكان هذا يحدث له نادرا . سيتصرّم عام ، وسيكون على الرهوان ان يلتقي بانسان آخر ، تفوح هذه الرائحة منه أبدا . وسيمقت هـذا الانسان وهذه الرائحة المقرفة .

اقترب تاناباي من الرهوان ، وجعل يربـت على حارك عنقه ، ثم دسّ يده صوب الحلس :

ــ أبردت شيئا ؟ تعبت ؟ أنا أيضا تعبت تعبـا ممضّـا . اما انت فلا تزور مني ، أجل شربت قليـلا ، إنما على شرفك . إنه عيد . ومـع ذلك فهذا قليـل .

اني أعرف طاقتي ، فلتعرف أنت هذا . حتى في الجبهة كنت معتدلا . دَعْ عنك هذا ، لا تزور ! فلنمض الآن الى القطيع ، ونسترح . . .

وشدّ صاحبه أحزمة السرج ، وتحدث مع اناس آخرين ، كانوا قد خرجوا من البيت ، وارتقى الجميع ظهور خيولهم ، وافترقوا كل الى جهته .

وارتحل تاناباي في شوارع القرية النائمة. كان الهدوء يسود الجوار ، ويستحوذ على كل ما هو حوله . وكانت النوافذ مظلمة . وقد ترامى الى سمعه صدى واهن لهدير تراكتور في الحقل . وكان القمر قد اطلّ واقفا فوق الجبال ، وفي الحدائق ابيضّت شجرات التفاح المزهرة ، وفي مكان ما انخرط بلبل يصدح . ولسبب ما كان هو واحدا في القرية كلها . لقد شدا ، مستمعا الى نفسه ، وصمت ، ثم ما لبث أن أقبل من جديد يزقزق ويصفر .

وأوقف تاناباي حصانه برهة .

ـ أي جمال ! ـ قال هو بصوت جهير ـ ويا للهدوء الساحر ! ليس الا البلبل يترنّم . أتفهم يا غولساري ؟ كيف لك ان تفهم ؟ ان أفكارك في القطيع ، أما أنا . . .

ومرّا بورشة الحدادة ، ومن هنا كان يلزم الرحيل

في الشـارع الاقصى الى النهـر ، امـا من هنـاك ـ فـالى القطعان . ولكن صاحبه لسبب ما جرّ به الى الجانب الآخر . لقد ارتحل في الشـارع الوسطي ، وفي نهـايته تـوقّف جنب ذالك الحوش ، حيث كانـت تقطـن تلك المرأة . وهرع كلب صغير ، كان غالبا ما يركض مع البنية ، هرع ينبـح ومـا لبث ان صمت وهـو يحرّك ذنبه . وصمت صاحب غولسـاري على صهوتـه ، فقد كان يفكر في شيء ، ثم تنهدَ ، ومسَ المقود بتردّد .

ومضى الرهوان أبعد . وانعطف تاناباي به أسفل الى النهر ، وحثّه بعد ان خرجا الى الطريق . وكان يودَ غولسـاري نفسه أن يسرع في السير ليبلـغ المرتـع . ومضيـا عبر المرج . ها هو النهـر ، وطبعت الحداوي آثارها على الشاطئ .

كان الماء باردا ومجلجلا . وفجأة في وسط المخاضة ، جذب صاحبه الاعنة بحدة ، واستدار بقوة الى الوراء . وهز غولساري رأسه مفكرا ، ان صاحبه انما قد اخطأ ليس الا . فلا ينبغي عليهما الرجوع الى الخلف . ثـم كم يمكن للانسان ان يرتحل ؟ ولكن صاحبه ساطه ، كجواب ، بسوط في جنبه . ولم يكن غولساري يحسب ان يُضرب . وخضع ، قاضما اللجام بانزعاج ، لنزوة صاحبه على مضض ورجع الى الوراء . ومن جديد مضيا

عبر المرج . من جديد في الطريق ، من جديد الى ذلك الفناء .

وعند البيت أخذ صاحبه يتململ ثانية في السرج ، وصار يجذب شكيمته تارة الى هنا ، وطورا الى هناك ، فلا تفهم ماذا يريد بالذات . وتوقفا عند البوابة . وعلى اية حال فلم تكن ثمة بوابة . اذ لم يتبق منها سوى أوتاد متقلقلة ، منحرفة الى جانب . ومرة اخرى هرع الكلب ، ونبح وصمت ، وهو يحرّك ذنبه . وكان الهدوء والظلام يعمّان البيت .

وترجل تاناباي من السرج ، ومضى في الفناء ، وهو يقود الحصان الرهوان بمقاوده ، وما ان اقترب من الشباك حتى نقر باصبعه على الزجاج .

ـ من هناك ؟ ـ دوى صوت من الداخل .

ـ هذا هو انا ، بوبوجان ، افتحي . هل تسمعيني ، أنا !

واشتعل في البيت مصباح ، انار الشبابيك بفتور وعلى نحو كاب .

ـ ماذا بك ؟ من أي مكان جئت في هذا الوقت المتأخر ؟ ـ ظهرت بوبوجان في الباب . كانت في فستانها الابيض بياقة مفتوحة الازرار . وكان شعرها الفاحم قد تناثر على كتفيها . وكان بدنها يفوح بعبق

دافئ ، وبتلك الرائحة السحرية لعشب غير معروف .

ـ سامحيني ، ـ قالها تاناباي بصوت خفيض ، ـ من مسابقة «الـمان ـ بايغا» وصلنا متأخرين . وقد تعبت تماما . اما الحصان فقد انهك غاية الانهاك . ينبغي أخذه للاستراحة ، ولكن المسافة بعيدة الى القطيع . انت نفسك تعرفين ذلك .

وصمتت بوبوجان برهة .

والتهبت عيناها وانطفأتا ، مثل احجار في قاع مورد منار بضوء القمر . كان الرهوان ينتظر ان تأتي وتربّت على رقبته ، ولكنها لم تفعل ذلك .

ـ برد ، ـ ارتعدت كتفا بوبوجان ـ حسنا ، ولماذا تقف ؟ تعال ، مادام الامر كذلك . يا لك من ماكر ، لقد اخترعت شيئا ! ـ ضحكت هي بهدوء ـ لقد تعذبت تماما انا نفسي ، فيما كنت تجول هنا بحصانك . لكأنك صبي .

ـ سأجيء الآن . سأربط الحصان .

ـ اربطه هناك في الركن عند السياج .

لم ترتجف يدا صاحبه قط ، كما ارتجفتا مثل هذه المرة . كان مستعجلا ، وهوينزع اللجام ، وانشغل طويلا بحزامي السرج . وخفف من وثاق الحزام اما الآخر فقد سهاه على حاله .

ومضى سوية معها ، وسرعان ما انطفأ النور في النوافذ .

لم يتعود الحصان الرهوان الوقوف في فناء دار لا يعرفه .

وكان القمر ينوّر بكامل قوته . ورأى غولساري ، وهو يرفع طرفه فوق السياج رأى الجبال في الليل شامخة في العلاء ، وهي تسبح في ألق حليبي مزرقّ . وجعل يستمع ، وقد أرهف اذنيه تماما . كان الماء يخرّ في الساقية . وفي البعيد كان ذات التراكتور لا يزال يهدر في الحقل ، كما كان ذات البلبل الوحيد يصدح في الحدائق .

ومن اغصان شجرة التفاح المجاورة كانت تتهاوى البتلات البيضاء ، فكانت تقع دون ضجيج على رأس الحصان وعفرته .

وكان الليل قد بدأ يرفع جناحيه . كان الرهوان واقفا يراوح قدميه ، وهو يحوّل ثقل الجسم من قدم لاخرى ، كان واقفا ينتظر صاحبه بكل صبر . لم يكن يعرف انه سيلزمه في المستقبل الوقوف هنا مرات عديدة منتظرا طوال الليل حتى الصباح .

خرج تاناباي عند الفجر ، وشرع يلجِم غولساري

بيدين دفيئتين . والآن حتى يداه هو صارتا تفوحان بتلك الرائحة السحرية لذلك العشب الذي لم يعرفه .

وخرجت بوبوجان لتوديع تاناباي . والتصقت به ، وقبّلها طويلا .

ـ وخزتني بشواربك ، ـ همست له . ـ استعجل ، أفلا ترى ان الدنيا نور تماما . ـ واستدارت لتمضي .

ـ بوبيو ، تعالي هنا ، ـ دعاها تاناباي . ـ ربتي عليه ، داعبيه ، ـ اومأ برأسه الى الرهوان . ـ لا ينبغي ان تزعلينا !

ـ اوه ، نعم ، لقد نسيت ، ـ ضحكت هي . ـ انظر ، انه كله قد غرق في زهور التفاح . ـ وجعلت وهي تتلفظ بكلمات المداعبة الرقيقة ، تربّت الحصان بيديها العجيبتين ، اللدنتين والمرهفتين ، مثل شفتي تلك المهرة الكميت ذات النجمة في غرتها ...

ووراء النهر انطلق صاحبه يغني . كان المضي بمصاحبة اغنيته رائعا مسرا ، وكان بود غولساري لو أسرع في بلوغ القطعان ليرتع معها .

لقد حالف تاناباي التوفيق في ليالي نوار هذه . فهنا بالضبط جاء دوره في الرعي الليلي . وعند الرهوان ايضا ابتدأ شكل ما من اشكال الحياة الليلية . ففي

النهار كان يرعى ، ويستريح ، وليلا بعدان يسوق صاحبه القطيع الى الوهدة ، كان ينطلق على ظهره ثانية الى هناك ، الى ذلك الفناء ذاته . وعند الفجر ، وآثار الظلام ما تزال لم تنجل بعد ، كان ينطلقان من جديد ، مثل سرّاق الخيل ، في الممرات السهبية غير الملحوظة ، الى الخيول التي تُركت في الوهدة . وهنا كان صاحبه يجمع القطيع في مكان واحد ، ويعدّ الخيل ويهدأ اخيرا . كانت حال الرهوان صعبة عانى منها الكثير . فقد كان صاحبه يسرع الى كلتا غايتيه ، في طريق الذهاب وطريق الاياب ، لكن الجري ليلا في الطرق الرديئة الوعرة لم يكن سهلا بحال . ولكن هكذا كانت مشيئة سيده .

كان بود غولساري ان يفعل امرا آخر . فلو كان يتمتع بحريته حقاً لما انفصل بحال من القطيع . فلقد نضجت فحولته واشتدّ عودها . وهو لا زال الى الآن قد واءم حصان القطيع الضخم . ولكن مع كل يوم جديد كان يصطدم به اكثر ، وهما يداوران فرسا واحدة بالذات . وقد جعل يثني رقبته اكثر فاكثر ، ويرفع ذيله عموديا مثل انبوب ، ويتظاهر امام القطيع . وكان يصهل على نحو رنّان ، ويتهيج ، وينقضّ على الافراس يعضّها في افخاذها . وبدا كما لو ان هذا

الامر يعجبهن ، فكن ينزعن اليه ويلتصقن به ، مثيرات بذلك غيرة حصان القطيع الضخم . وقد عانى الرهوان الامرين جراء ذلك ، فقد كان هذا الحصان عربيدا عجوزا شرسا . وعلى اية حال ، فلقد كان الافضل ، فيما يراه هو ، ان يتقاتل مع هذا الحصان ويكر ويفر منه ، من ان يمكث في الفناء هناك طوال الليل . فقد كان هنا يحنّ الى الافراس ويشتاقهن بكل جوارحه . فكان يتململ ويدور في مكانه ، ويقرع الارض بحوافره ولا يهدأ الا بعد ذلك . من يعرف ، كم كانت ستطول هذه الرحلات الليلية ، لو لم يكن ذلك الحادث ...

ففي تلك الليلة كان الحصان الرهوان يقف كالعادة في الفناء ، يحنّ الى القطيع ، وهو ينتظر صاحبه ، وها قد بدأ ينعس . وكانت مقاود الاعنة قد ربطت عاليا الى عارضة في طرف السقف . ومثل هذا الوضع لم يسمح له بالرقود : ففي كل مرة كان رأسه ينحني فيها كان اللجام ينغرز بلهاة الفم . ومع ذلك فقد كان يلح به داعي الكرى . وكان الجو مربدا ، والسحب تلبد السماء .

وفجأة سمع غولساري عبر تهويماته ، واغفاءاته ، سمع الاشجار تضج وتهتز ، كما لو ان أحدا قد انقض عليها فجأة وجعل يهزها ويجندلها .

وكانت الريح القوية تسوط الفناء وتعصف به ، وقد دحرجت بجلبة عظيمة محلابا فارغا ، واطارت الملابس المغسولة من الحبل . وبدأ الكليب يعوي بصوت خافت ، ويندفع جيئة وذهابا ، دون ان يعرف الى اين يلتجىء . وشخر الحصان في حنق ، وتسمر ، منصبا اذنيه . واذ رمى برأسه فوق السياج ، جعل ينظر على نحو راكز في الظلمات المتكاثفة على نحو غير مفهوم ، الى هناك ، صوب السهب ، من حيث اقترب مصحوبا بالرعد شيءما رهيب . وفي اللحظة التالية كان الليل قد بدأ يقرقع ، مثل غابة هاوية ، وزأر الرعد وهزم ، وخطط البرق السحب . وتدفق وابل المطر الغزير . فانقذف الرهوان من مربطه ، كما لو انه قد سيط بسوط ، وجعل يصهل مستميتا من الرعب والخشية على قطيعه . فلقد استيقظت في ذاته الغريزة الابدية للدفاع عن بني جنسه من الخطر . لقد دعته هذه الغريزة الى هناك للمساعدة . فانتفض ، وقد جُنّ ، ضد الالجمة ، وضد الاعنة وضد الحبل المبروم من الشعر ، ضد كل شيء امسك به وثيقا وحبسه هنا. وجعل يتقلب ، ويحرث الارض بحوافره ، وشرع يصهل دون انقطاع بأمل ان يسمع صراخات القطيع جوابا . ولكن لم يكن هناك شيء سوى العاصفة تصفر

وتعول . آه ، لو اتيح لـه آنذاك أن يتحـــرر ممـــا يربطه !..

وخرج صاحبـه واثبـــا في ثوب داخلي ابيض ، وخلفه امرأة في رداء أبيض أيضا . وفي لحظة اقتـــم لونهما تحت المطر . وفي وجهيهما البليلين وعيونهمـا المرعوبة ومض شعاع ازرق وتنوّر قسم البيت والباب الذي جعل يصفق في الريح .

ـ قف ، قف ! ـ طفق تانـــابـــاي يصرخ في الحصان ، منتويا ان يحل وثاقه . لكن هذا صار لا يعترف به . وانقذف عليه كالوحش ، وجعـل يهـدم السياج بحوافره وهو لا يزال يناضل ويصارع وثاقه. فتسلل تاناباي اليه ، ملتصقا بالحـــائط ، ووثب الى أمام ، مغطيا رأسه بيديه ، وتعلق بأعنته .

ـ حلّيه سريعا ! ـ صرخ في المرأة .

حتى اذا افلحت هذه بالكاد في ان تحلّ حبـــل الشعـر ، كان الرهـــوان قد شبّ على عقبيـــه ، وجرّ تاناباي في الفناء .

ـ اسرعي بالسوط !

وعدت بوبوجان تبحث عن السوط .

ـ قف ، توقف ، قف ، والا اقتلـــك ! ـ كان تاناباي يصرخ في الحصان ، وهو يوالي سوطه بسعـار

في خطمه . كان يلزمه الآن ارتقاء السرج ، وان يطير طيرانا الى القطيع . ما هناك ؟ الى أين طرد الاعصار الخيول ؟

على ان الحصان الرهوان بدوره كان يريد ايضا الطيران الى هناك الى القطيع ، دون ابطاء ، في هذه الدقيقة بالذات ، الطيران الى هناك ، الى حيث دعاه سلطان الغريزة الجبار في هذه الساعة الرهيبة . وهو لذلك كان يصهل ، ولذلك كان يشبّ على عقبيه ، ولذلك ايضا كان يريد الانطلاق من هنا .

لكن المطر هطل مدرارا ، وقصف الرعد مجنونا ، وهو يهز بهديره الليل الذي احتدمت ثورته .

ـ امسكيه ! ـ أمر تاناباي بوبوجان ، حتى اذا قبضت هذه على اللجام ، كان هو قد استوى على السرج . وما ان استقر على صهوة الرهوان بالكاد ، ممسكا بعفرته متشبثا بها ، حتى كان غولساري قد انطلق على التو من الفناء ، مطوّحا بالمرأة التي كانت تمسكه وقاذفا بها في بركة المطر .

انطلق غولساري ينهب الارض نهبا ، دون ان يخضع لا لسلطة الألجمة ، ولا للسوط ، ولا للصراخ ، انطلق عبر الليل العاصف ، وعبر الوابل المنهمر ، متلمسا الطريق بحسه ليس الا . وحمل صاحبه المجرد

من السلطة الآن عبر النهر الهائج ، عبر هزيم الرعد وهدير الماء ، عبر خمائل الشجيرات ، عبر الخنادق ، عبر الوهاد ، وانطلق على هواه دون ان يصدّه صادّ ، انطلق الى امام دون توقف . لم يركض غولساري بهذا الشكل ولا مرة واحدة لحد الآن ، لا في المسابقة الكبيرة ، ولا في مباراة «الَمان بايغا» ، ولا في اية مناسبة اخرى ، لم يركض غولساري كما ركض في هذه الليلة الاعصارية .

ولم يكن تاناباي يدري كيف والى اين حمله رهوانّه المتعفرت ؛ وقد تراءى له المطر لهبا حارقا ، يلفح الوجه والجسد . وليس الا فكرة واحدة شغلت لبه : «ما دهى القطيع الآن ؟ اين هي الخيول في هذه اللحظة ؟ هل انطلقت ، لا سامح الله ولا قدر ، في الوادي الى السكة الحديد ؟ انها اذن لكارثة ! فلتساعدني ، يا الله ، فلتساعدني ! اعينوني انتم يا ارواح الاجداد ، اين انتم ؟ لا تقع يا غولساري ، لا تقع ! خذني الى السهب ، الى هناك ، الى هناك ، الى القطيع ! »

اما في السهب فكان الوميض الساطع يعصف عصفا ، وهو يُعمي عين الليل بلهيبه الابيض . ومن

جديد كان الدجى يُطبق ، وتحتدم العاصفة ، ويلفح المطر وجه الريح .

كان الجو ينوّر تارَة ، وتارة اخرى يظلم ، طورا ينوّر ، ليظلم طورا آخر ...

وكان الحصان الرهوان يشبّ على عقبيه ويصهل ، ممزقا فمه . كان يدعو ، ويستدعي ، ويبحث ، وينتظر . «اين انتم ؟ اين انتم ؟ اجيبوا !» وجوابا له هدرت السماء ، ـ وها هو من جديد منخرط في الجري الجنوني ، في البحث ، في وجه العاصفة ...

تارة نور وتارة اخرى ظلام ، طورا تنوّر ، وتظلم طورا آخر ...

ولم تهدأ العاصفة الا قبيل الصباح حيث تقشعت الغيوم تدريجيا ، لكن الرعد ما برح يدوي في الشرق دون ان يهدأ ـ فكان يهرّ ، ويعصف ، ويشتدّ بين آونة واخرى . وما لبث الضباب ان انعقد سحبا فوق الارض المعذّبة ، المخربة .

وكان عدد من الرعاة قد تبدّدوا في الأرض المجاورة ، يجمعون الخيول الشاردة .

اما تاناباي فقد بحثت عنه زوجته . بالاحرى لم تبحث عنه ، وانما انتظرته . كانت منذ الليل قد انطلقت

مع الجيران ، على ظهور الخيل ، لمساعدة زوجها . وقد وجدوا القطيع واوقفوه في مكانه . اما تاناباي فلم يكن موجودا . فتصوروا انه ضاع . لكنها وحدها كانت تعرف انه لم يضع . وحين صاح فتى من الجيران بجذل : «ها هو ، يا جايدار ـ آبا ، ها هو قد جاءنا !» ، وخف اليه لملاقاته ، فان جايدار لم تبارح مكانها . كانت تنظر صامتة على حصانها ، حالما رجع الزوج الضائع .

كان تاناباي قد ارتحل جهم الهيئة ، صامتا ، في ثوبه الداخلي البليل دون قبعة ، ارتحل على رهوانه الذي هزل و تعب اثناء الليل . وكان غولساري يعرج في ساقه اليمنى .

ـ ولكننا نبحث عنك ! ـ اخبره الفتى الذي لحق به راكضا . ـ لقد بدأ القلق ينتاب جايدار ـ آبا . . .

ايه ، انت ،ايها الصبي ، يا صبي . . .

ـ ضعت ، ـ قذف تاناباي بكلمته بصوت غير واضح .

وعلى هذه الحال التقى بالزوجة . لم يقل احدهما للاخر ايما كلمة . ولكن حين غاب الفتى موقتا ليسوق

القطيع من تحت الجرف الساقط ، قالت له الزوجة بصوت خافت :

ـ ما دهاك بحيث انك لم تفلح حتى في ارتداء ملابسك . الحمد لله ان بنطلونك وحذاءك في قدمك . او لا تخجل ؟ فانك لم تعد شابا . قريبا سيبلغ اولادك سن الرشد ، اما انت . . .

وصمت تاناباي . ما الذي كان سيقول ؟

وفي ذلك الوقت كان الفتى قد انتهى من سوق القطيع . كانت كل الخيول والمهار سليمة .

ـ فلنذهب الى البيت ، يا آلتيكه ، ـ دعت جايدار الفتى . ـ لن ننتهي اليوم من تدبير امورنا واموركم . لا بد ان الريح عصفت بمخيمينا . فلنمض نجمع ما تطاير.

اما لتاناباي فقد قالت بصوت خافت :

ـ اما انت فابق هنا . ساحمل اليك اكلاً وشيئا تلبسه . كيف ستري نفسك للناس ؟

ـ ساكون هناك ، في الاسفل ، ـ رمى تاناباي بجوابه .

وارتحلا . وساق تاناباي القطيع الى المرتع . وانشغل بذلك طويلا . وكانت الشمس قد نورت ، ودفأ الجو . وتصاعد البخار من السهب ، وعاد الى الحياة . وصارت الارض تفوح برائحة المطر والعشب الفتي . كانت الخيول تخبّ خببا قصيرا ، دون ان

تسرع ، مجتازة المنخفضات والوهاد ، لتخـــرج الى المرتفعات . وهنا ، كان عالم آخر قد انبسط امام النظر وانفتح مشهده امام تاناباي . كان الافق قد تقهقـــر بعيدا ، غاية في البعد ، مترقرقا بالسحب البيضـــاء . كانت السماء واسعة ، عالية ، صافية . وعلى غاية البعد كان قطار ينفث دخانه في السهب .

ترجّل تاناباي من الحصان ، ومضى في العشب . والى جنبه كانت قبّرة قد طارت مرفرفة ، وارتفعت وهي تزقزق . ومضى تاناباي ، مطرق الرأس ، وهوى فجأة واقعا على الارض .

لم يكن غولساري قد رأى صاحبه بهذا الشكل من قبل . لقد رقد منكبا بوجهه على الارض ، فيما كانت كتفاه ترتعدان من النحيب . لقد بكى من الخجل ومن الاسى فقد عرف انّه قد اضاع سعادته التي اتيحت له للمرة الاخيرة في حياته . ولكن القبّرة ظلت تزقزق ، على كل حال . . .

وبعد يوم ارتحلت القطعان الى الجبال ــ والآن لن يعودوا الى هنا الا في العام التالي ، في الربيع الباكر . مضى المرتحلون على طول النهر ، في الارض التي يغمرها الفيضان بجانب القرية . ومضت قطعان الاغنام ، وقطعان الماشية ، وقطعان الخيل . مضت الخيـــل والابل تحت

الرحال ، وارتحلت على صهوات الخيل وظهور الابـــل النساء والاولاد . وكانت الكلاب الشعثاء تسعى . واثقل الهواء بحشد من مختلف الاصـــوات : صراخ الناس ، وصهيل الخيول ، وثغاء الاغنام ...

اما تاناباي فقد ساق قطيعه عبر المرج الكبير ، ثم في اليفاع ، حيث احتشد الناس منذ امد غير بعيد في العيــــد ، وكان يجهَد ، ما امكنـــــه ، ان لا ينظر صوب القرية . وحين توجه غولساري فجأة الى هناك ، الى البيت في ظرف القريـة القصي ، فانه تلقى سوطا لقاءَ ذلك . وهكذا ، فانهما لم يعرجا الى تلـــك المرأة ذات اليدين الخارقتين ، اللدنتين ، والمرهفتين مثل شفتي تلك المهـــرة الكميت ذات النجمــــة في غرتها ...

مضى القطيع بهدوء وسلام .

كان بودّ غولساري لوغنّى صاحبه ، ولكنه لم يغنّ . وها هي القرية قد تخلفت وراء . فوداعا ايتها القرية ، وداعا ! وفي الامام كانت الجبال . فالى اللقاء ايها السحب ، الى الربيع القادم ! وفي الامام كانت الجبال .

٦

اقترب منتصف الليل . ولم يستطـــع غولساري المضي ابعد . فالى هنا ، الى الوادي ، قد بلغ ظالعا ،

متوقفا عشرات المرات ولكنه لن يستطيع بحال اجتياز الوادي . وفهم الشيخ تاناباي ، انه ليس له الحق ان يطلب من الحصان اكثر من ذلك . وأنّ غولساري على نحو معذّب ، أنّ مثل الانسان . وحين شرع يرقد على الارض ، لم يعرقله تاناباي .

واصل الرهوان الانين ، راقدا على الارض الباردة، وهو ينقل رأسه من ناحية لاخرى . لقد كان يشعر بالبرد ، فكان يرتجف بكامل جسمه . فنفض تاناباي عن نفسه فروته ، وغطى بها ظهر الحصان .

ـ ماذا بك ؟ أحالتك سيئة ؟ أسيئة تماما ؟ لقد تجمدت انت يا غولساري . ولكن لم تتجمد عندي ولا مرة .

دمدم تاناباي بشيء ما ، ولكن الحصان الرهوان لم يسمع شيئا . كانت دقات قلبه متقطعة مسموعة في رأسه مباشرة ، على نحو مصمّ ، مبهور ولاهث في سرعة : توم ـ تاب ، توم ـ تاب ، توم ـ تاب ، توم . . ـ لكأن القطيع قد ذرّ مذعورا مرعوبا من مطارديه الذين باغتوه .

وبزغ القمر من وراء الجبال ، وتهدّل متعلقا في الضباب فوق العالم . وخرّ نجم دون صوت وما لبث ان انطفأ . . .

ـ ارقد انت هنا ، وسامضي اجمع الحشائش اليابسة ، ـ قال الشيخ .

وتجول في الجوار طويلا ، جامعا الحشائش الطويلة اليابسة المتخلفة من العام الماضي . وقرصت الاشواك يديه ، فيما كان قد جمع حضنا من هذا الحشيش واوغل في بحثه ، فهبط الوادي ، والسكين في يده تحوطا للطوارئ ، واصطدم هنا بشجيرات الاثل . فسُرّ لذلك واغتبط فستكون لديه شعلة حقيقية .

كان غولساري يخشى دائما النار المضطرمة على مقربة منه . اما الآن فلم يعد يخشى ، فقد منحته هذه الدفء والدخان . وقعد تاناباي صامتا على الكيس ، والقى في الشعلة الاثل مخلوطا بالحشائش الطويلة الجافة ، وجعل ينظر الى النار ، مُدفئا يديه . وكان ينهض احيانا ، ليسوّي من وضع الفروة الملقاة على الحصان ، وليقعد من جديد ازاء النار .

وتدفأ غولساري ، وسكن ارتجافه ، ولكن خيمت في عينيه عكارة صفراء ، واختنق صدره ، واحتبست انفاسه . وكان اللهب يميل تارة ، وتارة اخرى ينهض بهبوب الريح . وكان الشيخ ، القاعد قباله ، وهو صاحبه القديم ، كان هو الآخر يختفي طورا ، ويظهر طورا آخر . وبدا للرهوان وهو في هذيانه ، انه وسيده

يجريان في السهب في تلك الليلة الرهيبة ، وانه يصهل ، شابّا على عقبيه ، ينشد القطيع ، ولكنه غير موجود . وكان الوميض الابيض يتألق وينطفئ .

تارة ينوّر الجو ، وتارة يظلم ، طورا ينوّر ، وطورا يظلم ...

٧

ولّى الشتاء ، وتقهقر لوقت ، من اجل ان يظهر للرعاة ، ان الحياة في الكون ليس بالصعوبة التي يتصورونها . ستكون ايام دافئة ، وستسمن الماشية ، وسيكون الوفر والكفاية من الحليب واللحم ، وستكون المسابقات في ايام الاعياد ، وستكون هناك ايام عادية وسيتواتر توالد الاغنام ، وجزّ الصوف ، وتربية الصغار ، والارتحال ، وسوق الماشية الى مصانع تصنيع اللحوم ، والى كل هذا ومعه فعند كل واحد حياته الخاصة ـ حبه وفراقه ، الولادة والموت ، الاعتزاز بنجاحات الاولاد والاغتمام للاخبار غير السارة ، الاخبار الواردة من مدارسهم الداخلية ، فيفكر المرء : ربما استطاع اطفاله الدراسة بشكل افضل اذا كانوا معه ... فمن يدري ماذا يخبئ المستقبل ، فالمشاغل تتوفر دائما وبكمية كافية ،

ولاتنسى مصائب الشتاء الا لوقت موقوت . فان جائحات الماشية،وموتانها ، وانبساط الغطاء الجليدي على الارض ، والمخيمات المخرقة ، والحظائر المسقفة الباردة .. كل هذا سيبقى في النشرات والتقارير حتى العام التالي . وهناك سينفجر الشتاء ثانية مباغتا ـ سيصل بسرعة على ناقة بيضاء ، وسيجد الراعي ، اينما كان ، في الجبال ام في السهب ، وسَيريه مزاجه الحرون ، الصعب . وسيتذكر الراعي كل ما قد نساه لوقت . وحتى في القرن العشرين لا زال الشتاء يسلك ذات السلوك ...

وعلى هذه الحال كانْ كل شيء آنذاك . لقد هبطت من الجبال قطعان الماشية والخيل العجفاء وانتشرت في السهب . انه الربيع . ولقد كابدت الشتاء ومصائبه .

وفي ذلك الربيع تنزه غولساري حصانا بالغا في القطيع . وكان تاناباي قلما يسرجه الآن ، كان يشفق عليه ، ثم ان ذلك كان غير ممكن ولا يصحّ ـ فقد اقترب موسم السفاد .

كان من المؤمل ان يكون غولساري حصانا طيبا . فقد كان يرعى المهار الصغار تماما كما لو انه ابوها . فاذا اهملت الام لحظة العناية بالمهار ، هب غولساري

رأسا ليحول دون وقوع المهر في مكان ما او انفصاله من القطيع . والى ذلك فقد كانت لغولساري سجيّة اخرى انه كان لا يحب ان تزعج الخيول عبثا ، فان حدث مثل ذلك فانه كان سيطرد القطيع في الحال ابعد .

وفي شتاء ذلك العام جرت تغيرات في الكولخوز. فقد أرسل رئيس جديد له . وكان تشورو قد سلم مهامه ورقد في مستشفى المنطقة . كان قلبه يؤلمه جدا . اما تاناباي فكان طيلة الوقت يتهيأ ليزور صديقه ، ولكن ترُى هل كان سيستطيع الافلات ؟ ان الراعي مثُل ام كثيرة الاولاد ، انه دائما غارق في المشاغل ، وبخاصة في الشتاء وفي الربيع . ان الحيوان ليس بماكنة : فليس بمكنتك ان تقفل المفتاح الكهربائي وليس بامكانك ان تمضي وتفارقه . وهكذا لم يستطع تاناباي الرحيل آنذاك الى مستشفى المنطقة . ولم يكن ثمة من يعوض عنه . وكانت زوجته تُعتبر بمثابة راعي القطيع الذي يعوضه ، فقد كان ضروريا ان تعمل شيئا لكسب رزقها : وبالرغم من ان أجرة يوم العمل كانت تافهة الا ان اجرة يومين كانت اكثر من اجرة يوم عمل واحد ، على كل حال .

لكن جايدار مع الطفل على يديها ! اي معوض

ستكـون هي بهذه الحـال ؟ لقد كان تانابـاي نفسه منشغلا بتدبير شؤون القطيـــع آناء الليل واطراف النهار. وفي الوقت الذي كان تانابـــاي يتهيأ لعيـــادة تشورو ، متفاهما مع الجيران على من يعوضه ، آنذاك ورد خبر ان تشورو قـــد غادر المستشفى وعاد الى القرية . عند ذاك قرر تاناباي وزوجته ان يغشياه في بيته ، فيما بعد ، حين يهبطون من الجبال .

حتى اذا هبطوا من الجبال الى الوادي ، وعاشوا في المكان الجديد ، وقع ما لا يستطيع تاناباي حتـــى الآن ان يتذكره محتفظا بهدوئه . . .

ان مجد الحصان الرهوان ــ هو عصا ذات حدين . فكلما ازداد دوي هذا المجد في كل الجوار ، كلما تعاظم تطلع المسؤولين وطمعهم في احتيازه .

في ذلك اليوم ساق تاناباي الخيول منذ الصباح الى المرتع ، اما هو فقد رجع الى البيت ليتناول افطاره . كان قد اقعد ابنته على ركبتيه ، يشرب الشاي ، ويتحدث مع زوجته في قضايا عائلية مختلفة . كان يلزمه ان يسافر الى ابنه في المدرسة الداخليـة ، وفي ذات الوقت الى السوق ، قرب المحطة ليشتري هناك ، حيث تباع الملابس المستعملة ، شيئا من الملابس للزوجة والاولاد .

ــ اذن ، سأسرج الرهوان ، في مثـــل هـــذه

الحالة ، ـ قال تاناباي ، محتسيا شيئا من كوبة الشاي ، ـ والا فاني لن استطيع الرجوع سريعا . سأرتحل عليه لآخر مرة ولن امسّه بعد ذلك .

ـ تأمل الامر بنفسك ، فلا شك انك ترى افضل . ـ وافقت هي .

وفي هذا الوقت سُمع من الخارج وطء سنابك الخيل . لقد اقبل احدهم اليهم .

ـ تطلعي ، ـ التمس الزوجة ، ـ من هناك ؟

وخرجت ، وعادت تقول ان هذا هو ابراهيم رئيس مزرعة تربية الخيول ، ومعه واحد من سكان القرية .

ونهض تاناباي على مضض ، وخرج من البيت وهو يحمل بنته في يديه . وبالرغم من انه لم يكن يحب رئيس مزرعة تربية الخيول ، ابراهيم ، الا انه ينبغي استقبال الضيوف ، على كل حال . اما لماذا لم يستطع ان يحب ابراهيم هذا ، فذا امر لم يدركه تاناباي نفسه . فعموما كان هو لبق المعاملة ، وليس مثل الآخرين ، ولكن مع ذلك كان فيه شيء ما مريب . والامر الاساسي انه لم يكن يعمل شيئا محددا ، معينا ، سوى الجرد ، واعادة الجرد . وعلى اية حال لم يكن ثمة عمل حقيقي في تربية الخيول في المزرعة ، فان

كل راع كان يعمل من دون اي قيادة او مساعدة . وقد تحدث تاناباي عن ذلك في الاجتماعات الحزبية ، اكثر من مرة ، فكان الكل يوافقون ، وكان ابراهيم يوافق ايضا ، بل ويشكره على النقد ، ولكن كل شيء ظل على حاله كما كان في الماضي . وكان من المحسنات، ان رعاة القطعان كانوا نزيهين وكان تشورو نفسه قد اختارهم . وما ان ترجّل ابراهيم من السرج ، حتى بسط يديه مرحبا :

ـ السلام عليكم يابيك ! ـ وكان يسمى جميع الرعاة بالبكوات .

ـ وعليكم السلام ! ـ اجاب تاناباي متحفظا ، وهو يشد على ايدي الضيوف القادمين .

ـ كيف انتم ـ أأحياء ؟ وهل انتم معافون ؟ كيف الخيول ، وكيف انت يا تاناباي ؟ ـ نثر ابراهيم اسئلته المعتادة ، فيما كان خدّاه الممتلئان قد عاما في ذات الابتسامة المعهودة .

ـ بخير .

ـ الحمد لله . انا بالطبع لا اقلق بخصوصكم .

ـ ادعوكم لدخول البيت .

وكانت جايدار قد فرشت للضيوف قطعة من اللباد جديدة ، وعليها بسطت بساطا من جلود الماعز ـ

وهذا هو غطاء خاص ، للجلوس على الارض . واليهـا ايضا اعار ابراهيم انتباهه .

ـ مرحبا ، يا جايدار هانـــم . كيف صحتك ؟ أتعنين كما يجب بسيدك البيك ؟

ـ مرحبا ، تفضلوا ، واجلسوا هنا .

وجلس الجميع .

ـ صبي لنا شراب الكوميس ، ـ التمس تاناباي زوجته . وشربوا الكوميس وتحدثوا عن هذا وذاك من الشؤون .

ـ الآن ، افضل شيء هو تربية الحيوانـــات . فهنا على الاقل يتيسر الحليب واللحـــم في الصيف ، ـ طفق ابراهيم يناقش ، ـ امـا في زراعـــة الحقول او سواها من الاعمال الاخرى فلا شيء ، على اي حال . وهكذا فالافضل الآن الاحتفاظ بقطعان الخيل وكذلك بقطعان الضان . او ليس هذا صحيحا يا جايدار هانم ؟

واحنت جايدار برأسها ، امـا تانابـــاي فقـــد صمت . لقد كان يعرف هذا ولم يكن يسمعـــه للمرة الاولى من ابراهيم ، الذي لم يكن ليضيع فرصة للتلميح بان وضعية مربي المواشي ينبغي الاعتزاز بها . واراد تاناباي ان يقول انه لا خير اطلاقـا للمجموع ما دام بعض الناس سيحتفظون بالاماكن المريحـــة ، حيث

الحليب واللحم . حسنا ، وكيف هي حال الآخرين ؟ والى اي وقت سيظلّ الناس يعملون مجانا ؟ او كان الامر كذلك ، حقا ، قبل الحرب ؟ كانوا في الخريف يجلبون الى كل بيت بمعـــدل حمولـــة عربتين او ثلاث من الحبوب ، على الاقل . اما الآن فماذا ؟ يركض الناس بالاكياس الفارغة ، علهم يحصلـــون في مكان ما على شيء ما . انهم هم انفسهـم الذيـن يزرعون الحبوب ، ولكنهم يظلون بدون رغيف . ترى لاي شيء يصلح هذا ؟ لن تصلح الحال ، ولن تعيش بالاجتماعات وحدها وبمحض المواعظ والنصائح . ولهذا كان تشورو قد اضنى قلبه ، بحيث انه لم يستطع اعطاء الناس ايما شيء لقاء عملهم ماخلا الكلمات الجميلة .

ولكن الافضاء بكل هذا الذي كان يعذّب روحه لابراهيم كان امرا دون جدوى . اجل ، ولم يشأ تاناباي الآن ان يطيـــل الحديث . كان ينبغي التخلص منهـم وتوديعهم باسرع ما يمكن ، واسراج الرهوان والمضي في اشغاله كيما يستطيع الاسراع في العودة . حسنـــا لماذا أتوا ؟ الا ان السؤال لم يكن مناسبا .

ـ لا اكاد اعرفك يا اخي ، ـ توجـه تـانـابـاي بالحديث الى رفيق ابراهيم ، وهو فتى صموت ، ـ أَوَ انت ابن المرحوم آبالاق ؟

ـ نعم ايها العم تاناباي ، انا ابنه .

ـ اوه ، كيف يطير الوقت . هل اتيت لتلقي نظرة على القطعان ؟ شيء ممتع ؟

ـ كلا ، انما نحن . . .

ـ انه جاء معي ، ـ قاطعهما ابراهيم ، ـ لقد جئنا في امر ، ولكن سنتحدث عن ذلك فيما بعد . ان الكوميس عندكم ، يا جايدار هانم ، في غاية الامتياز . ورائحته نفاذة تماما . املئي لي قدحا آخر !

وتحدثوا من جديد ، عن هذه الأمور وتلك . واحسّ تاناباي بشيء غير مريح ، ولكنه لم يستطع بحال ان يفهم ما الذي اتى بابراهيم اليه . واخيرا اخرج ابراهيم من جيبه ورقة ما .

ـ تاناباي ، لقد قدمنا اليك في هذا الامر ، بموجب هذه الورقة ، اقرأ .

وقرأ تاناباي مع نفسه ، قرأ السطور ، قرأ ولم يصدق عينيه . كان مكتوبا بحروف كبيرة ما يلي :

«امر .

الى راعي قطيع الخيول : باكاسوف .

تحويل الحصان الرهوان غولساري الى اسطبل الخيل لاستعماله في الركوب .

رئيس الكولخوز (التوقيع غير واضح)
التاريخ : ٥ آذار ١٩٥٠.»

جعل تاناباي، وقد صُعق بهذا التحول المفاجئ للامور، جعل يلف الورقة صامتا في اربع طيات، ثم وضعها في الجيب العلوي لقميصه، ومكث طويلا، دون ان يرفع عينيه. ومالبث ان شعر في الحال بتقلص مؤلم في مقدمة المعدة. وعلى اية حال، لم يكن ثمة شيء غير اعتيادي هنا. فلمثل هذا كان هو يربي الخيول، لكي يحوّلها فيما بعد الى آخرين من اجل العمل، ومن اجل الركوب..كم من الخيول قد ارسل الى فرق العمل خلال هذه السنوات! ولكن تسليم غولساري بالذات، كان امرا فوق مستطاعه! وجعل يفكر في الامر بحماس وحمية ـ كيف يمكنه الدفاع عن الحصان الرهوان دفاعا معقولا. كان يلزمه ان يفكر في الامر مليا. كان عليه ان يتمالك نفسه. ولكن ها هو ابراهيم قد بدأ يقلق.

ـ بهذه القضية الصغيرة جئنا اليكم، يا تاناباي. ـ اوضح هو بحذر.

ـ طيب، ابراهيم، ـ نظر اليه تاناباي بهدوء. ـ لن يهرب هذا الامر منا، ولن يفلت. فلنشرب مزيدا من الكوميس. ولنتحدث.

ــ طبعاً ، طبعـــا ، فانك انســـان معقول ، يا تاناباي .

«معقول ! لا اصدق كلماتك المنافقة هذه!» ــ قالها تاناباي في نفسه ساخطا .

ومن جديد دار حديث غير مهم . فالآن مـا من داع ، بعد هذا ، للاسراع .

وهكذا اصطدم تاناباي ، للمـــرة الاولى ، مـــع رئيس الكولخوز الجديـــد . بالاحـــرى ، ليس به شخصيا ، وانما بتوقيعه غير الواضـــح . فهو لم يره عيانا بعد . فقد كان يشتي في الجبال ، حين جاء هذا ، معوضا عن تشورو . وقد قيل عنه انه انسان عنيف ، وقد كان مسؤولا كبيرا . وقد ابتدأ ينذر ويحذر ، منذ الاجتماع الاول ، انه سيعاقب بشدة كل مقصّر ، وهدد بالمحاكمة لقاء عدم تنفيذ الحد الادنى من ايام العمل ، وقال ان كـــل مصائـــب الكولخوزات نشـــأت لان الكولخوزات كانتِ صغيـــرة ، امـــا الآن فستوحد وتُضخّم ، وقريبا سيتحسن الوضع ويُقوّم ــ وانـــه انما اُرسل الى هنا لهذا ، وسيجعل مهمته الاساسيـة ادارة المزرعة التعاونية بموجب كافة واحدث قواعـد علم هندسة الزراعة وتربية الدواجن . ولاجل هذا فعلى

الجميع ان يدرسوا في دورات علمي هندسة الزراعة وتربية الدواجن .

وفي الواقع تمّ ترتيب امر الدراسة وعلّقت اللافتات ، وصار المحاضرون يحاضرون . اما اذا غفا الرعاة وناموا اثناء القاء المحاضرات ، فذلك امرهم ...

ـ تانا باي ، لقد آن الاوان لنرحل ،ـ القى ابراهيم على تاناباي بنظرة مترقّبة ، وجعل يرفع من ساقي جزمتيه الطويلتين والنازلتين ويقوّم من قبعته الضخمة من فراء الثعلب .

ـ هذا هو ما عندي ؟ يا رئيس مزرعة تربية الخيول ، اخبر رئيس الكولخوز : انني لن اعطي غولساري . انه حصان قطيع . انه يخصب الافراس .

ـ اوه ، يا الهي ، تاناباي ، مالك ! إنّا سنعطيك خمسة احصنة عوضا عنه ، ولن تبقى عندك فرس واحدة عزباء . أو هذه مشكلة ؟ ـ تعجب ابراهيم . لقد سُرّ لان كل شيء مضى في مجراه المعتاد ، ولكن ها فجأة ... ولو لم يكن محدثه تاناباي لهان الامر ، ولكان الحديث قصيرا . بيد ان تاناباي هو تاناباي ، انه لم يشفق حتى على اخيه ، وهذا الامر ينبغي اخذه بالحسبان . ولذلك فان الحديث ينبغي ان يكون ليّنا معه .

ـ لا تلزمني احصنتكم الخمسة ! ـ مسح تاناباي جبهته العرقة ، وقرر ، بعد صمت قصير ، ان يمضي في عناده وتحديه ، ـ قل لي ، هل عدم رئيسك ما يرتحل عليه ؟ ام ان الاسطبل قد خلا من الخيول ؟ ثم لماذا غولساري بالذات كان طلبته ؟

ـ لكن كيف ، تاناباي ؟ انه الرئيس ـ انه آمرنا ويتوجب علينا احترامه بالتالي . انه يسافر الى المركز المنطقي ، ويجيء الناس اليه . ان الرئيس بارز دائما ، امام انظار الناس ، ان صح القول ...

ـ ماذا ان صح القول ؟ ألن يعترف به الناس على حصان آخر ؟ واذا كان بارزا دائما ، فهل من الضروري على الرهوان ؟

ـ بالتأكيد او ليس بالتأكيد . ولكن كما له ان ذلك مفروض ، او عرف متداول بين الناس . خذ مثلك انت يا تاناباي ، فلقد كنت جنديا في الجبهة . فهل كنت ترتحل في سيارة ركّاب صغيرة ، ويرتحل الجنرال في سيارة النقل ؟ كلا ، بالطبع . فللجنرال سيارة الجنرالية ، وللجندي سيارة الجنود . أليس ذلك صحيحا ؟

ـ هنا مسألة اخرى ، ـ اعترض تاناباي مترددا . ولكن لماذا مسألة اخرى بالذات ـ فهذا امر

لم يقبل على شرحه ، بل لعله لم يستطع شرحه . واذ احس ان الحلقة تضيق حول الحصان الرهوان قال بحقد ، ـ لن اعطيه . وان كنت لا اناسبكم ، ولا اصلح للعمل ، فاخلعوني من رعاية القطيع . سامضي الى ورشة الحدادة . فهناك لن تستطيعوا أخذ المطرقة مني .

ـ ولكن لم كل هذا ، وعلامَ ، يا تاناباي ؟ اننا نحترمك ، ونقدّرك . ولكنك كالصغير . او يليق هذا حقا بمقامك ؟ ـ اخذ ابراهيم يتململ في محله . يبدو انه تورّط . فقد وعد بنفسه ، بل هو نفسه اقترح ذلك او اوحاه ، وتطوع هو بالذات لهذا الامر . ولكن هذا النموذج العنود من الناس يفسد الموضوع كله .

وزفر ابراهيم بعسر ، وانعطف الى جايدار يخاطبها :

ـ احكمي بنفسك ، يا جايدار هانم ، ما العلة ، ما المشكلة في هذا ، كل ما في الامر حصان واحد ، فليكن رهوانا ؟ او ليس في القطيع مثل هذا ، ألا يوجد غيره ... اختاروا فرسا اخرى . جاءنا انسان ، وقد ارسلوه ...

ـ ولكن لماذا أنت مُعني ، لهذا الحد ، بهذا الامر ؟ ـ سألته جايدار .

وتلعثم ابراهيم ، وبسط يديه :

ـ ولكن كيف اذن ؟ انه الضبط . لقد استودعوني هذا الامر ، وانا انسان صغير . انه ليس لي . فانا لو ارتحلت على حمار لقبلت . ها هو ابن آبالاق ، اسأليه ، لقد ارسلوه ليستاق الرهوان .

واوما ذلك برأسه ، علامة الايجاب ، صامتا .

ـ تنتج بالتالي حكاية غير مسرّة ، ـ واصل ابراهيم كلامه ، ـ لقد ارسلوا لنا رئيسا ، فهو اذن ضيفنا ، اما نحن ، كل سكان القرية ، فنعجز عن تقديم حصان طيب واحد له ! ان عرف الآخرون ، ماذا سيقولون ؟ اين سُمع هذا عند القرغيز ، واين حصل من قبل ؟

ـ دع الامر يكون على هذا النحو ، ـ قالها تاناباي معلقا ، ـ فلتعرف القرية كلها . ساذهب الى تشورو . ودعه هو يحكم ويقرر .

ـ أتتصورون ان تشورو سيقول بعدم اعطائه ؟ لقد نوقش الامر معه . انكم فقط تورطون الرجل . لكأن هذا اعتصاب . لا نعترف بالرئيس الجديد ونمضي الى القديم نشكو . ثم ان تشورو انسان مريض . فعلاَم افساد علاقاته بالرئيس ؟ سيكون تشورو منظم الكولخوز الحزبي ، وسيكون عليه ان يعمل معه . فلماذا تعرقلون عمله ...

وهنا ، وحين انعطف الحديث الى تشورو ، لاذ تاناباي باذيال الصمت . وصمت الجميع . اما جايدار فقد تنهدت بثقل .

ـ اعطه ، ـ قالت لزوجها ، ـ لا تعطل الناس .

ـ هذا هو المعقول ، وكان ينبغي ان يتم ذلك منذ البدء . شكرا لكم ، يا جايدار هانم .

لم يكن عبثا تدفق ابراهيم في عبارات الشكر . فليس الا بقليل من الوقت بعد هذا ، كان صاحبنا قد تحول من ناظر مزرعة تربية الخيول الى مساعد الرئيس في كل شؤون تربية الحيوانات في التعاونية !..

وجلس تاناباي في السرج ، وغض بصره ، ودون ان يتابع بنظره ، رأى كل شيء . رأى كيف امسكا بغولساري ، وكيف وضعا عليه رَسَنا جديدا ـ والا فان تاناباي لن يعطي رَسَنه اطلاقا ورأى كيف لم يرد غولساري مغادرة القطيع ، كيف جمح ، وكيف اندفع من المقاود عند ابن ابالاق ، وكيف ساطه ابراهيم بالسوط بشدة ، كارا عليه تارة من هذا الجانب ، وتارة اخرى من الجانب الآخر . رأى عيني الحصان الرهوان ، ونظرته المعتكرة ، غير الفاهمة الى اين ولماذا يقوده الناس الذين لا يعرفهم

والى اين يبعدونه عن الامهات والامهار ، وعن سيده ، ورأى كيف تصاعد البخار من فمه ، حين صهـــل ، رأى عفرته وظهره وكفله وآثار السياط على ظهـــره وجنبيه ، رأى كامل هيكله وقوامه ، وحتى الناميــة القرنية على القدم الامامية اليمنى اعلى من رسغه ، رأى مشيته ، وآثار الحوافـر ، ورأى كل شيء حتى آخر وبر من اوباره الشقراء الفاتحة ـ رأى كل شيء ، وكان يتعذب بصمت ، وهو يعض على شفتيه . وحين رفع رأسه ، فان اولئك الذين اخذوا غولساري منـــه كانوا قد اختفوا وراء الرابية . وصرخ تاناباي ، واطلق حصانه في اثرهم .

ـ قف ، لا تجرؤ ! ـ ركضت اليه جايدار مـن البيت .

واثناء جريه برق في ذهنه فجأة هاجس رهيب ـ انها اذن ، الزوجة ، تنتقم من الحصان عن تلك الليالي . واستدار بالحصان بقـــوة ، سائطا اياه بالسوط ، وقفل راجعـــا . وترجل بجنب البيت ، وقفز رهيب الهيئـة ، بوجـه مشوه القسمـات مـن الغضب والالم ، مبيض ، وسعى الى الزوجة .

ـ انت لماذا ؟ لماذا قلت : اعطه ؟ قالها بما يشبه الهمس ، كانه يفح ، ناظرا في عينيها .

ـ اعقل ، واهدأ . اخفض يديك ، ـ قاطعته بملاحظة صارمة وصدته بهدوء ، كما هو الامر دائما ، ـ اسمع ما ساقوله لك . أغولساري حصانك الخاص ؟ اهو ملكك الشخصي ؟ ما هو ملكك الشخصي هنا ؟ كل ما عندنا هو للكولخوز . وبهذا نعيش . والحصان كولخوزي ايضا . اما الرئيس فهو سيد الكولخوز ، فكما يقول ، فكذلك سيكون . اما فيما يتعلق بذلك الامر فعبثا ما تتصور . يمكنك ولو الآن ان تذهب . اذهب . هي افضل مني ، افتى واجمل . امرأة رائعة . وانا كذلك كنت استطيع ان اترمل ، ولكنك عدت من الحرب . كم انتظرتك ، ولكن دع هذا ، اطرحه من الحساب ! انما لديك ثلاثة اطفال . فالى اين بهم ؟ ماذا ستقول لهم فيما بعد ؟ وماذا سيقولون هم ؟ وماذا ساقول لهم انا ؟ قرر بنفسك . . .

وغادرها تاناباي الى السهب . وهناك قضى بقية نهاره ، بين القطيع ، حتى غاية المساء وهو لا يزال بعيدا عن الهدوء والسكينة . لقد تيتّم القطيع . وتيتّمت روحه هو . لقد اخذها الحصان معه . اخذ كل شيء ، الآن كل شيء ليس كما ينبغي ، لم يعد كما كان عليه . فالشمس ليست هي بذات الشمس ،

والسماء ما هي بالسماء ، وهو نفسه كأنه ليس هو ذاته .

ولما عاد كان الظلام قد نشر جناحيــــه . ودخل البيت صامتا ، وقــد اسود لونــه . وكانت بنتاه قد نامتا . وكانت النار تضطرم في الموقد . وصبت الزوجة الماء على يديه . وقدمت له طعام العشاء .

ـ لا اشتهي . ـ رفض تانابـاي . ومــا لبث ان قال :

ـ خذي آلة «التميـر ـ كامـــوز» ، وغني لي «نواح الناقة» .

تناولت جايدار «التمير ـ كاموز» ، وقربتها من شفتيها ، ومسّت باصبعها الوتــر الفولاذي الرهيف ، ونفخت عليها ، ثم نشقت الهواء ، وانثالت موسيقى الرحّل القديمة . انها الاغنية عن الناقة ، التي اضاعت حوارها الابيض . اياما كثيرة ركضت هي في الصحراء هائمة على وجهها . تبحث ، تنادي ، وتهتف بوليدها . وتحزن لانها لن تقوده وراءهـا بعد الآن فوق الجرف ساعة المساء ، وفي ساعة الصبح في السهول ، ولن تقتطف معه الاوراق من الاغصـان ، او تخطو معه في الرمـال المتموجة ، او تجول معه في الحقول الربيعيـــة ، او تسقيه الحليب الابيض . اين انت ، ايها الحوار الاسود

العينين ؟ اجب ! يسيل الحليب من الضروع ، من الضروع المليئة ، ويشخب جداول على القدمين . اين انت ؟ اجب ! يسيل الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة ، الحليب الابيض ...

كانت جايدار تتقن العزف على «التمير ـ كاموز» ، وقد احبها هو ، لقاء هذا منذ زمن بعيد ايام كانت فتاة .

وكان تاناباي يستمع ، مطرقا برأسه ، ودون ان يتطلع ، رأى كل شيء . هذه يداها وقد اخشوشنتا وتجستا من العمل المتواصل لسنين طويلة في حر الصيف وقر الشتاء . وهذه هي الشعرات البيض والغضون التي طلعت على طول رقبتها ، وبجنب الفم ، وبجنب العينين . رأى كيف كان الشباب الآفل يبرز وراء هذه الغضون والتجاعيد ـ فقد كانت فتاة سمراء تتهدل ضفائرها على الكتفين ، وكان هو نفسه آنذاك ـ شابا في ريعان شبابه ... رأى حبهما القديم . كان يعرف انها لا تلاحظه الآن حيث كانت مستغرقة في موسيقاها غارقة بافكارها . ورأى هو ، الى ذلك ، رأى في تلك الساعة ، بأم عينيه نصف عذاباته واحزانه فيها . فقد كابدتها هي وحملتها باستمرار في نفسها .

...وتركض الناقة اياما كثيرة ، وتبحث ،

وتهتف بوليدها . اين انت ايها الحوار الاسود العينين ؟ يسيل الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة ، ويشخب جداول على القدمين . اين انت ؟ اجب ! يسيل الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة . الحليب الابيض . . .

اما الطفلتان فقد نامتا متعانقتين . ووراء المسكن رقد السهب ـ رحبا ، لا تطاله العين في ظلمة الليل . . .

وفي هذه الساعة تمرد غولساري في الاسطبل ، وحرم السوّاس النوم . كانت هذه هي المرة الاولى التي تطوح المقادير فيها به الى الاسطبل ، الى سجن الخيول .

٨

كان سرور تاناباي كبيرا ، حين رأى صباح ذات يوم حصانه الرهوان في القطيع . كان يجول بقطعة متهدلة من حبل الرسن ، وبالسرج مسرجا على ظهره .

ـ غولساري ، غولساري ، مرحبا ! ـ وثب تاناباي اليه رماحة ، وعاينه عن كثب في اعنة جديدة ، اعنة اخرى غير ما كانت لديه هنا ، وتحت سرج جسيم آخر ، بركابين ثقيلين ، ضخمين . على ان الذي

حيره ، بصفة خاصة ، وادهشه هو ان الرهـــوان كان ينوء تحت مخدة من المخمل ضخمة ، منتفشة ، حطت على السرج ، كما لو ان الذي ارتحـل عليه لا رجـل وانما امرأة ذات عجيزة ضخمة .

ـ تفـو ! ـ بصق تـانـابـاي من الامتعـاض .

واراد ان يمسك بالحصان وان يرمي عنه كل هذه العدة الغريبــة ، ولكـن غـولسـاري افلـت منـه وزاغ . فقد كان في شغل شاغل عنه . كان يداور الافراس . وكان اشتهاؤه لها وشوقه اليهـا قد امضّ به واطـار طائره ، بحيث انه لم يلاحظ صاحبه السابق .

«اذن ، فررت منهم ، بهذا الشكـــل ، وقطعت المقاود . شـاطر ! طيب ، تنزّه ، وجـل مـا شئت ، فليكن الامر كذلك ، اما انا فسأصمت» ـ فكر تاناباي وقرر انــه يلزم ان يمنـــح القطيـــع عدوا قصيرا . وليحسّ غولســـاري انـه في بيتـه ، مـادام لم يظهـر مطاردوه الباحثون عنه .

ـ كايت ـ كايت ـ كايت ! ـ هتـف تـانـابــاي ، ونهض نصف نهوض في السرج ، وجعل يسوق القطيـــع بعيدا ، وهو يلوح بالانشوطة .

وتحركت الافراس ، داعية الامهار ، وركضـــت الافراس الصغيرة وهي تمرح سرورا . وكانت الريـــح

قد نفخت عفراتها . وضحكت الارض المخضرة تحت الشمس . واختلج غولساري ، وقوّم من جسمـه ، وجعل يتبختر زهوا . واندفع في مقدمة القطيع ، في الطليعة ، وازال حصان القطيع الجديد ، ودفعه الى الخلف ، وبدأ ينخر ، متظاهرا ، متباهيا امام القطيع ، وابتدأ يتراقص ، ومضى يجري تارة في هذه الجهـة وتارة في الجهة الاخرى . لقد ادارت رأسه رائحـة القطيع ، ثمل بها ، ثمل برائحـة حليب الافراس ، برائحة الامهار ، برائحة الريح المضمخة بعبق نبات الشيح . ما كان يهمه ان سرجا اخرق مع مخدة مخملية خرقاء قد وضعت عليه ، وان الركابين الثقيلين كانـا يخزانه في جنبيه . لقد نسي كيف وقف هو بالامس في المركز المنطقي ، في مربط الخيل الكبير ، قاضمـا اللجام ، جافلا من سيارات الشحن المدوية . نسي كيف وقف بعدئذ في البركـة قرب دكان تَتن وكيف خرج سيده الجديد مع كافة افراد حاشيته وكيف فاحت من الجميع رائحة تَتنـة . وكيف تجشأ السيـد الجديد ولهث ، جالسا على ظهره . نسي كيف انهم قد قاموا في الطريق بشوط عدو احمق في الاوحال . وكيف حمل هو السيد الجديد منطلقا بكل قوته وكيف كان هذا قد تهدّل لاهثا بصفير في السرج ، متدليا ، متأرجحا مثل

كيس ، ثم صار يجذب اللجام بمتتهى الشدة مخرقا فمه ، ويضربه بالسوط ضربا مبرحا في رأسه .

لقد نسى الرهوان كل شيء ، كل شيء . لقد ثمل برائحة القطيع ، برائحة حليب الافراس ، برائحة الامهار ، برائحة الريح المضمخة بعبق نبات الشيح . كان الرهوان يركض ، ويركض ، دون ان يحزر ان المطاردة تنطلق وراءه .

وعاد تاناباي بالقطيع الى المكان السابق ، وهنا جاء سائسان من سواس الاسطبل من القرية واخذا غولساري من القطيع .

وعلى كل حال فسرعان ما ظهر من جديد . وكان ، في هذه المرة ، دون مقاود ، وبلا سرج . فقد اطرح ، على نحو ما ، الاعنة من رأسه وفرّ ليلا من الاسطبل . وضحك تاناباي في البدء ، ومالبث بعد ذلك ان صمت وبعد تفكير قصير ، القى بالانشوطة على رقبة الرهوان . لقد امسكه هو نفسه وقيده بالرسن واقتاده بنفسه الى القرية ، ملتمسا الراعي الفتي من المرعى المجاور سوق الرهوان من الخلف . وفي منتصف الطريق التقيا بالسواس ، المنطلقين بحثا عن الرهوان الآبق .

وسلم تاناباي غولساري اليهم ، بل وانهدّ يدمدم عليهم متذمرا :

ـ ماذا دهاكم هناك ، هل انتم بلا ايدي ، اجتمعتم جميعا دون ان تستطيعوا مراقبة حصان الرئيس . شدوه اوثق .

ولكن عندما هرب غولساري للمرة الثالثة ، فان تاناباي قد غضب غضبا شديدا :

ـ ما دهاك ، ايها الاحمق ! ما الذي يجذبك الى هنا ، اي شيطان ؟ انما انت احمق ، واحمق انت بالفعل ، ـ طفق يشتمه ، مطاردا الرهوان بالانشوطة . واقتاده مرة اخرى الى الاسطبل ، ومرة اخرى انّب السواس .

لكن غولساري لم يكن مستعدا لان يتعقل ، فقد كان يفرّ عند سنوح كل فرصة مواتية . فجن السواس ، وطار لبّ تاناباي .

... في ذلك اليوم استسلم تاناباي لسلطان الكرى في وقت متأخر ، فقد عاد متأخرا من المرتع وساق القطيع الى مكان اقرب من مسكنه تحسبا للطوارئ ، وغفى قلقا ، وبثقل . لقد تعذب وتعب ما فيه الكفاية اليوم . وحلم بحلم غريب ـ فتارة كانه في الحرب من جديد ، وتارة اخرى كانه في مذبحة في مكان ما . يكتنفه الدم اكتنافا ، ويداه كذلك غارقتان في دم لزج . بل هو نفسه يفكر في الحلم : ليس لخير

هذا الحلم بالدم . ويريد ان يغسل يديه في مكان ما . ولكنهم يدفعونه ، ويضحكون منه ، ويقهقهون ويهرّون في وجهه ــ وغير مفهوم من هذا الذي يفعل ذلك : «تاناباي ، تغسل يديك بالدم . لا يوجد ماء هنا ، يا تاناباي ، الدم هنا في كل مكان ! خا ــ خا ، خو ــ خو ، خي ــ خي ! ...»

ــ تاناباي ، تاناباي ، ــ هزّته زوجته في كتفه ، ــ استيقظ .

ــ لكن ، ماذا ؟

ــ او تسمع ، في القطيع شيء ما غير طبيعي . ان الاحصنة تتشاجر ، وعلى الارجح ، فرّغولساري ثانية الى القطيع .

ــ فليلعن ! لا راحة معه ! ــ ارتدى تاناباي ملابسه بسرعة ، واختطف الانشوطة وركض الى الوهدة ، حيث كان الشجار يسمع . وكانت الدنيا قد نورت.

اقترب راكضا ورأى غولساري . لكن ما هذا الذي يراه ؟ كان الرهوان يقفز ، موثقا في كلا قدميه بنوع خاص من القيود ، ذي قفل ــ باغلال حديدية . كانت الاغلال في القدمين تدوي ، ويستدير هو ، ويشب على عقبيه ، ويئن ، ويصرخ . ولكن هذا الطفيلي ، حصان القطيع يرفسه ويعضّه بكل قوة .

ـ ايه انت ، ايها الوحش ! ـ طار تاناباي كالعاصفة ، منقضا عليه ، وضرب الطفيلي بشكل تحطمت معه الانشوطة . وطرده . ومالبثت دموعه ان فاضت ـ ما الذي فعلوه معك ، ماذا ؟ من هذا الذي اخترع فكرة تقييدك بالاصفاد ؟ ولماذا جئت الى هنا ايها العبيط التعس ؟ ...

يا للعجب ـ كل هذه المسافة البعيدة ، عبر الاخاديد ، والنتوءات ، كل هذه الموانع والعقبات وكل هذا الطريق الطويل اجتازه الرهوان قفزا وهو ينوء بالاغلال ، وبلغ ، اخيرا ، قطيعه . طوال الليل ، كان يقفز ، فيما يبدو ، طوال الليل كان يسير ، وحيدا ، تحت وطأة القيود ودويها ، مثل سجين فارّ محكوم بالاشغال الشاقة .

«واعجباه ، وأسفاه !» ـ هزّ تاناباي برأسه . وجعل يربّت على الحصان ، ووضع وجهه تحت شفتيه . فمسّه هذا بشفتيه ودغدغه ، واغمض عينيه .

ـ كيف سيكون امرنا معك ، كيف سندبر حالنا ، ها ؟ هلا تركت هذا ، يا غولساري . ان هذا ليس في صالحك . انك غبي ، غبي . ولا تعرفن شيئا قط ...

وتفحّص تاناباي الرهوان . كانت الخدوش

التي تلقاها في العراك تندمل . ولكن ها ان قدميه قد برتها القيود . الحوافر تنزف دما . وكانت التحشية اللبادية للاصفاد ذات القفل متقيحة ، فالعث قد اضرّ بها ، وحين ركض الحصان في الماء فالتحشية زلقت ، وعرّت الحديد ، فكان يمسّ الجسد مباشرة ويبريه بريا . وها هي قدماه تتنزيان دما جرّاء ذلك . « ليس سوى ابراهيم من وجد مثل هذا القيد ذي القفل عند الرجال المسنين . ان هذا لصنع يديه » ، ــ طفق تاناباي يفكر بحقد . صنع من اذن يكون ؟ ان القيد ذا القفل هو نوع من الاغلال الحديدية القديمة . وفي كل قيد من هذا النوع قفل خاص ، لا يفتح الا بمفتاح خاص . وفي العهود السابقة كانت اقدام افضل الخيول واثمنها تكسى بهذا القيد القفلي كيلا يستطيع سراق الخيل المحترفون سرقتها والعدو بها من مراتعها . فالاغلال الاعتيادية من الحبال يمكن قطعها بسكين ــ وينتهي الامر ، اما مع هذا القيد الحديدي القفلي فلن تستطيعن بحال سوق الحصان او اقتياده او الهروب به . لكن ذلك كان قديما ، اما الآن فهذا القيد اصبح نادرا . اجل ، ربما ذُخر هذا عند شيخ ما كذكرى من ذكريات الماضي . ولا بد ان احدهم قد اوحى بذلك ، فيا للعجب . وهكذا قيدوا الحصان

الرهوان كيلا يستطيع المضي بعيدا عن مرتع القرية . لكنه ، مع كل ذلك وبرغمه ، مضى ...

شاركت العائلة جميعا في نزع قيود غولساري . كانت جايدار تمسك به تحت اللجام ، وتغلق عينيه ، فيما كانت بنتاها تلعبان قريبا منها ، اما تاناباي ، الذي كان قد اتى بحقيبته ذات الادوات فقد جلّله العرق ، وكان يحاول ان يجد مفتاحا مناسبا لفتح القفل . ها هي خبرة الحداد قد ساعدته . وبعد ان انشغل وقتا غير قصير ، مشتدا في العمل حتى صار يلهث ، وبعد ان جرح يديه ، استطاع ان يجد وسيلة مناسبة ، مع كل ذلك وفتح القفل .

ورمى بالقيد بعيدا عن العيون ، سحقا له ! واقبل يدهن الجروح الدامية في قدمي الرهوان بمرهم ما ، وبعد ذلك اقتادته جايدار الى المربط . وكانت البنت الكبرى قد رفعت الصغرى على ظهرها ، ومضوا جميعا الى البيت .

اما تاناباي فقد مكث جالسا وقتا ، وكان يلهث ، فقد امضّ به التعب . ثم جمع ادواته ، ومضى ، ورفع القيد القفلي من الارض ، اذ ينبغي ارجاعه ، والا فستلزم المسؤولية عنه . وتفحص القفل الصديء بنظرة مدققة ، فاعجب بعمل صانعه . كان كل

شيء مركبا بدقة ، ومصنوعا بابتكار . انه عمل الحدادين القرغيز القدماء . اجل ، لقد ضاعت الآن مثل هذه الحرفة ، وطواها النسيان . فالآن لم تعد لازمة مثل هذه القيود . ولكن ها قد اختفت اشياء اخرى — ويا للاسف . اية حلى ، اية لوازم وادوات من الفضة ، ومن النحاس ، ومن الخشب ، ومن الجلد كانو يتقنون صنعها ! والى ذلك فهي ليست غالية ، فيما يبدو ، وانما كانت اشياء جميلة حقا . كل شيء منها متفرد بنفسه ، خصوصي المميزات . اما الآن فلا توجد مثل هذه الاشياء . فالآن يصنعون من الالومنيوم كل شيء على التوالي : الاكواب ، الاقداح ، الملاعق ، الاقراط ، والطسوت . حيثما تولي فثم وجه الالومنيوم — شيء واحد ، متكرر . حتى ان ذلك صار موحشا ، مضجرا . اما الاسطوات من السراجين فقد اصبحوا هم بدورهم ، في الرفوف العالية . ولكن اية سروج كانوا يتقنون صنعها ! فلكل سرج كان تأريخه وحكايته : من صنعه ، ولمن ، ومتى ، وكيف كان صاحب السرج الجديد يشكر صانع السرج على عمله . وعلى الارجح سيسافر الجميع ، قريبا ، في السيارات ، كما هو الحال هناك ، في اوروبا . الكل في سيارات متماثلة ، ولن تفرق فيما بينها الا بالارقام . اما

مهارة الاجداد فننساها . لقد دُفنت تماما تلك المهارة اليدوية العريقة ، مع ان في الايدي تكمن روح الانسان وعيناه ...

كانت مثل هذه التأملات تعمر روح تاناباي احيانا . فكان ينهد يناقش حول الصنعة الشعبية والحرف ، وكان يعلن عن سخطه دون ان يعرف من الذي يتهمه ويستذنبه في اختفائها . على انه في شبابه كان هو نفسه واحدا من حفّاري قبور المصنوعات القديمة . بل انه ألقى ذات يوم في اجتماع كومسومولي بحديث حول تصفية الخيام . كان قد سمع في مكان ما ان الخيمة ينبغي ان تختفي ، وان الخيمة هذه انما هي مسكن ما قبل الثورة . «سحقا للخيمة ! كفى عيشا على الطريقة القديمة ! »

«ونزعوا ملكية» الخيمة وصفوها . وجعلوا يبنون البيوت ، اما الخيمة فقد اعدت للهدم . فقطعت قطع اللباد لمختلف الاحتياجات ، اما الخشب فقد استخدموه في بناء الاسيجة وزرائب الماشية ، بل حتى أُعدّ وقودا ...

ولكن تبين ، بعدئذ ، ان تربية المواشي في المراعي انما هي امر غير معقول بدون الخيام . والآن فان تاناباي كان يدهش ، في كل مرة ، كيف انه تجرأ

ان ينطق بمثل هذا الكفر ، وان يلعن الخيمة التي لم يخترع افضل منها ، لحد الآن ، للترحل . كان يعجب كيف انه لم يستطع ان يرى في هذه الخيمة الصنع المدهش لشعبه ، حيث كل جزيئة صغيرة وكل تفصيل من التفصيلات قد سُوّي ، وصُنع بمهارة وتجربة عشرات الاجيال عبر القرون ؟

اما الآن فقد صار يعيش في خيمة من هذه الخيام ، مثقّبة ، مغطاة بالسخام ، هي تلك الخيمة التي تركها له ترغوي المسنّ . كان لهذه الخيمة عمر عريق ، وقد تصرم عليها كثير من السنين ، اما اذا كانت قد عمرت لحد الآن ، فانّما يرجع الفضْل في ذلك لصبر جايدار الخارق . اذ كانت تنشغل أياما بكاملها تخيط وترتق ، وتعمل كل شيء من أجل ان تعطي لهذه الخيمة العتيقة المهلهلة مظهرا صالحا للحياة . ولكن بعد اسبوع لا اكثر ، كانت قطع اللباد العتيق تنزلق هاوية ، فتطلع الشقوق والثغرات من جديد ، وتعصف الريح من خلال الثغرات ، ويتساقط الثلج ، ويهطل المطر متسربا من الشقوق . ومن جديد كانت الزوجة تضطلع بالاصلاح والترقيع ، وكان يبدو انه ما من نهاية لذلك .

ـ حتى متى سنظلّ نتعذب ؟ ـ كانت تجأر بالشكوى ، ـ انظر ، ان هذه ليست بقطع اللباد ،

وانما تراب ، فهي تتناثر كالرمل . اما الاعمدة الخشبية فالى اي شيء تحوّلت ! انـــه ليخجلني القول . هلا جاهدت على الأقل من اجل ان يعطونا قطعا جديدة من اللباد ! أأنت ربّ البيت ام لا ؟ ان علينا ان نعيش ، اخيرا ، كالناس . . .

وكان تاناباي يهدئها في البدء وكان يعد . ولكـن حين كاد يلمح في القرية ، لاحتياجه الى انشاء خيمـة جديدة ، تكشـّف ، ان الصناع القدماء قد توفوا منذ زمن ، اما الشبيبة فلـم تكن لديهـم حتى فكرة حول كيفية صنعها . وفي الكولخوز ايضـا لم يكـن اللبـاد الضروري للخيام موجودا .

ـ طيب ، اعطونا صوفا ، وسنصنـع بانفسنـا قطع اللباد . ـ سألهم تاناباي .

ـ اي صوف ! ـ قالوا له ، ـ ماذا دهـاك ، أمن القمر هبطت الينا ؟ ان كل الصوف يُجهز للبيـع بموجب الخطة ، اما للكولخوز فلا يُفترض ان يترك ولا غرام . . .

واقترحوا ، تعويضا ، خيمة من التاربولين * .

ورفضت جايدار رفضا باتا :

---

* هو النسيج المشمع .

ـ لأفضل ان نعيش في خيمة مثقبة ، من ان نعيش في خيمة من التاربولين .

لقد اضطر كثير من مربي المواشي الى الانتقال الى امثال هذه الخيم . ولكن اي عيش هذا ؟ فكل شيء ممنوع : لا تقوم ، ولا تقعد ولا تشعل نارا . في الصيف حرّ لا يطاق ، وفي الشتاء قرّ لا تحتمله حتى الكلاب . ولن تستطيع تنظيم اشياءك ، ولا ان تقيم مطبخا ، ولا حتى ان تنظف وترتب حوائجك على نحو احسن واجمل . اما حين ياتيك الضيوف ، فتحار ، لا تعرف الى اين تمضي بهم .

ـ كلا ، كلا ! ـ رفضت جايدار ، ـ كما تشاء ، ولكني لن اعيش في خيمة كهذه . انما الخيم لمن ليس لهم عوائل ، ولعل ذلك موقتنا أيضا ، اما نحن فمعيلون ومطفلون . ولا بد من غسل الاطفال ، وتنشئتهم ، كلا ، لن اعيش هناك ...

وفي تلك الايام التقى تاناباي ، ذات مرة ، بتشورو وكاشفه بكل شيء .

ـ كيف يحدث مثل هذا ، ايها الرئيس ؟

وهزّ تشورو رأسه بحزن .

ـ في مثل هذه الامور ، كان ينبغي علينا ان نفكر ، في وقتها . وكذلك كان ينبغي على مسؤولينا . اما الآن فماذا نفعل ـ نحرر الرسائل اليهم ، ولا نعرف

بماذا سيجيبوننا . يقال ، ان الصوف مادة اولية ثمينة ونادرة ومادة للتصدير . اما الانفاق على الضرورات الاقتصادية الداخلية ، فامر غير معقول ، كما يقال .

وصمت تاناباي بعد ذلك . اذن فهو ذاته كان مذنبا ، لحدما . فكان يضحك من حمقه ، صامتا :
«غير معقول ! خا ـ خا ـ خا ! غير معقول !»

ولامد طويل لم تبارح رأسه هذه الكلمة الجاسئة ــ «غير معقول!» .

وهكذا ، وعلى هذه الحال ، ظلوا يعيشون في الخيمة العتيقة ، المرقعة بصنوف الرقع والوانها ، والتي كانوا يحتاجون الصوف الاعتيادي من اجل تصليحها . بيد ان هذا الصوف ، بالمناسبة ، كانوا يجزّونه من قطعان الضأن في الكولخوز بالاطنان . . .

تقدم تاناباي من خيمته والقيد الحديدي القفلي بيديه . فتراءت له هذه الخيمة حقيرة ، تافهة ، واستحوذ عليه ، في الحال ، سخط عارم على كل شيء ــ على نفسه ، وعلى هذا القيد الحديدي القفلي الذي ادمى قدمي الحصان ، بحيث انه جعل يزيق اسنانه . وفي هذه اللحظة الحرجة تحت وطأة هذا السخط العارم ، كان قد جاء السوّاس ، الذين انطلقوا بحثا عن غولساري .

ـ خذوه ، ـ صرخ فيهم تاناباي . وتحركت شفتاه من الحقد ، ـ اما هذا القيد الحديدي القفلي فاعطوه الى رئيسكم وقولوا له : ان تجرأ مرة اخرى على تقييد الرهوان ، فاني ساحطمن رأسه بهذا القيد . هكذا ابلغوه ! . .

عبثا قال ذلك . اوه ، عبثا ! فلقد كلفته هذه الحدة وهذه الصراحة ثمنا غاليا في حياته ...

٩

حل نهار مشمس ، نير . ضيق الربيع عينيه امام الشمس الساطعة ، وتجعدت وجوه اوراقه الجديدة ونبتاته الكثار ، واطلق لهاثه في الارض المحروثة ، وطلع عشبا وافرا في الممرات والدروب ، ونتأ تماما تحت الاقدام .

كان الصبية يلعبون ، بجانب الاسطبل ، لعبة «التشيجيك» . يرمي صبي حرك ، نشيط بالعصا الصغيرة ، الى فوق ، في الهواء ، ويدفعها بعد ذلك وهي في الهواء بضربة من عصا اخرى ، بكل قواه ، لتطير مسافة في الطريق . ثم يبدأ يقيس المسافة على الارض بعصاه ـ واحد ، اثنين ، ثلاثة . . . سبعة . . . عشرة ... خمسة عشر ... ويمضي المحكمون

المماحكون بجنب اللاعب، جماعة، يراقبونه كيلا يتلاعب او يزيد . اثنان وعشرون .

ــ كان ثمانية وسبعون، والآن اثنان وعشرون، ــ يحسب الفتى اللاعب ، ويفذلك الحساب ، ويهتف من فرط سروره ، ــ مائة ! صارت مائة !

هورا ، مائة ! ــ يلتقفها الآخرون .

اذن ، اصاب الهدف ، وربح الدور في اللعبة . مائة ، دون زيادة او نقصان . والآن ، فان الخاسر يجب ان «يزمر» . ويمضي الظافر الى الحد ، الذي وقعت عنده العصا ، ويرميها مرة اخرى ، بذات الطريقة ، كي تقع ابعد من ذي قبل . ويهرع الجميع الى هناك ، حيث وقعت العصا ، ومن الحد الجديد يرمى بالعصا ، بذات الطريقة ، مرة ثالثة . عندها يحزن الخاسر اشد الحزن ، بل تكاد دموعه تطفر . ذلك ان عليه ان يزمر كل هذه المسافة البعيدة ! ولكن قانون اللعب لا يخرق . «لماذا تقف ، هيا زمر !» ويجمع المزمر الهواء في رئتيه ويركض ، وهو يردد :

اقباي ، قوقباي ،
لا تطرد العجول في الحقول .
فان طردتها ــ لن تلحقها .
وستتلقى الجزاء ــ دو-و-و-و ...

ويصدع راسه وينفطر ، وهو لا يزال يزمر .
لكن كلا ، لن يصل الحد . فعليك الرجوع والبدء من جديد . ومن جديد لم يصل . اما الظافر فيضحك ويمرح جذلا . ما دام نفسك لا يكفيك ـ احملني اذن ! ويعتلي ظهر الخاسر ، ويحمله ذلك ، كما لو انه حمار.

ـ هيا الى الامام ، هيا اسرع ! ـ يلزّه راكبه بقدميه ، ـ انظروا ، ايها الفتيان ، ان هذا هو حصاني ـ غولساري ! انظروا كيف يمضي رهوا . . .

اما غولساري الحقيقي ، ذاته ، فقد كان يرزح وراء الجدار ، في الاسطبل . ولسبب ما لم يسرجوه اليوم . ولم يطعموه ولم يسقوه منذ الصباح . لقد نسوه . وقد فرغ الاسطبل منذ زمن ، وتفرقت العربات كل الى ناحية ، وافترق المسافرون على ظهور الخيل كل الى غايته ، ولم يبق الاه في الاسطبل . . .

يجمع السواس الدمان . ويضج الفتيان وراء الحائط . اواه ، لو استطاع الآن ان يبلغ القطعان ، كم بوده ان يطير الى السهب ! ها هو السهل الرحب يلوح له ، امام ناظريه ، وها هو يرى كيف تجول القطعان ، كل على هواه ومشيئته . تطير فوقها طيور الاوز الشهباء ، وهي تخفق باجنحتها ، وتنادي . . .

انتفض غولساري ، وحاول ان يقطع الوثائق التي

توثقه . كلا ، لقد ربطوه وثيقا وبقوة بسلسلتين ضخمتين . وفكر : لعل ذويه سيسمعونه ؟ اذن فليصهل . فرمى برأسه الى الشباك تحت السقف ، وجعل يصهل ، وهو يراوح قدميه على ارضية الاسطبل ، يصهل على نحو مصمّ ، مطيل : «اين انـ . . تـ . . م ـ تم ـ تم ؟»

ـ قف ، ايها الشيطان ، لقد استصرخ ! ـ وثب السائس ، ملوحا ، بالمجرفة . وصرخ ، مخاطبا احدهم وراء الباب : ـ أنخرجه ؟

واتى الجواب من الفناء : أخرجه !

وها هما سائسان يخرجان الرهوان ، يقتادانه الى الفناء . اوه ، ياله من نهار مشرق ! وما اعذب الهواء ! وارتجف منخرا الرهوان الرقيقان الناعمان ، وهما يمسان ويتنشقان نسيم الربيع الثمل . وكانت الاوراق تفوح منها رائحة مرة . وتفوح رائحة الطين الندي من الارض . وها ان دمه جعل يمرح في بدنه . كم كان بودّه لو يفرّ الآن . وقفز غولساري شيئا .

ـ قف ! قف ! ـ حاصرته عدة اصوات على الفور .

ماذا حصل اليوم ، ولِمَ هذه الكثرة من الناس حوله ؟ كانوا يقفون وقد شمّروا عن سواعد عفيّة ،

شعراء . وكان احدهم في برد رمادي ، ينشر على خرقة بيضاء اشياء معدنية القة . انهـا تتلامــــع في الشمس فتخطف الابصار . وآخرون ــ كانوا يقفون والحبال في ايديهم . وحتى السيد الجديد هنا ! يقف متعاظمـــا ، وقد باعد بين ساقيه القصيرتين ، السمينتين في بنطلون الخيالة العريض . كان حاجباه مقطبين كما كان الحـال عند الجميع . الا انه لم يشمر عن ساعديـه . كان قـد وضع احدى يديه على خاصرته ، فيما كان باليد الاخرى يدور زرا في سترته الرسمية ذات الصف الواحد مــــن الازرار . وبالامس فاحت منــــه ، مرة اخرى ، ذات الرائحة العطنة .

ــ طيب ، لمــــاذا تقفــون ، ابدأوا ! أنبدأ يا جوروكول آلدانوفيتش ؟ ــ خاطب ابراهيم الرئيس . فاحنى هذا رأسه صامتا .

ــ حسنا ، هلم نبدأ ! ــ تململ ابراهيم ، ومضى يعلق بعجلة قبعتـه المصنوعــــة من فراء الثعلب على مسمار ما في بوابة الاسطبل . ولكن هذه تهوى ، فتقع في الدمان . فرفعها ابراهيم ، بتقزز ، ونفضها ليعلقها من جديد ، ــ لو ابتعدت شيئـــا ، يـــا جوروكول آلدانوفيتش ، ــ قال هو اثناء ذلك ، ــ والا فانه قد يركل بحوافره ، دون توقع . ان الحصـــان كائن غير معقول ، انتظر منه المقالب دائما .

وارتجف جلد غولساري ، وقد أحس في رقبته بالوهق الشعري . كان شائكا . وربطوا الوهق بأنشوطة متحركة على صدره ، ورموا بالنهاية الى الخارج ، على جنبـــه . ترى ما الذي يلزمهم ؟ ولسبب ما اوصلوا الوهق الى القدم الخلفية ، الى الكاحل ، ولأمر ما شبكوا القدمين وعقدوهما على نحو أوثق . وبدأ غولساري يتنرفز ويهتاج ، ويشخر ، ويزوّر بعينيه . علامَ كل هذا ؟

ـ عجّلوا ! ـ حث ابراهيم القوم وعوى فجأة بصوت ناشز عالٍ :ـ جندلوه !

وسرعانما جذب زوجـــان من الأيدي العفيّة الشعراء الوهق دفعة واحدة ، الى ناحيتهما . فهوى غولساري على الارض ، كما لو انه خر صريعا ـ هخا ـ آ ! وانقلبـت الشمس رأسـاً على عقب ، وارتجـت الأرض من وقع الضربة . ما هذا ؟ لماذا يرقد هو على جنبه ؟ ولمـاذا استطـالت وجوه النـاس الى أعلى ، فصارت فوقه ، ولماذا نهضت الاشجار وارتفعت في العلاء ؟ ولماذا يرقد هو على هذا النحو غير المناسب على الأرض ؟ كلا ، لا ينبغي ان يكون الامر كذلك .

وهزّ غولساري رأسه ، وانتفض بكل جذعه ، وكامل جسمــه . الا ان الوهق أخذ يحزّ مثـل أغلال

حديدية حارقة ، طاوياً قدميه تحت البطن . فاندفع الرهوان ، وتوتر ، وجعل يحرّك قدمه التي كانت لا تزال حرة . وشدّ الوهق ، وقرقع .

ـ اجثموا عليه ، اضغطوا ، امسكوه جيدا !

ـ صاح ابراهيم .

وانقضّ الجميع على الحصان ، جاثمين عليه بركبهم .

ـ رأسه ، اجذبوا رأسه واضغطوا به الى الارض ! لف ! شد ! هكذا ! عجلوا ! خذ هنا ، شدّ مرة اخرى . شدّ مرة اخرى ، مرة اخرى . هكذا . والآن اشبك ، ولفّ عقدة ! ـ كان ابراهيم يزعق دون انقطاع .

وجعلوا يزيدون من شدّ قدمي الرهوان بالوهق ، حتى جمعت القدمان كلتاهما في عقدة وثيقة ، جاسئة ، واحدة . وبدأ غولساري يئن ، وأخذ يجأر ، وهو لا يزال يحاول التملّص من هذا التقييد الوثيق الخانق بهذا الوهق ، مطوحا بكل اولئك الذين جثموا على رقبته وعلى رأسه . لكنهم من جديد جثموا عليه بركبهم . وسرى تشنج في جسم الرهوان المتصبّب عرقا ، وخدرت قدماه . واستسلم .

ـ اوف ! أخيرا !

ـ ياله من قويّ !

ـ لن يتحـرك بعـد الآن ، حتى ولـو كان هـو تراكتور !

وهنـا وثب الى الرهوان المدحـور ، الهـاوي ، الموثـق ، وثب هو ذاتـه ، سيده الجديـد ، وجلس القرفصاء من ناحية رأسه ، تفوح منه رائحة فودكا الأمس الرديئـــة ، وبدأ يبتسم ويضحك في لـــذة متشفّـية ، في عداوة صريحة ، ثملا بلذة الفوز ، كما لوان الذي يرقد أمامه لا حصان ، وإنما انسان ، عدوه اللدود .

واندسّ ابراهيم الى جانبه وقعد ، وهو يجفف وجهه بمنديـل ، فقد جلله العرق . ودخنـا ، وهمـا قاعدان على هذا الشكل ، بجانب الرهوان ، دخنا في انتظار ما كان ينبغي ان يتلو كل هذه العمليات .

أما وراء الفناء فقد كان الصبية يلعبون لعبتهم السابقة :

آقباي ، قوقباي
لا تطرد العجول في الحقول .
فأن طردتها ـ لن تلحقها .
وستتلقى الجزاء ـ دو-و-و ! ..

كانت الشمس لا زالت تنوّر كما كانت . ورأى هو ، للمرة الاخيرة ، السهب الواسع ، رأى كيف تجول القطعان كل على مشيئته وهواه . تطير فوقها طيور الأوزّ الشهباء ، تخفق بأجنحتها ، وهي تتنادى . . . لكن الذباب التصق زرافات على بوزه . ولن يستطيع طرده أوكشه .

ــ هل نبدأ، يا جوروكول آلدانوفيتش ؟ ــ سأله ابراهيم من جديد . وأحنى هذا رأسه . فنهض ابراهيم .

وابتدأ الجميع الحركة ، وجثموا على الرهوان الموثق بركبهم وبصدورهم . وشدّوا برأسه ، أوثق ، الى الارض . وبدأت يدا أحدهم تهارش بضجة في الاربية .

وتسلّق الصبية السياج ، وحطوا عليه ، كالعصافير .

ــ انظروا ، أيها الفتيان ، انظروا ماذا يصنعون .

ــ ينظفون حوافر الرهوان .

ــ ما اكثر ما تعرف ! حوافر ! قطعاً ليست الحوافر .

ــ هيه ، ما الذي يلزمكم هنا ، ولّوا من هنا ،

ابعدوا ! ـ صـــاح فيهم ابراهيم ولوح مهددا ، ـ امضوا ، العبوا ! لا شغل لديكم هنا !

فتزحلق الفتيان من الطوف هابطين .

وعمّ الهدوء .

كان غولساري قد تقلّص بكلّيته من الصدمات والهزات ، ومن ملامسة شيء مـا بارد . امـا السيد الجديد فقد كان لا يزال جالساً القرفصاء أمامه ، كان ينظر ، ويرتقب شيئا ما . وفجـاة نسف الألم الحاد النور في العينين . آه ! لقـد اندلعت شعلـة حمـراء ألقـة ، وفي الحـال استحـالت قاتمـة ، مسـودة ـ سوداء ...

وحين كان كل شيء قد انتهى ، كان غولساري لا يزال يرقد موثقا . كان ينبغي ان يتوقف نزف الدم .

ـ واخيرا ، لله الحمد ، ها قد انتهت المسالة ، ـ قال ابراهيم ، وهو يفرك يديه . ـ لن يعدو الآن الى أيما جهة . انتهى ـ لقد ركض شوطه في الحياة . أما بخصوص تاناباي فلا تلق اليه بالا . ابصق عليه . كان دائما بهذا الشكل . إنه لم يشفق حتى على أخيـــه ـ فنزع ملكيته ، وطوح به الى سيبيريا . فلمن تتصورون أنه يريد الخير ، اذن ...

وأخذ ابراهيم المغتبط ، الراضي قبعته من فراء الثعلب ، ونفضها ، وملّسها ، وحطها على رأسه العرق.
اما الصبية فكانوا لا يزالون يرمون بالعصا :

آقباي ؛ قوقباي ،
... دو-و-و-و .

أها ، انك لم تركض كل المسافـــة ، اذن فهيىً ظهرك للركوب . تشو ، غولساري ، الى الأمام ! هورا، هذا هو رهواني غولساري !
وكان نهار مشرق ، مشمس ...

١٠

كان الليل قد نـــاء بكلكلـــه ، ليل بهيم حالك السواد . وفي جوف هذا الليل كان اثنان: انسان هرم وحصان هرم . شعلة تضطرم في طرف الوادي . ولهبها يعلو وينخفض في الريح ...
كانت الارض المتجلدة ، الجاسئة قد بردت جنب الرهوان . كان قفاه قد ناخ بثقل حديدي ، اما رأسه فقد كـــلّ من النود تارة الى اعـــلى وتارة اخرى الى أسفل ، مثلما كان حاله آنذاك حين سار قفزاً ينوء

بالقيد الحديدي القفلي في كلتا قدميه . وكما كان وضعه آنذاك ، هو الآن لا يستطيع الركض ، كما لم يستطع تمزيق القيود . كان بودّه أن يلوح بساقيه بحرية ، من أجل ان تتدفأ حوافره من الجري ، وبودّه ان يطير فوق الارض ، لكي ينشق الهواء ملء رئتيه ، وبودّه ان ينهب الارض نهبا كي يبلغ مرتعه باسرع وقت ، لكي يصهل ملء صوته ، هاتفاً بالقطيـــع كي تعدو الأفراس والامهار سوية معه في السهب الكبير المغطى بالشيح ، لكن القيود كانت تعوقه . ومضى وحيدا تحت دوي الأصفاد ، مثل فارّ محكوم بالاشغال الشاقـــة يسير على ايقاع سلاسلـــه ، ومضى يقفز خطوة بعد خطوة ، خطوة بعد خطوة . وكان فـــراغ ، وظلام ، ووحدة . ويتلألأ القمـــر ، يلوح مرة بعد اخرى في جداول الهواء . كان ينهض ماثلاً أمام العينين ، حين كان الرهوان يقفز ،ويرفع رأسه ويهوي القمر كالحجر ، حين ينزل الرهوان رأسه .

كان الجو ينور تارة ، ويظلم تارة أخرى ، طوراً ينورّ ، وطورا آخر يظلم ... لقد كلّت عينـــاه مـن النظر .

تدوي السلاسل فتبري قدميه وتدميهما . قفزة ، فقفزة أخرى ، فأخرى . وكان فراغ وكان ظلام . ما

أطول السير في القيود ، ما أشقّ السير في القيود !

الشعلة تضطرم في طرف الوادي . وقد جمد جنب الرهوان بسبب الارض المتجلدة ، الجاسئة ...

١١

بعد اسبوعين كان عليه ان يقوم بترحال جديد ، مرة اخرى الى الجبال . وسيمكث هناك طوال الصيف ، وطيلة الخريف والشتاء ، حتى الربيع التالي . كم من العناء يكلّف السفر والانتقال . حتى اذا انتقلت من شقة الى شقة ، يصيبك تعب ونصب كثير . ترى من اين تتجمع كل هذه الحاجيات القديمة ، وكل سقط المتاع هذا ؟ أو ليس لهذا قال القرغيز منذ القدم : إن حسبت نفسك فقيرا ، فحاول ان تترحّل !

كان ينبغي عليه ان يتهيأ للترحل ، كان يلزمه ان يؤدي جملة من الاعمال المختلفة ، كالسفر الى الطاحونة ، والتعريج الى السوق ، الى الحذّاء ، والى الابن في المدرسة الداخلية ... اما تاناباي فقد كان يسير خائر النفس ، مغموما . وكان يبدو غريباً في ناظري زوجته في تلك الايام . كان يسرع في الفجر

مستعجلا ابدا ، فكنت لا تستطيع ان تتحدث معه مليا ، لأنه سيفارقك في الحال مبتعدا رمحا الى القطيـــع . وكان يعود لتناول الغداء مكتئبـــا ، مشـــارا . كان طيلة الوقت في حال من الترقب والانتظار ، لكأنما كان يتوقع شيئا ، فكان أبد الوقت متوتـرا ، مرهفا .

ــ ماذا دهاك ؟ ــ كانت جايدار تسأله مستخبرة . فكان يلزم الصمت ولا يرد . لكنه ذات يوم قال :

ــ لقـــد رأيت حلما سيئـــا ، منذ زمن غير بعيد .

ــ أتقول كذلك لأجل أن تتخلص من الجواب على اسئلتي ؟

ــ كـــلا ، لقد حدث هذا في الواقع . وهـــو لا يبارح رأسي .

ــ لقد عشنا حتى هذا الوقت وطعنّا في السن . ولكن أو لست انت أول من بدأ ونظم معشر الكفار في القرية ؟ أو لست الذي لعنتك العجائز ؟ إنمـــا أنت تشيخ ياتانابـــاي ليس الا ، فها انت تحوم وتدور حول القطيع ، امـــا ان الترحل قد صار قاب قوسين أو أدنى ــ فهذا أمر لا يهمك . أحقا أستطيع أن أدبر الامور وحيدة مع الأطفـــال ؟ لو ارتحلت لرؤيـــة تشورو على الاقل . ان النـــاس الأسويـــاء يزورون المرضى ، قبل الترحّل .

ــ لا زال ثمة وقت ،ــ لوح تاناباي بيديه ،ــ بعدئذ .

ــ متى بعدئذ ؟ ماذا بك ؟ أتخاف أن تسافر الى القرية ؟ لنسافر اذن سوية غداً . لنأخذ الاطفال ونرتحل . فانه ليلزمني أنا أيضاً أن ازور القرية .

وفي اليوم التالي . وبعد ان اتفقا مع الجار الفتي ليعنى بأمور القطيع وقت غيابهما ، ارتحلت العائلة كلها على ظهور الخيل : جايدار مع البنت الصغيرة ، وتاناباي مع الكبيرة . أخذا الطفلتين ، ووضعاهما أمامهما على السروج .

طافوا في شوارع القرية ، وحيّوا من لاقوهم وحيّوا المعارف ، لكن تاناباي أوقف فرسه فجأة بجنب ورشة الحدادة .

ــ قفي لحظة ،ــ قال للزوجة . وترجّل من السرج ، وأقعد البنت الكبرى الى الزوجة على كفل الحصان .

ــ ماذا بك ؟ الى أين أنت ؟

ــ سأجيء الآن ،جايدار ، ارتحلي . قولي لتشورو انني سأمرّ عليه في لحظة . لدي قضايا مستعجلة في الدائرة ، وستغلق هي قريبا لفرصة الغداء . وعلى

ورشة الحدادة يلزمني العروج . فعلينا توفير الحداوي، والمسامير في الارتحال .

ــ لا يليق ان نزوره مفترقين .

ــ لا يهم ، لا بأس . ارتحلي انت ، وأنا سأتبعك بعد برهة .

لم يعرج تانابـــاي لا على الدائـــرة ، ولا على ورشـــة الحدادة . انمـــا ارتحل مباشرة الى بيت الخيل .

دخل الى الاسطبل ، مترجلا ، دون ان ينـــادي أحدا . وجفّ فمه ، فيما اعتادت عيناه على الظلمـــة الخفيفـة هناك . كان الاسطبل فارغـا ، هادئـا ، وقد مضت الخيول جميعا في مختلف اغراض السفر والتنقل. وما ان عاين تاناباي ذلك حتى تنفس الصعداء . وخرج عبر الباب الجانبي الى فناء الاسطبل ليرى أي سائس من سواس الاسطبل . وهنا رأى ما كان يخشاه طيلة هذه الايام .

ــ هكذا خمنت ، أيها الأوغاد ! ــ قال بهدوء ، جامعا قبضة يده في توتر .

كان غولساري واقفـا تحت السقيفـــة ، بذيل مضمد بلفائف ومربوط بحبل الى رقبتـــه . وبين القدمين الخلفيتين المنفرجتين اقتمّ ورم صلب ، منتفخ

بحجم الابريق . كان الحصان واقفا دون حركة ، وقد نكس رأسه المعلف باكتئاب . فبدأ تاناباي يخور ، عاضا شفتيه ، وأراد أن يمضي الى الرهوان ، لكنه لم يجرؤ . كان الامر رهيبا مريعا بالنسبة له . لقد استفظع هذا الاسطبل الخاوي ، وروّع من رؤية بيت الخيل المقفر الا من الرهوان المخصيّ وقد تُرك لوحده . فاستدار وقفل راجعــا لايلوي على شيء . فلقد كان الامر قد انتهى ولم يعد إصلاحه ممكنا .

ومساء ، حينما رجعوا إلى الخيمة ، قال تاناباي لزوجته بأسى :

– لقد صحّ حلمي .

– ولكن ماذا ؟

– لم أقل شيئا عن ذلك وقت كنا في ضيافــة تشورو . الا ان غولساري لن يأتينا بعد الآن . أتعرفين ماذا فعلوا به ، لقد خصوه ، الأوغاد !

– أعرف . ولذلك جررتك الى القريــة . هل خفت أن تعرف ذلك ؟ ولكن علامَ الخوف ؟ انك لم تعد صغيرا ! أو هذه أول أو آخر مرة يخصون فيها حصانا ؟ كان هذا منذ سحيق الازمان وسيكون . وقد أصبح هذا معروفا للجميع .

ولم يعلّق تاناباي بشيء على هذا . لكنه قال :

ـ كلا ، مع ذلك يخيّل لي ان رئيسنا الجديد ، انسان رديء . بهذا يحدثني قلبي .

ـ دع عنك هذا ، يا تاناباي ، ـ قالت جايدار ، ـ يعني ، مادام قد خصوا حصانك ، اذن ، على الفور ، يصبح الرئيس رديئا . علام تقول هذا ؟ انه إنسان جديد ، والمزرعة كبيرة ، وفي حال صعبة . ها ان تشورو نفسه يقول انه منذ الآن سيتم تنظيم امور الكولخوزات على نحو دقيق ، وستقدّم المساعدة . بل ان الخطط قد وضعت لذلك . اما انت فتحكم على كل شيء قبل الأوان . اننا لا نعرف الكثير هنا ...

وبعد العشاء توجه تاناباي الى القطيع . وظل هناك حتى آخر الليل . كان يؤنب نفسه ، بل وكان يرغم نفسه على أن ينسى كل شيء ، ومع ذلك فلم يبارح باله ما رآه نهارا في الاسطبل . وفكر ، وهو يطوف بالقطيع ، دائرا في السهب : «لعله حقيقة انه لا يصح الحكم على الانسان بهذا الشكل ؟ فذلك بالطبع غباء . وهذا ، على الارجح بسبب انني اشيخ ، وأظل أرعى القطيع عاما كاملا ، دون ان أعرف أو أرى شيئا . ولكن الى أي وقت سيظل العيش صعبا بهذا الشكل ؟.. ومع ذلك فما إن تسمع الخطب والاحاديث حتى تتصور ان كل شيء على مايرام ، وان الأمور

تجري رخاء . موافق ـ فلنفترض أنني أخطئ . هب ، انني أخطأت . ولكن الآخرين ، على الارجح ، يفكرون بهذا الشكل ايضا ...»

دار تاناباي في السهب ، وفكر مليا ، ولم يجد جوابا على شكوكه . وطفق يتذكر كيف بدأوا بانشاء الكولخوز في وقت من الاوقات ، وكيف وعدوا الناس بالحياة السعيدة ، وأية أحلام كانت عند الجميع . وكيف ناضلوا من اجل تحقيق هذه الاحلام . لقد قلبوا كل شيء واجترفوا كل قديم . ولكن ، وللحق ، عاشوا في البداية على نحو غير سيئ . ولكانوا قد عاشوا أفضل لو لم تكن هذه الحرب اللعينة . اما الآن ؟ كم من السنين تصرمت بعد الحرب ، ولا نزال نرقع المزرعة ، كما نرقع الخيمة العتيقة المهلهلة . تخيطها في جانب ، لتنفتق في جانب آخر . ولكن مم هذا ؟ لماذا صار الكولخوز كأنه ليس كولخوزك ، مثلما كان سابقا ، وانما كأنه كولخوز غريب ؟ فآنذاك ، كلما قرر الاجتماع شيئا فانه يصبح قانونا . كانوا يعلمون ، ان القانون صاغوه هم أنفسهم ، وعليهم تنفيذه . اما الآن ، فان الاجتماع مجرد أحاديث فارغة ليس الا . ولا أحد يهتم بك . كأن

الكولخوز لا يديره الكولخوزيون انفسهم ، وإنما يديره دخيل ، غريب . كأن الغريب يرى على نحو أوضح ويقرر على نحو أفضل ما العمل ، وكيف العمل أفضل ، وكيف إدارة المزرعة . يلفّون ، يقلبون ، يدورون بالمزرعة تارة بهذا الشكل ، وتارة بشكل آخر ، ولكن دون نفع ولا جدوى . حتى اللقاء بالناس صار رهيبا ـ فانهم ما إن يروك حتى يبادروك بالسؤال : ها إنك عضو حزبي ، أحد مؤسسي الكولخوز ، واكثر الجميع صراخا وزعيقا ـ هلاّ فسرّت لنا ، كيف يحصل كل هذا ؟ فما الذي ستقول لهم ؟ لو جمعوا الناس على الأقل وحدثوهم شيئا عن الموضوع . لو سألوا الناس عما يجول في خواطرهم ، وعن أفكارهم واقتراحاتهم ، وهمومهم وشكاواهم . كلا ، انهم لايفعلون ذلك . فحتى المفوضون الذين يأتون من المركز المنطقي اناس آخرون ، غيرهم بالأمس . فقبلا كان المفوض يمتزج بالناس ، وكان الناس كلهم يقدّرونه فهو في متناولهم . اما الآن فيأتي ، ليصرخ في رئيس الكولخوز بالدائرة ، اما مع مجلس القرية فلا يتحدث بحال . واذا خطب في الاجتماعات الحزبية ، فعن الوضع الدولي ، على الاكثر ، اما وضع

الكولخوز فهذا لا يهمه ، كأنه ليس بالمسألة الهامة . اعملوا ، أنجزوا الخطة ، ولا شيء اكثر ...

وتذكر تاناباي كيف جاء أحدهم الى هنا منذ زمن غير بعيد ، فكان يتحدث طيلة الوقت عن مذهب جديد في علم اللغة . وقد حاول تاناباي التحدث معه حول وضع الكولخوز ومعاشه ـ فكان يجيب خائفا : أفكارك مريبة . ولم يستحسنها . فكيف يحدث كل هذا ؟

«ما إن ينهض تشورو من فراش المرض ـ قرر تاناباي ـ حتى أُجبره على الأفضاء بما في قلبه . وسادلي بكل ما عندي . فان كنت خاطئا ، فليقل لي آنذاك بانني خاطىء ، اما اذا لم اخطىء ؟.. فكيف الأمر آنذاك ؟ كلا ـ كلا ، مثل هذا لا ينبغي أن يكون . بالطبع أخلط أنا . من أنا ؟ مسؤول قطيع بسيط ، راع . اما هم فاناس حكماء ...»

رجع تاناباي الى الخيمة ، ولم ينم طويلا . لقد فكر مليا ، وطويلا ، وقلّب الامر تقليبا : فيم العلّة ، أين المشكلة ؟ ومن جديد لم يعثر على جواب شاف .

اما مع تشورو فلم يُوفّق ، والحال هذا ، للحديث معه . فلقد اغرق بالاعمال حتى الهامة ، قبل الترحّل .

ومن جديد ترحّل المترحلون الى الجبال ، رحلوا رحلة الصيف ، ليمكثوا هناك طوال الصيف والخريف والشتاء حتى الربيع التالي . ومن جديد مضت قطعان الماشية ، والخيل ، والضأن على طول النهر ، وفي مناطق الأرض التي تغمرها مياه الفيضان . وامتدّت قوافل الرحّل . ورجع الهواء مختلف الأصوات ، وخفقت بضروب الألوان مناديل النساء وفساتينهن ، واخذت الفتيات يغنين عن الفراق .

وساق تاناباي قطيعه عبر المرج الكبير ، في التلال السفحية بجانب القرية . وكان ذلك البيت ، وذلك الفناء ، الى حيث كان يرتحل على رهوانه ، كان لا يزال ينهض في الطرف القصي من القرية . وآلمه قلبه . فالآن لم تعد لديه لا تلك المرأة ، ولا الرهوان غولساري . لقد اصبح كل شيء في خبر كان ، وها هو يضجّ في الذكريات فحسب ، مثل سرب من طيور الأوز الشهباء في الربيع ...

... وتركض الناقة اياما كثيرة ، تبحث ، وتنادي طفلها . اين أنت يا جواري الأسود العينين ؟ أجب ! يجري الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة ،

ويشخب جداول في القدمين . أين أنت ؟ أجب ! يسيل الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة . الحليب الأبيض ...

١٢

وفي خريف ذلك العام كان مصير تاناباي باكاسوف قد تغير فجأة .

فبعد عودته من المضيق الجبلي ، استقر هو في التلال السفحية ، في المراتع الخريفية ، من اجل ان يمضي قريبا بالقطعان الى مكانات الرعي المحددة في الجبال ، لقضاء فصل الشتاء .

وفي هذه الأيام بالذات وصل رسول من الكولخوز .

ـ أرسلني تشورو ، ـ قال هو لتاناباي ، ـ لأخبرك باسمه ان عليك ان تأتي الى القرية غداً ، لتمضيا معاً من هناك الى الاجتماع في المركز المنطقي .

وفي اليوم التالي وصل تاناباي الى دائرة الكولخوز . كان تشورو هنا ، في غرفة المنظّم الحزبي . وكان يبدو أفضل مما كان حاله في الربيع ، بالرغم من انه كان واضحا ، حكما على زرقة شفتيه وهزاله ، ان المرض كان لا يزال موجودا لم يبارحه بعد . وكان

ناشطا حميا في تصرفه ، وكان غايةً في الانشغال ، وقد احتشد الناس حوله . فسرّ تاناباي لحال صديقه ، واغتبط بذلك . اذن فقد شفى ، وأقبل على العمل من جديد .

وحين بقيا لوحدهما ، هما الاثنين ، فإن تشورو نظر الى تاناباي ، ومس براحته خدّيه الضامرين ، الجاسئين ، وابتسم :

ـ أما أنت يا تاناباي فلا تشيخ ، فلا زلت من حيث المظهر أنت أنت . منذ متى لم نلتق ، وكم من الوقت قد تصرّم ـ منذ الربيع نفسه ؟ إن حليب الكوميس وهواء الجبال شيئان نافعان جدا ... أما أنا فانهار شيئا فشيئا . إنه الزمن ، على الارجح ، قد ... ـ وصمت برهة ثم ابتدأ الكلام عن الموضوع الذي سيدور عليه البحث والذي استدعى فيه تاناباي ، ـ هاك ما عندي ، يا تاناباي . إني لأعرف ، انك ستقول ـ أعط من لا يستحي ملعقة ليذوق الحساء وسيحتسي خمس مرات بدلا من مرة واحدة . من جديد يخصّك الامر . غدا سنرتحل الى اجتماع مربّي الماشية . ان الامر على غاية السوء بخصوص تربية الماشية ، وبشكل خاص بالنسبة الى تربية الضأن ، وخصوصا في كولخوزنا . قضية خاسرة تماما . ولقد توجهت

اللجنـــة المنطقيـــة بنداء دعت فيـــه الشيوعيين ، والكومسومو ليين للتوجه الى القطاعات المتأخرة ، الى قطعان الضأن . أنقذنا ! بالامس أنقذتنا بخصوص قطعان الخيل ، فشكرا لك ، والآن أنقذنا أيضا ! خذ قطعان الضأن ، وتحوّل الى رعي الاغنام !

– عجـــول أنت جدا ، ياتشـــورو . ـ صمت تاناباي برهة . « لقد اعتدت الخيول وتعودتني ، ـ فكرّ هو . ـ أما مع الاغنـــام فسيكون الأمر مضجرا نوعاما ! ثم كيف سيتم كل هذا ؟ »

ـ ألزمك ، يا تاناباي ، ـ قال تشورو ثانية ، ـ وليس ثمـــة خيار ـ انها مهمة حزبية . لا تغضب . ذكرني ، عند الضرورة ، على نحو صداقي ، وسأجيب في الحال عن كل شيء ! ..

– أجل ، سأذكرك ، يوما ما ، تذكيرا حازمـا ولن تسرّ لذلك ، بحال ! ـ طفق تاناباي يضحك ، دون ان يفكر ، انـــه ليس ببعيد جدا ذلك الوقت ، الذي سيلزمه ان ينبّـه فيه تشورو عن كل شيء ... ـ اما بخصوص قطعان الضأن فينبغي التفكير شيئـــا ، والتحدث مع الزوجة ...

– حسنـــا ، فكـر ! ولكن عند الصباح احزم أمرك ، فغدا عليّ ان ابلغ بذلك قبل الاجتماع . اما

مع جايدار فتشاور معها فيما بعد ، واشرح لها كل شيء . أجل ، وأنا نفسي سأجيء ، عند سنوح الفرصة وأحدثها . إنها ذكية ــ وستفهم . لو لم تكن هي عندك ، لكنت قد هلكت ، منذ زمن ، في مكان مـــا ، وانتهى أمرك ، ــ قال تشورو ممازحا . ــ كيف تعيش هي هناك ؟ وكيف الاطفال ؟

وتحدثا عن عائلتيهمـــا ، وعن الامراض ، وعن هذا وذاك من الامور . وكان تاناباي متلهفـــا ، طيلة الوقت ، لأن يبدأ حديثا كبيرا مهما مع تشورو ، لكن مربّي الماشيــــة بدأوا يفدون ، وقد استدعوا من الجبال ، ثم ان تشورو ذاتـــه جعل يستعجل ، وقد نظر الى ساعته .

ــ اذن ، بهذا الشكل ، اتفقنا . سلّم حصانك الى الاسطبل . لقد قررنا الارتحال سوية في سيارة عند الصبح . فلقد تسلمنا سيارة . وسنستلم الثانية قريبا . سنعيش ! أما أنا فسأتوجه الآن ، فالمقرّر ان أكون قبيل الساعة السابعة في مقر اللجنة المنطقية . والرئيس هناك . أتصور ، اني سأفلح ، على الرهوان ، في الوصول الى هناك قبيل المســـاء ، فانه لا يقل عن السيارة في سرعة الجري .

ــ كيف ، أحقا سترتحل على غولساري ؟

ـ دهش تاناباي ، ـ اذن فالرئيس قدّرك ...

ـ كيف القول . قدّر ـ لم يقدّر . ولكنه أعطاني اياه . أتدري ، أية مصيبة ، ـ بسط تشورو يديه ضاحكا.

ـ لقد كره غولساري الرئيس لسبب ما . مجرد أمر لا يفهم بالعقل . انه يتوحش ، ولا يسمح له بالاقتراب منه . لقد حاولوا بمختلف الوسائل والاشكال ، ولكن لم ينجحوا بحال ! من رابعة المستحيلات . اما انا فارتحل عليه بسهولة ـ انه يجري على نحو رائع ، فقد روّضته أنت جيدا . أتعرف ، ينتابني مرض القلب أحيانا ، فيؤلمني قلبي ، ولكن ما إن أمتطي ظهر الرهوان ، ويسير بي ، حتى يزول الألم ، كما لو أن يدا قد مسحته مسحا . ولقاء هذا فقط أنا مستعد أن أعمل طيلة الحياة منظما حزبيا ، فانه يعالجني ! ـ ضحك تشورو .

اما تاناباي فلم يضحك .

ـ وأنا أيضا لا أحبه . ـ ردد هو .

ـ من ؟ ـ سأل تشورو ، وهو يمسح دموع الضحك من عينيه .

ـ الرئيس .

واكتسى محيا تشورو سيماء الجد :

ـ لماذا لا تحبه ؟

ـ لا أدري . أتصور انه انسان تافه ، أجوف وحقود .

ـ أتعرف ، من الصعب ارضاؤك . لقد عذلتني طيلة حياتي بسبب لين العريكة ، وهذا ايضا ، كما يتبين ، لا تحبّه ... لا أدري . لقد التحقت بالعمل منذ زمن غير بعيد . ولم استطع بعد ان اتفحص وادرك الامور .

وران عليهما الصمت . فقد لاح لتاناباي ان ما أراد قوله لتشورو عن القيد الحديدي القفلي ، وعن الاخصاء ، انما هو الآن ليس في محله ، بل وليس مقنعا . ولكي لا تطول الوقفة في الحديث جعل تاناباي يتحدث عما أبهجه في حديث تشورو ، كنبأ سار :

ـ انه لأمر طيب جدا أنهم أعطوكم سيارة . اذن فللكولخوزات أيضا ابتدأوا تخصيص سيارات . أجل هذا لازم ، وضروري . أتذكر حين استلمنا قبيل الحرب سيارة النقل الاولى . لقد احتشد القوم جميعا آنذاك . كيف لا ـ هذه هي سيارة الكولخوز الخاصة ! وانت نفسك حينذاك خطبت ، واقفا في جوف السيارة : «ها هي ـ أيها الرفاق ، ثمار الاشتراكية !» ـ اما بعدئذ فحتى هي أخذوها الى الجبهة ...

أجل ، كان مثل هذا الوقت ... وقت رائع بهيّ

بهاء شروق الشمس . ماذا كانت تعني سيارة النقل آنذاك بالقياس الى أحداث اخرى ! وعندما رجعوا من بناء قناة تشويسكي ، وجاءوا معهم باول جهاز حاك ، فكيف اشرأب القوم برقابهم وأرهفوا آذانهم محتشدين لسماع الاغنية الجديدة ! كان ذلك في نهاية الصيف . فكان الناس جميعا يجتمعون كل مساء عند اولئك الذين أتوا باجهزة الحاكي ، فكان هؤلاء ينقلونها الى الشارع ، ليسمع الجميع ويشنّفوا آذانهم بسماع أغنية الاسطوانة عن العاملة الطليعية ذات الخمار الاحمر . «ايه ، ايتها العاملة الطليعية ذات الخمار الأحمر ، لو غليت لي شايا ! ..» لقد كان هذا ايضا بالنسبة لهم من ثمار الاشتراكية .

ـ ولكن كيف تكدّسنا نحن بعد الاجتماع في سيارة النقل ـ كيف تكدّسنا فحشونا السيارة لحد الامتلاء ! ـ تذكر تاناباي منتعشا ، ـ لقد وقفت أنا عند القمرة وبيدي علم أحمر ، تماما كما لو في عيد . وارتحلنا في السيارة دون غاية ، الى المحطة ، ومن هناك على طول السكة الحديد ، الى محطة أخرى ، إلى كازاخستان . وشربنا البيرة في المنتزه . وطيلة الطريق الى هناك ، وفي طريق الأياب ، كنا نغني ألوان الاغاني . قليل من تبقى من اولئك الفتيان ـ فاكثرهم قد استشهد في

الحرب ،اجل ... وليلا ، حتى في الليل ، اسمع ،لم افلت من يدي هذا العلم الأحمر . ليلا ، من كان سيراه ؟ ولكني أمسكت به باستمرار ، ولم أفلته من يدي ... كان ذلك علمـــي . وكنت طوال الوقت أغـني وأغـني ، حتى بحّ صوتي ، أتذكر كل ذلك ... ولكن ، بالمناسبـــة ، لماذا نحن الآن لا نغني ياتشورو ؟

ـ نشيــــخ ، ياتانابــاي ، والآن هذا لا يليـــق لحدما ...

ـ لكني لست بصدد هذا ـ نحـن بالطبــع قد غنّينا أغنيتنا . لكن والشبيبة ؟ ها اني أتردد على ابني في القسم الداخلي . أتدري اي انسان سيصبح بعد انهاء التعليم هنــاك ؟ منذ الآن صار يعرف كيف إرضـــاء الرؤساء ومداهنتهم . انت ، يا ابي ـ يقول ـ اجلب كمية اكبر من شراب الكوميس لمدير المدرسة . ولكن علامَ هذا ؟ إنـــه يدرس بشكـــل لا باس به ... ولكن ليتك سمعت كيف يغنون ! أتذكر انني حين اشتغلت عاملا زراعيا في صباي عند يفريموف الروسي في قرية الكسندروفكا ، فكان هذا قد اخذني مرة الى الكنيسة في عيد الفصح . وها هم أولادنا يرتقون المسرح جميعا ، يسبلون الايدي على الجانبين ويغنون بوجوه متحجرة ، تماما كما لو في كنيسة روسية . وكل ما يغنون شيء

واحد متماثل ، على ذات النمط والمنوال ... لا ، ان هذا لا يعجبني . وعلى العموم فكثير من الامور لا أفهمها الآن ، علينا ان نتحدث بهذا الخصوص ... لقد تأخرت عن الحياة ، ولم أعد أفهم كل شيء .

ـ لا بأس ، ياتاناباي . سنتحدث في مرة تالية ، سنجد وقتا ، ـ وجعل تشورو يجمع أوراقه ، ويضعها في محفظته . ـ شيء واحد ـ لا تنفعل بقوة . أنا ، مثلا ، أومن ايمانا قويا انه مهما كانت الاحوال صعبة ، فاننا سننهض ، برغم ذلك ، وسنحيا على ذلك الشكل الذي حلمنا به ... ـ قال هو ، متهيئا للخروج وعند العتبة التفت ، وتذكر : ـ اسمع ، تاناباي ، لقد مررت ذات مرة بالشارع الذي فيه بيتك ـ فلحظت أن بيتك قد خوى تماما . انت لا تلقي نظرة عليه . طوال الوقت في الجبال ، والبيت مهجور ، دون صاحب . كانت جايدار وحدها اثناء الحرب ، ومع ذلك ، ومن دونك ، كانت تعتني به على نحو أفضل مما تفعل الآن معه . هلاّ ألقيت نظرة عليه . آنذاك أخبرني اي شيء يحتاج ، وفي الربيع سنساعدك بشكل من الاشكال في التصليح . لقد جاء ابني سامنصور صيفا بمناسبة العطلة ، ومع ذلك لم يطق صبرا . أخذ محصدة ، وقال انه سيحشّ الحشائش الطفيلية الطويلة في فناء تاناباي . لقد انهار

الجص ، والزجاج ذاته محطم ، مكسور ، وهو يقول ان العصافير تتنقل في الغرف كما في بيدر .

– بخصوص البيت ــ أنت محق . ولسامنصور شكري وامتناني . كيف يدرس هو هناك ؟

– في السنة الثانية ، وهو يدرس ، بشكل جيد ، في رأيي . ها انك قد تكلمت عن حال الشبيبة ، وأنا أحكم قياساً على ولدي ـ لكأن شبيبة اليوم ليست سيئة . فمن أحاديثه وقصصه أفهم أن الشباب في المعهد عمليون حاذقون . وبالطبع ، سيتضح الأمر فيما بعد . ان الشبيبة تتعلم الآن وسوف تفكر في نفسها بشكل جادّ ...

وتوجّه تشورو إلى اسطبل الخيل ، اما تاناباي فقد ارتحل ليعاين بيته . وجال حنايا الفناء كله وطافها . وكانت الحشائش الطفيلية الطويلة المتربة الجافة تخشخش متقصفة تحت الاقدام ، وكانت قد جُزّت صيفا بيد الطالب سامنصور ، ابن تشورو . كان ضميره يخزه أن البيت مهجور ، ينهض بعيدا عن عيني صاحبه ورعايته . وفي بيوت مربّي الماشية الآخرين كان الحال أفضل . فقد تبقى اقارب ، أو ان احدا ما كان يلقى نظرة عليها على نحو من الانحاء . اما بالنسبة له ، فكانت اختاه تعيشان في قريتين اخريين ، كما انه ليس

على وفاق مع الاخ قولباي ، اما جايدار فليس عندها من اقارب وثيقين عموما . وقد نتج بالتالي ان البيت كان مهجورا بالفعل . والآن ها هو من جديد ملزم ان يعمل في تربية الماشيـــة في المراتع وسيصبح راعي غنم . كان تاناباي لا يزال مترددا حتى الآن ولكنه كان يعرف في قرارة نفسه ان تشورو ، مهما كان الامر ، سيقنعه ، وهو لا يستطيع رفض كلامه ، وسيوافق كما هو الحال دائما .

وارتحلوا عند الصباح في السيارة ، من القرية ، متوجهين الى المركز المنطقي . كانت سيارة النقل من طراز «غاز» ، ذات حمولـــة ثلاثـــة اطنـــان ، قد اعجبتهم جميعا . «نرتحل كالقياصرة !» – جعل رعاة الماشية يمزحون . وسرّ تاناباي ايضـــا اذ لم يقع له منذ زمن طويل ان يسافر في سيارة ، منذ ايام الحرب ذاتها . فآنذاك قدّر له السفر في طرق سلوفاكيا والنمسا في سيارات «الستودبيكر» الاميركية . وكانت سيارات النقل تلك قوية ، ذات محاور ثلاثة . «ليتنا ملكنـا امثال هذه – فكر تاناباي . – خصوصا في نقل الحبوب من التلال السفحية . فان مثل هذه السيارات لن تغرز في ايما مكان» . وكان يؤمن بانه ما ان تنته الحرب حتى

تكون هذه عندنا . فبعد الحرب سيكون كل شيء ! . .

لم تنعقد اواصر ايما حديث في جوف سيارة النقل المفتوح ، تحت رحمـــة الريح . كان الجميع صامتين اغلب الوقت حتى ذكّر تاناباي الشبان :

ـ غنّوا ، ايها الفتيان . لماذا تنظرون الينا ، نحن الشيوخ ، غنّوا وسنسمعكم .

وغنّى الشبان . وفي البداية لم يستقم اللحن عندهم ، ولكن فيما بعد جرت ريح الاغاني رخاء . وصار السفر مبهجا . « بدأت رحلتنا تحلو ـ جعل تاناباي يفكر ـ ان هذا افضل بشكل ما . ولكن الاهم من هذا هو انّهم سيجمعوننا ، والحمد لله ، اخيرا . وسيبلغوننا ، على الارجـــح ، كيف وماذا سنعمـــل في الكولخوز . ان المسؤولين يرون ، اصوب ، مما نرى نحن . اننا نعرف ما هو موجود لدينا ، لا اكثر . فما ان يبيّنوا لنا جلية الامر ويلقّنونا ما العمل وكيف ، حتى نضطلع ، على الارجح ، بالامر بشكل جديد واجدى » .

وفي المركز المنطقي كان حشد وضجيـــج . فقد ملأت السيارات ، وعربات النقل الطويلة ، ومن اتوا على صهوات الخيل ، ملأوا الساحة كلها بجانب النادي . ولم ينس صانعو الشـــاي وصانعو الشواء ان يتخذوا لانفسهم اماكنهم في الساحة ايضا . واشعلوا نيرانهم ،

فدخنت هذه ماشاءت ، وكانوا ينادون على المارّة ويرغّبونهم بمأكولاتهم .

وكان تشورو ينتظر .

ـ اسرعوا في الترجّل من السيارة ، وامضوا . خذوا اماكنكم . سنبدأ قريبا . تاناباي ، الى اين انت ؟

ـ ساجيء الآن ، ـ رمى تاناباي بكلمته ، شاقا لنفسه طريقا خلال حشد من خيل الركوب . وكان وهو لا يزال بعد في السيارة قد لاحظ حصانه غولساري ، وها هو الآن جاءه ، وتقدم منه . انه لم يره منذ الربيع ذاته .

كان الرهوان واقفا تحت السرج بين الخيول الاخرى ، متميزا عنها بلونه الاشقر ، الفاتح ، المشرق ، وبكفله القوي الواسع ، وبرأسه ذي الانف المحدودب والعينين القاتمتين .

ـ مرحبا ، غولساري ، مرحبا ! ـ همس اليه تاناباي ، وهو يتسلل اليه . ـ طيب ، كيف حالك هنا؟

وحرف الرهوان كرة عينه ، وعرف صاحبه القديم ، ودقّ بقدميه ، ونخر .

ـ ولكن يبدو عليك ، يا غولساري ، انك بحال لا بأس بها . اسمع ، لقد اتسع صدرك . اذن ، فانت تركض كثيرا . او كان حالك سيئا آنذاك ؟ اعرف ...

حسنـا انك وقعت في ايـد طيبـة . فـاسلـك سلـوكا مسالما ، وسيكون الامر على ما يرام ،ـ قال تاناباي ، متحسسـا في الخرج بقايـا العلف . اذن ، فتشورو لم يهلكه جوعا هنا ،ـ حسنا ، قف انت هنـا ، امـا انـا فسامضي .

وعند مدخل النادي ، وعلى الحائط ، كانت تخفق بلونها الاحمر لافتتان من قطع القماش مكتوب عليها : «ايها الشيوعيون ـ الى الامام !» و «الكومسومول ـ طليعة الشبيبة السوفييتية !» .

كان الناس يمضون حشدا كثيفا ، متدفقين في البهو ، وفي صالة المسرح . وفي المدخل التقى تاناباي بتشورو ، ورئيس الكولخوز آلدانوف .

ـ تاناباي ، فلنمض على حدة جانبا ،ـ ابتدأ الكلام آلدانوف ،ـ لقـد علّمنـا اسمـك ، هـا هي مذكرتـك . عليك ان تخطب . فانت حزبـي ، وانـت أفضل راعي قطيع خيل عندنا .

ـ ولكن عمّ ينبغي ان اخطب ؟

ـ قل ، انك كشيوعي قررت ان تمضي للعمل في القطاع المتأخر في انتاج المزرعة ، وان تمضي الى رعي الاغنام .

ـ وهذا كل شيء ؟

– كيف ، كل شيء ! عليك ان تبين التزاماتك . عليك ان تقول : التزم امام الحزب والشعب بتسلّم ورعاية بمعدل مائة وعشرة حملان من كل مائة نعجة ، وجزّ الصوف بمعدل ثلاثة كيلوغرامات عن كل رأس .

– كيف ساقول هذا ، ان لم اكن قد رأيت قطيع الغنم البتة ؟

– تصور ، ماذا يقول ! أهذه مشكلة – قطيع الغنم ستتسلمه .

ولطّف تشورو الحديث .

– ستختار من الضأن ما يروق لك . لا تقلق بهذا الخصوص . اجل ، وقل ايضا انك ستختار للتدريب تحت رئاستك اثنين مٌن الرعاة الكومسومولِيين الشبان .

– من ؟

وتدافع الناس . وكان تشورو يطالع القوائم .

– اشيم بولوتبيكوف وبكتاي زارليكوف .

– كيف ان لم اكن قد تحدثت معهما بهذا ؟ ثم كيف سينظران الى الامر ؟

– من جديد تطرح ما يخصك انت ! – قال الرئيس مستاء . – كأنك ملزم بالتاكيد ان تتحدث

معهما ؟ او ليس الامر سواء ؟ انهما لن يمضيا الى ايما مكان آخر ، نحن ثد عيناهما لك ، والامر مقرر سلفا .

ـ حسنا ، اذا كان مقررا ، فعلام اجراء الحديث معي ؟ ـ ومضى تاناباي .

ـ قف ، ـ امسك به تشورو ، ـ هل تذكرت كل شيء ؟

ـ حفظت ، حفظت ـ رمى تاناباي بكلماته هذه منفعلا ، متوترا ، وهو في عرض الطريق ...

١٣

انتهى الاجتماع قبيل المساء . وخلت بناية المركز المنطقي ، وافترق الناس مرتحلين ، كل الى جهته : الى الجبال ، الى قطعان الضأن والى قطعان الماشية . الى المزارع ، الى القرى الصغيرة والكبيرة .

وارتحل تاناباي سوية مع الآخرين في سيارة النقل عبر مرتفع الكساندروفكا ، عبر النجد السهبي . وكان الظلام قد خيم في الارجاء ، والريح تعبث على هواها . انه الخريف . وحشر تاناباي نفسه في زاوية في جوف السيارة ، ودفن نفسه في ياقة مرتفعة منشغلا بافكاره . هاقد انتهى الاجتماع اذن . انه هو نفسه لم يقل شيئا

ذكيا ، ولكنه في المقابل استمع الى الآخرين . وينتج من هذا الذي رآه وسمعه انه لا زال ينبغي عمل الكثير ، من اجل ان تمضي الامور حسنا . ان سكرتير اللجنة المنطقية ، هذا الرجل ذا النظارات قد نطق الحق ، حين قال : «لم يُعبِّد لنا الطريق احد ، انما نحن جئنا لنشقها بانفسنا !» .وهكذا فلو فكر مليا لوجد انه منذ الثلاثينيات ذاتها والحال يتأرجح تارة الى اعلى وتارة الى اسفل ، مرة نهوض ومرة انحدار .. . ان قضية الكولخوز ليست قضية بسيطة كما يبدو . وها هو نفسه قد شاب الى نصفه ، وقد اضاع شبابه وافناه ، اي شيء لم يره ! اي شيء لم يعمله ! حتى الحماقات ارتكبها غير مرة ، وكان يلوح له طيلة الوقت ان الامور ستستقيم في هذه اللحظة الوشيكة او تلك التي تتلوها بالذات ، في ايما لحظة ... ولكن الحال بقي ذات الحال ، وظلت الاعباء والنواقص في الكولخوز هي هي ...

ثم ماذا – ان العمل شيء ضروري وسنعمل . كان حقا ما قاله السكرتير : ان الحياة لا تتدحرج اليك من تلقاء نفسها ، كما قد بدا في وقت ما بعد الحرب . فابدا ينبغي دفعها بكتفك ، ما دمت في قيد الحياة ... شيء واحد انها تنقلب كل مرة على زواياها الحادة ، ها قد

صارت الكتفان نسيجا ملؤه الجسأت والاورام . اجل وما قيمة الجسأت – لو كانت الروح راضية مغتبطة بما تفعله انت نفسك ، وبما يفعله الآخرون ، ومن اجل ان تكون سعادة من هذه الاعمال ... حسنا كيف ستكون حاله الآن مع قطيع الضأن ؟ ماذا ستقول جايدار ؟ حتى الى المخزن لم يستطع العروج – ولو لشراء الحلويات لبنتيه . لقد وعدهما . ترى ما اسهل القول : بمعدل مائة وعشرة حملان من كل مائة نعجة ، وكذلك بمعدل ثلاثة كيلوغرامات من الصوف عن كل رأس ! ان هذا يعني ان كل حمل يولد ينبغي ان يعيش ، ولكن كيف يتم هذا اذا كان ضده المطر ، وضده الريح ، وضده البرد ! والصوف ؟ خذ شعرة من الصوف ، انك لا تستطيع ان تميزها بعينيك ، فما ان تنفخ – حتى تطير ! فكيف اذن بالكيلوغرامات منها ؟ ومن اين ؟ آه ، انما كيلوغرامات ذهبية ! ولكن الآخرين لا يتصورون حتى مجرد تصور ، على الارجح ، كيف يستحصل كل هذا ...

اجل ، لقد توّهه تشورو ، ضلله وورّطه ...

« اخطب » – يقول هو – ولكن بمنتهى الايجاز ، عن التزاماتك فقط . ولا تقل شيئا آخر . لا انصحك » . واطاعه تاناباي . ارتقى المنبر ، وتهيّب شيئا ، وقال

ما قيل له ، ولكنه لم يقل شيئا مما تكدس في اعماق روحه . تمتم بالواجبات وهبط . انه لمخجـل حتى ان يتذكر ذلك . اما تشورو فراض ، مسرور . ترى لِمَ صار حذرا بهذا الشكل ؟ أمن المرض يا ترى ، ام لانه لم يعد المسؤول الاساسي في الكولخوز ؟ علام لزمه ان يحذر تاناباي ؟ كلا ، ان شيئا ما فيه قد تزحزح ، فقد تغير على نحو ما . ولعله بسبب هذا تطاول عمره كله رئيسا للكولخوز ، وكان المسؤولون يؤنبونـه ويعذلونه طيلة الوقت . لقد تعلم المكر والدهاء ، فيما يبدو ...

«ولكنك انتظر ، ايها الصديق ، ساذكرك بذلك وقتا ما وجها لوجه ...» طفق تاناباي يفكر ، محكما من الالتحاف بفروتـه . فلقد كان برد وريح ، ولا زالت المسافة بعيدة الى البيت . ماذا ينتظره هناك ؟ ...

ارتحل تشورو على الرهوان . ارتحل لوحده ، ولم يشأ ان ينتظر رفاق السفر في الطريق . كان يريد ان يبلغ البيت على نحو اسرع ، فقد بدأ قلبه يؤلمه . واطلق الحصان ليسير كما يريد ، اما هذا ، وهو الذي قد شبع وقوفـا طوال النهار ، فقد انهدّ الآن يجري رهوا ، واسعا ، راسخا . وكان يطبع حوافره في الطريق

المسائي مثل ماكنة قد شُدّ نابضها . لم يتبقّ عنده ، من كل ما هو قديم ، الا التحرق الشديد للركض . اما الاشياء الاخرى فقد ماتت كلها عنده منذ زمن بعيد . اماتوها فيه لكي لا يعرف سوى السرج والطريق . وكان غولساري يحيا بهذا الركض ويعيش . كان يركض طواعية ، وعن طيب خاطر ، دون كلل ، كما لو انه كان يريد بذلك ان يلحق بما استلبه الناس منه . كان يركض ويركض ولم يدرك ذلك قط .

وكانت حالة تشورو قد تحسنت في الطريق وفي الهواء الطلق . لقد زال الالم في القلب . كان راضيا بالاجتماع على العموم ، وقد اعجبته جدا خطبة سكرتير لجنة المحافظة الذي كان قد سمع عنه الكثير ، ولم يره الا الآن للمرة الاولى . ومع ذلك فالمنظم الحزبي لم يكن راضيا تماما . كان منزعجا ، متألما . ذلك أنه أراد لتاناباي الخير . فلقد شبع تجربة وخبرة في كل هذه المشاورات ، والاجتماعات ، والجلسات ، وعرف عجرها وبجرها ، فكان يعرف ما وأين يلزم القول ، وما وأين لا يلزم . لقد حنكه الدهر . أما تاناباي فمع انه أطاعه ، الا انه لم يُرد فهم ذلك . فبعد الاجتماع لم يتفوّه معه ولا بكلمة . لقد جلس في السيارة ، وأشاح بوجهه عنه . كان مستاء . ايه ، تاناباي ، تاناباي !

إنما أنت غشيم ، ولسبب ما لم تفد شيئا من حياتــك . انت لا تعرف شيئا ولا تلاحظ شيئا . كيفما كنت في صباك ، فكذلك أنت الآن ، لقد بقيت مـن كنته دونما تغيير . طيلة الوقت كنت تريد ان تقرر كل شيء رأسا وبضربة واحدة . ولكن الزمن لم يعد هو ذلك الزمن . فالشيء الأهم الآن إنمـــا هو كيف القول ، وبحضور من وكذلك التحدث بشكل يتّسق فيه الحديث مع روح العصر ، مثلما هو الامر عند الجميع ، دون ان تتميـز عنهم ، ودون ان تتلجلج ، وان تكون الكلمة ناعمـــة سلسة . آنذاك يكون كل شيء في محله . ولكن لو أُطلقت ياتاناباي ، كما تشتهي روحــك ، لارتكبـــت ، اذن ، حماقة ، ولأفسدت كل شيء بحيث تتعين علي المسؤولية عن ذلك . «كيف تربي أعضاء منظمتـــك ؟ أي ضبط هذا ؟ ما هذا الاستهتـــار ؟» ايه تانابـــاي ، تاناباي .

١٤

ما برحت ذات الليلة ، التي حلت وهما في الطريق، قائمة ، ومجلسها معقودا . الانسان الهرم والحصان الهرم . وشعلـــــة تضطرم في طرف الوادي الضيـــق . وينهض تاناباي وليس لاول مرة ، فيسوي من وضع الفروة الملقـــاة على غولساري المحتضر . ومن جديـد

كان يجلس بجنب رأسه . انه يراجع في خاطره فصول حياته كلها . انها الاعوام ، الاعوام ، الاعوام ، تمر مثل ركض الرهوان ... ولكن ماذا كان آنذاك ، في تلك السنة ، في ذلك الخريف المتأخر ، أو في ذلك الشتاء الباكر ، حين مضى راعيا للغنم مع القطيع ؟ ..

١٥

كان كلّ تشرين الاول في الجبال جافاً وذهبيا . يومان فقط ، في البداية ، هطل المطر ، وكان برد ، وخيّم ضباب . ولكن ، فيما بعد ، صحت السماء في الليل ، إذ تبدّد الضباب وتبعثر ، وحين خرج تاناباي في الصباح من خيمته ، كاد ان يعود القهقرى ـ فقد كانت الجبال تخطو إليه متعمّمة بثلج جديد على قممها . كم ناسبها الثلج ! وكم كانت تبدو رائعة فيه ! كانت تقف في زرقة السموات في طهارتها التي لا تشوبها شائبة ، متميّزة في النور وفي الظل ، لكأن الله قد خلقها توا . وهناك حيث كان الثلج يرقد ، كانت تبتدىء زرقة لا نهاية لها ولا حدّ . أما في اعماقها البهيمة ، في أقصى أطراف لازوردها ، فكان أفق الكون الشفيف . فاقشعرّ جسم تاناباي من فيض النور

والطراوة ، وانتابتـه اللوعـة والأسى الخفيف . ومن جديد تذكّر هو تلك المرأة التي كان يرتحل اليها على ظهر غولساري . ليت الرهوان كان في يده الآن ، اذن لامتطـاه ، وهو يهتف من الغبطـة والسرور ولدلف اليهـا وخفّ ، مثلمـا خفّ هذا الثلـج الأبيض في الصباح ...

بيد انـه كان يعرف ان هذا محض حلـم ليس الا ... ثم ماذا ، إن نصف الحياة يمضي في الاحلام ، ولعلّ من هنا حلاوتها . ولربما انها بسبب هذا غالية وعزيزة إذ ليس كل شيء مما تحلم به يتحقق . نظر هو إلى الجبال وأجـال طرفه في السمـاء وفكّر بـانه هيهات ان يكون كـل الناس سعداء بنفس القدر من السعادة . فعند كلٍ قدره ومصيره . وفي هذا المصير أفراحه وأتراحه معـا ، مثل النور والظل على جبـل واحـد في وقت واحـد . وبهذا تكون الحيـاة حافلـة ومليئة . «أما هي فلعلها لم تعد تنتظر . وربما تذكرته ، وهي تطالع ببصرها الثلج الطرىء الجديـد على رؤوس القمم في الجبال ...»

يشيخ الانسـان ويكبر ، لكن روحه لا تريد ان تخور وتضعف ، فبين الحين والآخر تخفق وتعلن عن نفسها .

واسرج تاناباي حصانه وافتتح حظيرة الغنم ، وهتف في زوجته ، في المخيّم :

– جايدار ، سأسوق الاغنام ، وسارجع ، ريثما تنهين عملك .

كان قطيع الاغنام يخطو خطوات سريعة قصيرة ، مستعجلا ، وتدفّق تيّار الظهور والرؤوس ، وهو يصعد على المنحدر . كان الرعاة المجاورون قد سرّحوا أغنامهم أيضا . وهنا وهناك في الحوادير ، والفجاج مضت قطعان الاغنام تقضم غطاء الارض الخالد – العشب . كانت تجول ، اكداسا بيضاء – رمادية ، وسط المرتع المختلف الاعشاب ، ذي اللونين الأمغر والبني ، وهو الواقع على سفوح الجبال في الخريف .

وحتى الآن كان كل شيء يتواجد في شروط طيبة . فقد وقع لتاناباي قطيع غنم غير رديء من النعاج في الولادة الثانية والثالثة . خمسمائة رأس . خمسمائة همّ . اما بعد الولادة فستكون اكثر بمرتين ونيف . ولكن حتى الولادة وحتى موسم تكاثر الاغنام ، كان لا يزال ثمة وقت طويل .

ان الحال مع الاغنام أهدأ بالطبع مما مع قطيع الخيول ، لكن تاناباي لم يتعوّد ذلك في الحال . ولم يكن الحال كذلك مع الخيول ، كان مغايرا تماما ! لكن

تربية الخيول أضاعت ، كما يقال ، فائدتها . لقد حلّت محلها السيارات . وبالتالي تكون الخيول غير مربحة . والآن فالشيء الأساسي – هو تربية الأغنام ، والصوف ، واللحم ، و فروة الضأن . وكان هذا التنبّه للحساب والتبصّر به ، يدفع تاناباي الى القرف ويجرح إحساسه ، بالرغم من انه كان يفهم ان في ذلك حقيقته الخاصة .

ومع القطيع الجيد من الخيول بحصانه الطيب يمكنك احيانا الغياب عنه لوقت ما ، او لنصف نهار ، وقد يمكن أن يكون اكثر ، وذلك للمضي في اشغالك الخاصة . ولكن مع الاغنام ، لا يمكنك ان تفارق القطيع قط . ففي النهار عليك ان تتبعه في كل مكان ، اما في الليل فعليك ان تحرسه . وفيما عدا راعي الغنم ، فانه ينبغي ان يكون معه شخص آخر بصفة مساعد راع ، ولكن لم يعطوه هذا المساعد . وهكذا وجد تاناباي نفسه بالتالي أمام عمل في منتهى الوفرة ، دون تعويض ودون راحة . وسُجلت جايدار كحارس ليلي – فكانت لا تستطيع الا بعض الاحيان في النهار ان تلتقي مع بنتيها نظرة على الاغنام ، وحتى منتصف الليل كانت تسير بالبندقية قرب الحظيرة اما بعدئذ فكان يلزمه ان يحرس بنفسه . اما ابراهيم وقد غدا الآن

متولي ّ كل شؤون تربية الماشيـــة في الكولخوز ، فكان يجد لكل شيء أسبابه ومعاذيره .

ــ طيب ، أين أجـــد لكـــم مساعـــد الراعي ، يا تاناباي ! ــ قال هو بمظهر آسف حزين ، ــ أنت انسان عاقـل . كـل الشبيبـة تدرس . أمـا أولئك الذين لا يدرسون فهم لا يرغبون حتى بسماع اسم الاغنام ، وهم يمضون الى المدينة ، الى السكك الحديدية ، وحتى الى المناجم في مكان ما . ما العمل ، لا ادري . عندكم قطيع أغنام واحد ومع ذلك تئنون ، وأنا ؟ عندي كل تربية الماشية معلّقة في رقبتي . قد أعرض للمحكمة . عبثا ، عبثا وافقت على هذا العمل . حاول ان تعمل مع امثال بكتـاي الذي يتدرب تحت رئاستك . أتدري ماذا يقول ، «أنت وفـّر لي راديو ، سينما ، جرائد ، مسكنا جديدا ، و كذلك أن تزورنا سيارة المخزن كل اسبوع . فان لم يكن هذا ــ فسأمضي إلى حيـــث يمتدّ بصري» . ليتك تحدثت معه فقط ، تاناباي !

ولم يكذب آبراهيم . انه نفسه ما كان مسرورا انه شغل منصبـــا كبيرا . وبخصوص بكتاي هذا ، كان حقيقة أيضـا . وكان تاناباي يخطف الوقت أحيانـا ، ليرتحل الى كومسومولييـــه . كان أشيم بولوتبيكوف شابا دمث الاخلاق ، ولو انه ليس حركا ونشيطا .

اما بكتاي فكان وسيمـا ، شاطرا ، غير ان في عينيه السوداوين القلقتين كان الحقد ينزّ نزّا . فكان يستقبل تاناباي بوجه متجهم ، ويقول له :

ـ أنت يا تاناباي ، لا تبذل اكثر من طاقتك . لأفضل لك ان تكون مع أطفالك ، والا فان المراقبين يكفون من دونك .

ـ ولكن ماذا ، أستكون حالك أسوأ ؟

ـ أسوأ أوليس أسوأ ـ لا يهم . ولكني لا أحبّ أناسا أمثالك . لقد بذلتم جهودا عظيمة . كلّ الوقت : فليحيا ، فليحيا ! أما الحياة الانسانية الحقة فلا أنت نفسك رأيتها ، ولا جعلتنا نَراها لنعيش كما البشر .

ـ كفى ، كفى ، لا داعي للمزيد من هذا الكلام ، ايها الفتى ، ـ كان تاناباي يتكلم من بين اسنانه ، ضابطا بالكاد نفســـــه . ـ ولا تشر باصبعك إليّ . هذا ليس شغلك . أجل اننا الذين بذلنا اعظم الجهود ، لا انت . ولا نتأسف . عملنا من اجلكم . ولو لم نفعل كذلــك لرأيت كيف كنت ستتحدث الآن . فليس فقط أنك ما كنت لترى سينما أو جرائد وإنما حتى لما عرفت اسمك . وما كان عندك اسم الا اسم من احرف ثلاثة ـ كول ـ يعني عبد .

لم يكن تانابـاي يحب بكتاي هذا ، ولو انه في اعماق نفسه كان يحترمه لصراحته هذه . وكانت تخفت

فيه قوة طبعه ، وكان ذلك مؤلما ، مريرا على تاناباي ان يرى ان اعوجاج هذا الشاب لن يقوده الى ما ينبغي ... وبعدئذ ، حين افترق طريقاهما ، والتقيا صدفة في المدينة ، لم يقل تاناباي له شيئا ، بل لم يشأ ان يسمعه .

في ذلك الشتاء الباكر ...

حل الشتاء بسرعة طائرا على ناقته البيضاء الجموح ، وجعل يضايق الرعاة ويضنيهم لقاء نسيانهم إياه .

كان تشرين الاول جافا وذهبيا . اما في تشرين الثاني فقد دوى الشتاء مرة واحدة ، معلنا عن نفسه ، دون سابق انذار .

كان تاناباي قد ساق الغنم في المساء ، وأطلقها الى الحظيرة ، وكان كل شيء يبدو كأنه على ما يرام . ولكن في منتصف الليل أيقظته زوجته :

ــ استيقظ ، يا تاناباي ، لقد تجمّدت تماما . الثلج يتساقط .

كانت يداها باردتين ، وكانت كلها تفوح بالثلج الندي . وكانت البندقية ايضا مبلّلة وباردة .

وفي الفناء كان ليل ضارب لونه إلى البياض . كان الثلج يهطل كثيفا . وكانت النعاج راقدة في قلق ، وكانت تهزّ رؤوسها نافضة الثلج لعدم تعوّدها عليه ، وكانت تسعل ، اما الثلج فكان ما برح ينصبّ صببا . «على مهلك ، سوف يكون أمرنا أسوأ معكم ــ فكّر تاناباي ، وقد لف نفسه بالفروة بأحكام ، ــ لقد جئتنا ، أيها الشتاء ، في وقت مبكر ــ جد مبكر ، وتماما قبل الأوان . فعلامَ هذا ، ألخير أم لشرّ ؟ لعلك عند النهاية ستتقهقر قليلا ؟ فقط لو رحلت عندما ستكون ولادة النعاجِ . هذا كل ما نرجوه . اما الآن فافعل ما يحلو لك . ان لك الحق في ذلك وما من داعٍ يدعوك للتشكّك في حقك هذا ...»

سكت الشتاء الوليد ، وكان يجهد صامتا وباستعجال في الظلام ، لكي يبدأ الجميع عند الصبح بالتأوّه ، والأنين ، والسعي جيئة وذهوبا .

وبردت الجبال في الليل باقية على حالها كتلا ضخمة قاتمة . فالشتاء لا يهمّها ولا ضرر منه عليها . كل ما في الأمر : دع الرعاة وقطعانهم يركضون . اما الجبال فكما وقفت ، فكذلك ستكون .

بدأ ذلك الشتاء المشهود ، ولكن احدا ما لم يكن يعرف ماذا يكنّه الشتاء للناس .

رقد الثلج ، وخلال عدة أيام تكدّست كميّات أخرى منه ، ثم كميّات أخرى وأخرى ، وهكذا أرغم هو الرعاة على مغادرة المراتع الخريفية . وكانت القطعان قد جعلت تتشتّت ، وتختفي في الفجاج ، وفي المواقع الهادئة ، المحميّة من الريح ، وفي الاماكن القليلة الثلج . وبدأ فنّ الرعاة الأبدي مفعوله ـ ايجاد العلف للقطعان في تلك الاماكن التي لو رآها واحد ممن لا يمتّون الى مهنة الرعي بصلة ، لقال ، وهو يهزّ بيده : كلا ، هنا لا شيء سوى الثلج . ولكنهم لمثل هذا ولهذا إنما كانوا رعاة ... فقد ـ يزور أحد المسؤولين أحيانا ويظلّ يعاين وينظر ، ويناقش ، ويتكرّم بوفرة من الوعود ، وسرعان ما يفرّ من الجبال . اما الراعي فيظل ثانية لوحده ، وجها لوجه ، مع الشتاء .

كان تاناباي يودّ طوال الوقت ، أن ينطلق الى الكولخوز ، ليستعلم كيف يفكرون هناك بخصوص اجراءات ولادة الاغنام ، وهل أعدّ كل شيء ، وهل وُفّر كل ما هو ضروري . ولكن أنّى له ذلك ، حيث لا مجال حتى للتنفّس . وارتحلت جايدار ذات يوم الى الابن ، الى القسم الداخلي ، وتعطّلت هناك غير طويل ، حيث كانت تعرف أنه من دونها يضحى الأمر

في غاية الصعوبة ، فتاناباي كان يرعى آنذاك قطيع اغنامه سوية مع بنتيه . فكان يُجلس الصغيرة أمامه في السرج لافّا اياها بالفروة ، حيث الدفء والراحة لها ، اما الكبرى فكانَت تتجمّد ، جالسة خلفه . وحتى النار في الموقد كانت تحترق على نحو آخر ، دون إشعار بالدفء .

وحين رجعت الام ، في اليوم التالي ، فماذا كان هناك ! كانت طفلتاها قد ارتمتا على رقبتها ، فلم تستطع الانفكاك منهما الا بالقوة . اوه ، كلا ، ان الأب ، بالطبع هو الأب ، ولكنه غيره من دون الام .

وهكذا تصرّم الوقت . وتكشّف الشتاء متقلّبا ، تارة يعتصر الناس ، وتارة يريحهم من قبضته ، ومرتين كان اعصاران ، ثم عمّ هدوء ، وماع الثلج . كان هذا بالذات هو ما يُقلق تاناباي . سيكون الأمر على ما يرام إن وافقت الولادة في جوّ دافئ ، اما اذا لم يكن كذلك ، فما العمل آنذاك ؟

والى ذلك فان بطون النعاج كانت تتضخّم وتتثاقل باستمرار . وعند بعض منها ، ممن كان لديها جنين كبير أو توأمان ، كانت البطون قد بدأت تتهدّل . كانت الامهات الحبلى تخطو بصعوبة ، وبحذر وقد باتت أجسامها ضعيفة . وما عتمت الأعمدة

الفقرية أن جعلت تنتأ . وليس هنا ما يبعث على الحيرة والعجب ــ ان الجنين كان ينمو في الاحشـــاء ، وقد تشرب بعصير الام ، وهنا فان على كل ام التقاط كل عشبة من تحت الثلج . وعلى الراعي أن يُطعم الأمهات عند الصباح وعنـد المســاء ، وان يجلــب العلف الى الجبال ، أما عنابر الكولخوز فكانت خاوية الوفاض تماما . فخلا البذور والهرطمان للخيول العاملة ، لم يكن ثمة شيء .

وكان تاناباي ، وهو يسوق قطيـع الغنـم من الزريبـة ، كان يتفحّص الامهات ، ويجسّ بطونهـا وضروعهـا . وتصوّر زاعمـا لنفسه أنه إذا مرّ كـل شيء على مـا يرام ، فان واجبـه بخصوص الأحمـال سيُنَفَّذ ، امـا التزامه بخصوص الصوف فلعله لن يتحقّق . ففي الشتــاء كان الصوف قد نمـا بشكـل سيء ، بل عند بعض من النعاج كان يخفّ ويتضاءل ، بل وصار يقع . ومن جديـد تعين إطعامهـا على نحو افضل . فكان تاناباي يتجهّم ، ويحنق ، لكنـــه لم يستطع عمل شيء ، وجعل يشتم نفسه باقذع الشتائم لكونه أطاع تشورو ، ولكونه وعد والتزم ، ولكونه خطب من على المنبر . انا ، كما يقال ، طليعي لا يُشق له غبار ، وامام الحزب والوطن أعطي كلمة ! ليتني

ما قلت هذا على الأقل ! وعلامَ الحزب والوطن هنا ! إن هذا أمر من أمور المزرعة الاعتيادية . كلا ، كلا ... إن هذا مقرّر ، مفروض . ولكن لماذا نحن في كل خطوة ، لزم ذلك أم لم يلزم ، ننطلق بمثل هذه الكلمات ؟

حسنا ، ثم ماذا ، انا نفسي مذنب في ذلك ، فاني لم افكر مليّاً في الأمر . صرت اعيش وفقا لما يمليه الآخرون . ولكن بالنسبة اليهم ليس ثمة أي شيء رهيب ، انهم سيتنصّلون من ذلك ، فقط إنه يُشفق على تشورو . انه لا يجد توفيقا البتة . يوما معافى ، ويومين مريض . طيلة حياته يركض ويسعى حثيثا مشغولا بشيء ما ، فهو يُقنع هذا ، ويشجّع ذلك ، ولكن أيّ جدوى في ذلك ؟ لقد صار حذرا ، ينتقي كلماته انتقاء . حسنا ، وما دام هو مريضا ، فليغادر هذا العمل للراحة ...

وسار الشتاء مسراه الاعتيادي ، تارة يطمّن ، وتارة يُقلق رعاة الاغنام . وقد هلكت في قطيع تاناباي نعجتان حبليان من الانهاك ، فقد كانتا ضعيفتين . وعند الراعيين الشابين ، اللذين ساعدهما تاناباي نفقت ايضا عدة نعاج . ولكن بالطبع لا يمكن من دون هذا . فان فقد عشر نعاج في الشتاء أمر اعتيادي .

إنما الشيء الأساسي كان لا يزال أمام ، عند الاقتراب من الربيع .

وفجأة بدأ الجو يدفأ . واحتقنت ضروع النعاج بالحليب في الحال . تنظر ، فتراهنّ نحيفات ، بالكاد يجرجرن بطونهن ، اما الحلمات فتتورد ، وتنتفخ لا بالأيام ، وانما بالساعات . ولكن من أين كل هذا ؟ من أين تتأتى هذه القوى ! وانتشرت اشاعة تقول انه قد ولدت عدة امهات عند أحدهم . إذن ، كان هناك اهمال عند الاسفاد . وكان هذا هو الانذار الأول . فبعد اسبوع او اسبوعين ستنثال الحملان مثل الكمثرى . ما عليك الا ان تفلح في استقبالها . وسيبدأ آنذاك موسم قطاف الثمار عند رعاة الاغنام ، انه موسم حصادهم الكبير ! فلقاء كل حمل سيرتجف الراعي وسيلعن ذلك اليوم الذي التحق فيه برعي القطيع ، كما لن يكون لسروره حدّ ان احتفظ بهذه المواليد ، وان نهضت هذه الحملان على أقدامها معافاة فيما بعد ، وأبرزت ذيولها للشتاء .

آه ، لو تمّ الأمر كذلك ، لو حصل كذلك ! كيلا يخفى عينيه ، فيما بعد ، من الناس ...

وبعث الكولخوز بمساعدات الرعاة وهن نساء متقدمات في السن ، او ليس لديهن أطفال ، وقد أفلح

الكولخوز في إنتقائهن من القرية لارسالهن على وجه السرعة للمساعدة وقت توالد الاغنام . وأرسلت امرأتان من هؤلاء الى تاناباي ليتدبّر معهن أمر قطيعه اثناء الولادة . وجاءت هاتان مع أفرشتهما ، والخيمة، والعفش والحاجيات الضرورية . وعمّت البهجة والانشراح . كان يلزم على الأقل سبع من هاته المساعدات . وكان ابراهيم قد أكّد انهن سيجئن حينما ترتحل قطعان الاغنام الى نقطة الولادة ، في وادي الاشجار الخمس ، اما الآن ، فقد زعم ان هاتين الامرأتين تكفيان .

وتحركت القطعان ، وجعلت تنحدر أسفل ، الى التلال السفحيّة ، الى نقاط الولادة . والتمس تاناباي أشيم بولوتبيكوف ، من أجل ان يساعد هاتين الامرأتين في بلوغ الاماكن المعينّة والاستقرار فيها ، ريثما يسوق هو القطيع . ورحلّهما منذ الصباح ، قافلة كاملة ، اما هو نفسه فقد جمع النعاج ووجهها في مسيرها ، وجعل يسيربها ويقتادها ، رويدا رويدا ، كيلا يصعب الامر على الأمهات وهي في الشهر الاخير من شهور الحمل . وسيلزمه ، فيما بعد ، ان يجتاز ذات الطريق الى وادي الاشجار الخمس مرتين ، في عون الشابين اللذين تحت رعايته .

وببطء تحركت النعاج وتقدمت في طريقها وكان من غير الممكن استعجالها . حتى الكلب ضجر فجعل يعدو ويجوس جانبي الطريق .

كانت الشمس تقترب من الافول ولكن كان ثمة بعض الدفء . وكلما ازداد هبوط القطيع الى التلال السفحية كلما تعاظم الدفء . وكانت الخضرة قد شقّت طريقها الى النور تحت أشعة الشمس المحرقة .

وحصل تأخر غير كبير في الطريق ، فقد ولدت النعجة الأولى . ما كان ينبغي أن يقع هذا ، حزن تاناباي ، وهو ينفخ في أذني ومنخري الوليد الجديد . فقد كان ميعاد الولادة سيحلّ بعد أسبوع لا أقل . أما الآن فقد سبق السيّف العدل ، وهاك البلوى خذها !

لعلّ ولادات اخرى ستقع في الطريق ؟ وتفحّص الاخريات ـ كلا ، كأن الأمر غير وارد . فهدأ ، بل انه سر فيما بعد . تلك هي المسألة ، سوف تسرّ بنتاه أيما سرور بالوليد الأول . ان الوليد الأول لطيف دائما . وقد ظهر هذا الحمل جميلا ، رائعا . كان أبيض برموش سوداء وأظلاف سود . وكان في القطيع عدة نعاج من ذوات الصوف شبه الغليظ ، وها واحدة منهن قد وضعت طفلها . والعادة ان الحملان من أمثال هذه النعاج تولد قوية ، مكسوّة بالصوف ، وليس

مثل تلك التي تولد من النعاج ذوات الصوف الناعم ، فانها تلد حُملانا عارية تقريبا .

- حسنا ، ما دمت قد استعجلت ولادتك ، اذن فلتطالع عينك النور والعالم ، - ردّد تاناباي ، - واجلب لنا السعادة ! اجلب لنا أمثالك ، بذلك القدر الذي لا يكون معه لقدم مكان لتطأه ، وكي يكون من أصواتكم في الأذن دويّ ، ومن أجل أن تعيشوا كلكم كحمل واحد ! - ورفع هو الحمل فوق رأسه - انظر ، يا حامي الغنم ، ها هو الأول ، ساعدنا !

كانت الجبال تقف حوله ، وكانت صامتة .

وأخفى تاناباي الحمل تحت فروته ، ومضى يسوق النعاج . وركضت أمه في اثره قلقة ، تثغو .

- فلنمض ، هلمّ بنا ! - قال لها تاناباي ، - ها هو عندي ، ولن يمضي الى أيما مكان .

وجفّ الحمل تحت الفروة ، وتدفّأ .

ووصل تاناباي بالقطيع الى القاعدة قبيل المساء.

كان الجميع في المكان وكان الدخان يتصاعد من الخيمة . وكانت المساعدتان منشغلتين بجانب خيمتهما . واذن فقد دبّرتا أمورهما بعد الانتقال . ولم يكن أشيم موجودا آنذاك . ولكن ها هو قد أتى ببعير للحمل ، كي يترحّل عليه هو نفسه غدا . واذن فكل شيء مضبوط .

لكن ما رآه تاناباي ، فيما بعد ، قد هزّه هزّا ، مثل هزيم الرعد في رابعة النهار . لم يكن يتوقّع شيئا طيبا ، ولكنه لم ينتظر قطعا أن تكون حظيرة ولادة الاغنام الموعودة قد انتصبت بسقف متأكلّ منهار ، بثقوب في الجدران ، من دون نوافذ ، من دون ابواب ، والريح تهبّ فيها طولا وعرضا . بل انه لم يكن هناك ثلج حواليه في الجوار ، أما في هذه الحظيرة فقد كان يرقد كثبانا .

كانت الزريبة المبتناة في وقت من الاوقات ، من الأحجار ، كانت ترقد في الانقاض ايضا . وقد تكدر تاناباي لدرجة انه كفّ عن النظر كيف كانت بنتاه مسروَرتين بالحمل . فدسّه في أيديهما ، ومضى يتفحّص كل ما حواليه . وحيثما امتدّ نظره ـ كانت ثمة صنوف من الفوضى وسوء التدبير من نوع لم تعهده الدنيا من قبل . فمنذ الحرب ذاتها ، كان كل شيء هنا مهجورا ... فقد حلّ هنا أحدهم مع قطعان الضأن ودبر امر ولادة النعاج بشكل ما ومضى ، تاركا كل شيء للريح والامطار . وعلى سقف العنبر كان يتراءى طرف مائل لدريس متعفّن ، كما كانت ترقد اكوام القشّ المبعثر ـ وكان هذا هو كل العلف ، بل وكل المفارش لحملان وأمهات القطيع كله ، هذا إذا لم

تحسب كيسين غير ممتلئين من طحين الشعير وصندوق ملح ، وكان كل هذا مرميا في أحد الأركان . وهناك في ذات الركن كانت قد بُعثرت بضعة فوانيس مكسورة الزجاج ، وصفيحة صدئة بالكيروسين ، ومجرفتان ومذراة محطومة . كم كان بودّ تاناباي أن يريق الكيروسين على كل هذا ويحرقه حرقا الى سقر ، وان يمضي بعد ذلك إلى حيث تقوده عيناه ...

كان تاناباي يدور متعثّرا بالأكوام المتجلّدة مما تخلّف من العام الماضي من الثلج والدّمان ، غير عارف ما كان ينبغي ان يقول . لم يجد الكلمات المناسبة . شيء واحد كان يعيده ، كالممسوس : «لكن كيف يمكن هذا ؟ ... لكن كيف يمكن هذا ؟ ... لكن كيف يمكن هذا ؟ ...»

ثم وثب من الحظيرة المسقفةُ وانطلق يُسرج حصانه . وكانت يداه ترتجفان ، حين أسرج الحصان . سينطلق الآن الى هناك ، فيقيم الدنيا ويقعدها وسط هذا الليل ، ويفعلنّ ما لم يعرفه هو نفسه ! وسيمسك بتلابيب ابراهيم وتلابيب هذا الرئيس آلدانوف وتشورو : دعهم لا ينتظروا رحمةً منه ولا شفقة ! ما داموا يقفون منه هذا الموقف ــ اذن فدعهم لا يترقّبوا خيرا منه ! كفى ! ولتكن النهاية !.

– ولكن على مهلك ! –وفقت جايدار في ان تمسك بأعنة الحصان ، – الى أين ؟ لا تتجرأ ! ترجّل ، أطعني !

ولكن انىّ لها أن توقف تاناباي !

– خلّي سبيلي ! أطلقي الأعنة ! – صار يصرخ ، جاذبا الأعنة ، مصطدما بالزوجة ، وسائطا الحصان ، – خلّي سبيلي ، أقول لك ، سأقتلهم ، سأقتلهم ، سأقتل !

– لن اتركك ! أتريد ان تقتل احدا ؟ اقتلني اذن !

وهنا خفت المساعدتان عونا لجايدار ، وركضت بنتاه ، جعلتا تولولان ، واجهشتا بالبكاء :

– يا ابانا ، يا ابانا ! لا ترحل ! لا داعي !

وهدأ تاناباي قليلا ، لكنه كان لا يزال يتوثب للرحيل .

– لا تمسكيني ولا توقفيني ، أولا ترين ، ماذا يجري هنا ؟ أفلا ترين – ها هي الأمهات مع الحملان . إلى أين نمضي بهن في الغداة ، أين المأوى ؟ أين العلف ؟ سيمتن جميعا . من سيجيب عن ذلك ؟ كفيّ وخلّي سبيلي !

– على مهلك ، يا هذا ، على رسلك ! طيب ،

سترتحل وستصرخ ما شئت ، وستشبع خصاما وشجارا . ولكن ما جدوى هذا ؟ ما داموا حتى الآن لم يعملوا شيئا ، اذن ، ليس لديهم الامكانية لذلك . لو كان ثمة شيء أفكان الكولخوز يبخل ببناء حظيرة ولادة جديدة مسقفة ؟

— لكن السقف — أفلم يستطيعوا اصلاحه ؟ وأين الأبواب ؟ وأين النوافذ ؟ كل شيء هذا مهدّم ، والثلج مكدّس في الحظيرة ، والدمان لم يُحمل من هنا عشرا من السنين ! لكن اسمعي : لكم من الوقت سيكفي هذا العلف المتعفّن ؟ أو يعطى مثل هذا العلف للحملان ؟ ومن أين سنأخذ المفارش ؟ دع الحملان تنفق في الأوحال والقاذورات ، نعم ؟ أو هذا ما تريدين ؟ وليّ عني !

— كفى ، يا تاناباي ، اهدأ ! هل أنت أفضل الكل ؟ شأننا شأن الجميع ويحسبونك بعد ذلك رجلا ! — لامته الزوجة . — لافضل ان تفكّر ماذا يمكن عمله ، ما دام الوقت ليس متأخرا بعد . ابصق عليهم . اننا نحن الذين سنجيب ونحن من يتوجّب عليه العمل . ها اني لاحظت في الطريق الى الوادي شجيرات عليق كثيفة ، صحيح انه شائك ، ولكن سنقطعه لتغطية السقف ، وسنرمي بالدمان

فوقه . اما للمفارش فسيلزمنا ان نحش حشائش جافة . وهكذا على نحو من الانحاء سندبر أمرنا ، ان لم يوقع بنا الجو ...

وهنا انضمت المساعدتان فجعلتا تهدئان تاناباي فترجل هذا من السرج ، وبصق ، ومضى الى الخيمة . وقعد هناك مطرقا برأسه ، منقبضا ، مثلما بعد المرض الشديد .

وهدأ الجميع في البيت . تهيبوا الحديث وخافوه . اما جايدار فقد رفعت ابريق الشاي من الفحمات الدمانية ، وغلت شايا مركزا ، ثم أتت بماء في الجرة وناولته لزوجها ليغسل يديه . وبسطت فوطة مائدة نظيفة ، وأخرجت حلوى من مكان ما ، ووضعت شرحات من السمن المسلي في اناء . ودعت المساعدتين ، وجلس الجميع يحتسون الشاي . آه ، منكن أنتن أيتها النساء ! لقد جلسن يشربن الشاي من الاكواب ، ويتجاذبن أطراف مختلف الاحاديث ، لكأنهن قاعدات في ضيافة أحدهم . كان تاناباي صامتا ، اما بعد الشاي فقد خرج وشرع ينضد الأحجار المنهارة في سياج الزريبة . ان الأعمال هنا على غاية الوفرة . ولكن شيئا ما على الأقل كان ينبغي عمله ، كي يستاقوا

النعاج في الليل . وخرجت النساء وانخرطن أيضا في العمل ، يساعدن تاناباي . وحتى البنتان الصغيرتان وجدتا من القوة ما يكفي لمناولة الأحجار .

– امضين الى البيت ، – قال لهما الأب .

كان هذا الأمر مخجلا له . فكان ينقل الاحجار ويمضي بها ، دون ان يرفع عينيه . لقد قال تشورو الحقيقة : لو لم تكن جايدار ، لكان تاناباي قد هلك جرّاء تهوّره ...

١٦

ارتحل تاناباي – في اليوم التالي ، ليعاون في ترحّل الشابين اللذين كانا يشتغلان تحت رعايته ، أما فيما بعد فكان يعمل طوال الاسبوع بمواظبة ودون فتور . بل انه لم يتذكر متى عمل مثل ذلك ، ربما في الجبهة حين كانوا يبنون تحصينات الدفاع أياما بكاملها ليلَ نهار . لكنه كان هناك مع الفوج كله ، مع الفرقة ، مع الجيش ، أما هنا فهو وحده ولا يعاونه الا شخصان اثنان : زوجته واحدى المساعدتين ، ذلك ان الاخرى ترعى الاغنام على مقربة من هنا .

وكان أصعب ما ابتلى به هو ماعاناه بخصوص تنظيف الحظيرة المسقفة من هذا الدمان ، وكذلك بخصوص احتطاب شجيرات العُلّيق . فقد تبيّن أن هذه الشجيرات قد نمت كثيفة وافرة الأشواك . وقد أهلك تاناباي جزمتيه الطويلتين من اللبّاد وأجهز على معطفه العسكري من أيام الجندية . فكان هذا يتعلّق على كتفيه مزقا ، فقد تمزّق إربا إربا . وربطوا العلّيق المحتطب بالحبال وسحبوه جرّا ، ذلك انه لا يمكن تحميله على الخيل ، كما لا يستطيع الانسان ان يحمله على ظهره لوفرة أشواكه . وقد انّهدّ تاناباي يشتم بأقبح الكلمات وادي الاشجار الخمس هذه ، التي لن تحصل منها حتى على خمسة جذامير . وسحبوا ، متقوّسي الجذوع إلى الارض ، متصبّبين عرقا ، سحبوا هذا العلّيق اللعين جرّا ، وشقوا طريقا الى الحظيرة . وقد أشفق تاناباي على النساء ، لكن لم يكن ثمة طريق آخر . وعملوا قلقين . فالوقت كان على شفيره ، والى السماء كان ينبغي النظر بين لحظة واخرى ، لمطالعة صفحتها واستقرائها ــ كيف هناك ؟ ذلك انه إن سقط الثلج فآنذاك يكون كل هذا العمل عبثا زائدا . وكذلك كان يجبر بنته

الكبرى باستمرار على الركض الى القطيع لتعرف أبدأت ولادة الاغنام .

أما الحال مع الدمان فكان أسوأ الكل . فقد كان هذا غزيرا لدرجة انك لا تستطيع نقله طوال نصف عام . وحين يرقد دمان غنم جاف مدكوك تحت سقف جيد فان العمل معه قد يكون ممتعا . ذلك ان الطبقة منه اذا قطّعت جيدا فانها تنفصل الى قطع متينة ، سميكة . ومثل هذا يوضع أكواما كبيرة للتجفيف . ان الحرارة من صفف دمان الغنم لطيفة ونظيفة مثل الذهب وبها يتدفأ الرعاة في برد الشتاء . ولكن إن كان هذا الدمان قد رقد تحت المطر أو تحت الثلج ، مثل هذا الذي ابتلي به تاناباي ، فآنذاك لن يكون شيء اكثر مشقة وعسرا من الكدح والاشتغال به . بل إن هذا شغل من الاشغال الشاقة . أما الوقت فكان يمرّ ولا ينتظر أحدا . وواصلوا العمل في الليل ، تحت ضوء الفوانيس الداخنة ، ناقلين على حمّالات هذا الوحل اللزج البارد ، الثقيل كالرصاص . وها قد مرّ اليوم الثاني .

كانوا قد كوّموا كومة ضخمة من هذا الدمان ، وراء سياج الحظيرة المسقفة أما في داخلها

فقد تبقّت منه وفرة لا يطالها الحساب . وقد استعجلوا في تنظيف ولو زاوية واحدة من الحظيرة ، للحملان التي كانت تنتظر . ولكن ماذا تعني زاوية واحدة ، حين تضيق كل هذه الحظيرة الكبيرة عن ان تؤوي كل الأمهات وأطفالها ــ ذلك انه في اليوم الواحد ستزيد عددها بمقدار ٢٠ــ٣٠ حملا ! «ماذا سيكون ؟» ــ لم يفكر تاناباي الا في هذا ، وهو يكوّم الدّمان في النقّالات ، ليأخذه الى هناك ، وليرجع من جديد ، وهكذا من دون نهاية ، حتى منتصف الليل ، حتى الفجر . وصار يشعر بالغثيان . وخدرت يداه . زد على ذلك ان الفانوس كان كثيرا ما تطفئه الريح . وكان من حسن الطالع ان المساعدتين لم تتذمّرا أو تتضجّرا ، فكانتا تعملان بذات القدر وذات الحميّة ، كما كان يعمل تاناباي وجايدار .

ومرّ يوم كامل ، ثم يوم اخر ويوم ثالث . أما هم فلا زالوا طيلة الوقت يحملون الدمان وينقلونه ، ثم يملأون الثغرات في الحوائط وفي السقف . وسمع تاناباي ، ذات مرة ، في الليل ، وهو خارج بالنقّالات من الحظيرة ، سمع كيف ثغا حمل في الزريبة ، وكيف ثغت أمه جوابا له ،

وجعلت تدقّ الأرض بقدميها . «ها قد ابتدأت البلوى !» ــ خفق قلبه بشدة .

ــ هل سمعتِ ؟ ــ التفت تانآباي الى زوجته .

ورميا دفعة واحدة ، بالنقالة مع حمولتها من الدمان ، تحت الاقدام ، واختطفا فوانيس وجريا بها الى الزريبة .

كانت الفوانيس قد بدأت تجوس الزريبة متألقة بضوء متأرجح ، منيرة قطيع الشياه . أين هو ؟ ها هو في الركن هناك ! وكانت أمه قد جعلت تلحس الجسم الضئيل المرتجف للوليد الجديد . فاختطفت جايدار الحَمل بطرف ثوبها . حمداً للهّ ، أنهم أدركوه في الوقت المناسب ، وإلا لكان الحَمل قد تجمّد في الزريبة . وتبيّن أنه بجانبها قد ولدت أم أخرى . لقد ولدت توأمين فوضع تاناباي هذين في طرف رداءه . وفي الطلقّ كانت ترقد خمس نعاج ، وكانت تجأر باختناق . اذن بدأت الولادة . وقبيل الصباح كانت ستلد هذه . ودعيا المساعدتين ، وجعلوا يأخذون من الزريبة الأمهات التي قد ولدت ، كي يضعوها في ركن الحظيرة المسقفة ذاك الذي كان قد نظف بشكل من الاشكال .

وفرش تانا باي القشّ ازاء الجدار ، وأرقد الحملان ، التي كانت قد ذاقت لأول مرة في حياتها لبأ الأمهات ، وغطاها بالكيس . وكان الجو باردا . وادخل الأمهات الى الحظيرة المسقفة ايضا . واسترسل في التفكير ، عاضا شفتيه . ولكن أي جدوى كانت في التفكير ؟ لم يتبق الا التأميل وتعليل النفس أنه قد يترتب كل شيء على نحوما . ما اكثر الاعمال ، وما اكثر الهموم ... ليتهم جلبوا كمية كافية من القش على الأقل ، ولكن حتى هذا لا يتيسر . وسيجدن ابراهيم حتى لهذا الأمر سببا وجيها . فسيقول ، جرب فقط ان تنقل القش في هذه الطرق البالغة الرداءة والتي يتعذّر فيها السير ، الى الجبال .

آه ، فليكن ما يكون ! ومضى ليجلب قنينة حبر . وعلّم واحدا من الحملان على ظهره علامة « ٢ » ، اما التوأمان فعلمهما بعلامة « ٣ » ، وبهذا الشكل رقّم الأمهات أيضا . عمل ذلك وهو يفكر : والاّ حاول ان تميّز بعدئذ حينما تختلط المئات معا وتكتظّ ، فيختلط الحابل بالنابل . ان موسم القطاف لدى رعاة الاغنام ليس بالبعيد ، بل قد بدأ .

بدأ الموسم بشكل حاد ، قاس ، كما الحال في الدفاع أثناء الحرب حين لا تستطيع ان تحتمي بشيء ،

فيما تنطلق باتجاهك الدبابات . فانك تقف في الخندق ولا تتقهقر ، لانه ببساطة ليس ثمة ما تستطيع التقهقر اليه . أحد أمرين لا ثالث لهما ، أما الصمود بمعجزة في القتال ، وأما الموت .

وقف تاناباي صباح ذات يوم على اليفاع قبل سوق القطيع الى الرعي ، وجعل ينظر صامتا الى الجهات الأربع ، كما لو انه يقدر موقفه . كان دفاعه متداعيا ، لا يصلح لشيء . ولكنه كان ملزما بالصمود . فليس له أي مكان يتقهقر اليه . كان الوادي الملتوي غير الكبير بنهيره الضحل يضيق بين المرتفعات المستطيلة الوعرة ذات الاصباب المعتدلة ، التي كانت تنهض وراءها الجبال الاعلى ووراء هذه جبال اعلى منها وفوق تلك الجبال قمم شاهقة معتمرة بالثلج . وعلى المنحدرات البيض كانت تتراءى بلونها الاسود صخور حجرية عارية ، اما هناك ، على سلاسل الجبال المقيدة بالجليد ، فكان الشتاء يرقد . وليس له الا أن يمدّ يده حتى ترتمي هنا . كان يكفيه التحرك فقط ، والتطويح بالغيوم الى اسفل ، فيغرق الوادي في طيّات الظلام ، ولن تستطيع استكشافه .

كانت السماء رمادية ، في عكارة رمادية باردة . وكانت الريح تدوّم في الاسفل . كان كل ما حوله

مقفرا . الجبال ، وليس الا الجبال تكنتف المكان من سائر جهاتـه . وتقشّعر النفس وتجمـد من القلـق والانزعاج . أما في الحظيرة المسقفة المتهدمة فكانت الحملان قد بدأت تثغو . وها هم قد فصلوا من القطيع ، توا ، عشر أمهات وشيكات الولادة ، وأفردوها للولادة .

مضى القطيع بهدوء لكي يحصل على علف زهيد . وهناك في المرتع كانت تلزم عين الراعي ورعايته الآن أيضا . إذ يقع ان النعاج لا تُظهر أيمـا علامة لقرب الـولادة . ثـم تهـرع ، دفعـة واحدة ، لترقـد وراء الشجيرات ، وتضع أطفالها . فان لم تفلح في رؤية ذلك في الوقت المناسب ، فان الحمل قد يتجمّد على الارض الرطبة ، و آنئذاك لا يعود في قيد الأحياء .

وعلى أية حال ، لقد وقف تاناباي ، على اليفاع ، ما فيه الكفـاية . ومـا لبث ان لوّح بيده ، واتخـذ طريقه الى الحظيرة . فهناك لا زالت وفرة من الاعمال ، ويلزم القيام ولو بشيء صغير منها .

وجاء ابراهيم ، بعدئذ ، وجلب طحينا . جـاء بعينيه الوقحتين ... وهو يقول : أين أجد القصـور لكم ؟ كيفما كانت الحظائر في الكولخوز ، فكذلك تقوم الآن . وليس ثمـة حظـائر اخرى . إننـا لم تصـل الى الشيوعية بعد .

وبالكاد ضبط تاناباي نفسه ، من اجل ان لا ينقضّ عليه بقبضتي يديه .

– علامَ سخريتك هذه ؟ إني أتحدث عن العمل ، وفي العمل أفكر . وساكون في المسؤولية .

– وانا ، في رأيك ، لا أفكر ؟ إنك مسؤول عن قطيع واحد ، أما أنا فعن الجميع ، عنك وعن آخرين ، وعن كل تربية الماشية . أتتصوّر ان هذا سهل علي ! –وعلى حين غرّة ، ولدهشة تاناباي انخرط هذا الخبّ المكّار بالبكاء ، دافنا وجهه في راحتيه ، وتمتم عبر دموعه ، يقول : سأمثل أمام المحكمة ! أمام المحكمة ! لن تستطيعَ الحصول على أيما شيء في أيما مكان . والناس لا تريد المضي ، حتى لوقت موقوت ، لمساعدة الرعاة . اقتلوني ، قطّعوني ، لن أستطيع أكثر من هذا . ولا تنتظروا مني شيئا . عبثا ، التحقت عبثا بهذا العمل ...

وبهذا المشهد وهذه الكلمات ارتحل ، تاركا تاناباي الغشيم في حيرة غير صغيرة . ولم يروه في هذا المكان بعد ذلك .

والى الآن ولدت المائة الأولى من الأمهات . أما في قطيعي أشيم وبكتاي ، الواقعين ، أعلى ، في الوادي ،

فلم تبدأ الولادة بعد ، ولكن تاناباي أحسّ بالكارثة تقترب . انهم كلهم ، كم كان عددهم ، ثلاثة من البالغين ـ دون حساب المرأة العجوز المساعدة ، والتي هي الآن ترعى القطيع باستمرار ، والبنت الكبرى ذات الستة أعوام ـ كان هؤلاء جميعا بالكاد يوفقون لاستقبال الحملان حالما تولد ، ولأجلاسها الى امهاتها ، وتدفئتها بما يقع تحت اليد ، ونقل الدمان والأتيان بالحطب القشاش لأجل المفرش . وقد صارت تسمع صرخات الحملان الغرثى ، فقد كان الحليب لا يكفيها ، ذلك ان الامهات كانت منهكة مضناة ، ولم بكن ثمة ما تعلف به . حسنا ، ولكن ماذا كان يخبىء المستقبل ؟

بدأت أيام وليالي الرعاة تدور دورتها الكاملة ، وانثالت المواليد انثيالا ـ نهرا متصلا ، وليس لك مع هذا ، أن تلتقط نفسك ، أو أن تقوّم من جذعك .

ولكن كم أرعبهم الجو بالأمس ! لقد برد الجو بشدة ، على حين غرة ، وزلقت السحب جهمة ، وما لبثت ان انصبّت حبوب الثلج الجاسئة . وغرق كل شيء في العتمة ، واظلمّ ...

ولكن سرعان ما تقشّعت الغيوم ، وجعل الجو

يدفأ . وفاحت في الهواء رائحـــة الربيـــع وعبقـــه ونداوته . «فليسمح الله ، ان ينهض الربيع على قدميه ويثبت وطيدا . فلو نهض بشكل مكين ثابت لكان الحال أفضل ، وإلا فليس ثمة أسوأ حالا حين يروح يترنّح الى هنا والى هناك» – طفق يفكر تاناباي ، وهو يحمل على المذراة ما تجمّع من خلاصات الأجنّة المفعمة بالماء .

وجاء الربيع ، و لكن ليس بالشكل الذي انتظره تاناباي . لقد أعلن عن قدومه فجأة مع المطر ، مع الضباب ، مع الثلج ، وانقضّ بكل كتلته الرطبة والباردة ، على الحظيرة ، وعلى الخيّمة ، وعلى الزريبة ، وعلى كل شيء حواليه . وكان من مظاهر الربيع امتلاء البرك وجريان الجداول والنهيرات على الارض المتجلّدة الموحلة . كما كان من مظاهره أن جعل يتسرّب عبر السقف المتآكل ، ويجترف الحيطان ، ويغرق الحظيرة ، لينفذ الى قاطنيها بالقشعريرة حتى نخاع العظم . كان هذا هو الربيع الذي حلّ ، لقد أقام الجميع وأقعدهم . فتألّبت الحملان جمهورا في الماء ، وصرخت الأمهات التي كانت تلد وهي واقفة . ومن هذا الاقتحام عمد الربيع هؤلاء الولدان الجدد بالماء البارد .

كان الناس يسعون في هرج ومرج ، في أرديتهم

المطرية ، مع الفوانيس . وكان تاناباي يعدو من جانب لجانب . ومثل زوج من الوحوش المطـاردة ، كانت تتحرك سريعا في الظلمة جزمتان طويلتان تخوّضان في البرك ، وفي وحل الدمان . وكان ذيل معطفـه ، وهو مسرع ، يسـوط الأرض مثـل جنـاحي طير مسقط . كان يشخر ويصرخ على نفسـه ، وعلى الآخرين :ـ أسرعي ، أعطيني العتلة ! المجرفة ! والدمان ارمين هنا ! احجزن الماء !

كان يلزم تحويل مجرى جداول الماء المتدفّقة الى الحظيرة ، على الأقل . فكان يدقّ الأرض المتجلّدة ليحفر أقنية وخنادق لتحويل الماء اليها .

ـ ضوّئي ! ضوّئي هنا ! لماذا تنظرين ؟

وكان الليل ملفعا بالضباب ، واخذ الثلج يتساقط ممزوجا مع المطر . ولم تكن هناك اية حيلة او وسيلة لوقف ذلك .

وركض تاناباي الى الخيمـة . وأشعـل الضوء . وهنا أيضا تساقطت قطرات الماء من كـل مكان ولكن ليس كما في الحظيرة . كانت بنتـاه نائمتين ، وقـد ابتلّ غطاؤهمـا . فالتقف تانابـاي طفلتيه بحضنه ، سوية مع الفراش ، ونقلهما الى الركن محرّرا بذلك مساحةً اكبر في الخيمة . ورمى على الاطفـال قطـع

اللباد ، كيلا يبتلّ الغطاء من فوق ، وجعل ، وهو يركض من الخيمة يهتف في النساء في الحظيرة :

ــ انقلن الحملان الى الخيّمة ! ــ وركض هو نفسه الى ذلك الاتجاه بالذات . ولكن كم من الحملان كان يمكن إيواؤه في الخيّمة ؟ بضع عشرات ، لا اكثر . اما الباقي فالى أين ؟ اوه ، دعنا ننقذ ما يمكن إنقاذه على الأقل ...

وها هو الصباح قد أطلّ . أما مطر السماء فليس له نهاية ولا حد . وعم الهدوء شيئاً ، ومن جديد كان المطر يهطل تارة ، وتارة أخرى يسقط الثلج ، مرة مطر ، ومرة ثلج ...

كانت الخيّمة قد اكتظّت بالحملان . وكانت هذه تصرخ دون انقطاع . وها هو الدفر . وضعوا الاشياء في مكان واحد ، كومة واحدة ، وغطّوها بمشمّع التاربولين ، أما هم انفسهم فقد انتقلوا الى خيمة المساعدتين العجوزين الاعتيادية . وكانت الطفلتان ترتعشان ، وجعلتا تبكيان .

كانت هذه هي أيام الراعي السوداء . انه يلعن نصيبه ، يلعن مصيره وقدره . انه يلعن ويشتم كل أحد وكل شيء في الكون . إنه يقاسي الأمرّين هنا ، فهو لا ينام ، ولا يأكل ، ويبذل قصارى جهده لوقاية

النعاج المبتّلة من قمة الرأس حتى اخمص القدم ، وبين الحملان المتجمدة والخدرة من البرد . لكن الموت جعل يحصدها في الحظيرة العفنة الرطبة والباردة للغاية . ولم يكن صعبا على الموت ان يجيء الى هنا ـ ليدخل ، من حيثما يريد . من السقف المتهدم ، وعبر النافذة التي عدمت زجاجها ، وخلال الكوى الفارغة للأبواب . قدم ، ومضى يحصد دون رحمة الحملان والامهات الضعيفات . فكان الراعي يحمل كل يوم بضعا من الجثّث الزرقاء ، ويكومها وراء الحظيرة .

ولكن في الخارج ، في الزريبة وتحت المطر والثلج كانت الأمهات الحبالى تقف ، متضخّمات البطون . وهذه ستلد بين عشّية وضحاها . تقف يركلها المطر بقدميه ، ويسري التشنّج في فكوكها . ويتهدّل الصوف النديّ فتائل . . .

ولم تعد النعاج تريد المضيّ للرعي . أيّ مرتع هناك في مثل هذا الصقيع وهذه الرطوبة . فكانت المساعدة العجوز ، والكيس على رأسها ، تسوق النعاج الى هناك ، أما هذه فترتدّ الى وراء ، لكأن الجنّة قد أعدّت تنتظرها هنا . وجعلت المرأة تبكي ، وتجمعها جميعا ، لتسوقها ، فتركض هذه من جديد الى وراء . وكان تاناباي يخرج مغيظا ، ساخطا . لكان بودّه أن

يضرب ضربا مبرّحا هذه النعاج الغبيّة ، ولكنها حبلى . فدعى الآخرين ، وتضافرت قواهم جميعا لسوق القطيع الى المرتع .

ومنذ ذلك الوقت ، منذ بدأت الكارثة ، كان تاناباي قد أضاع حساب الوقت ، وحساب المواليد التي كانت تحتضر أمام عينيه . وكان اكثر ما يولد هو التوائم بل وحتى ثلاثة . وقد ضاعت كل هذه الثروة . كل الجهود ذهبت أدراج الرياح ، هباء . وكانت الحملان تطالع النور في يوم ، لتنفق في هذا اليوم بالذات في وحل المطر ووحل الدمان . اما تلك التي تبقّت فكانت تسعل ، وتشخر ، وتصابُ بالزحار ، وتوسّخ الواحدة الأخرى . كانت الأمهات التي مات أطفالها تصرخ ، وتركض ، وتدفع ، وتدوس تلك التي رقدت في المخاض . وكان في كل هذا شيء شاذ ، مخالف للطبيعة . أوه ، كم أراد تاناباي ان تتأخر الولادة ولو بعض الشيء !

بيد ان الأمهات كانت ، كما لو انها تآمرت ، تلد الواحدة بعد الاخرى ، الواحدة بعد الاخرى !

واصّاعد في روحه حقد عارم ، أسود . ثار هذا الحقد ، وغطّى عينيه بظلمة سوداء من الكراهية لكل شيء ، مما وقع هنا وألمّ به ، لهذه الحظيرة

المتهدّمة ، للنعاج ، لنفسه ، لحيـــاته ، لكـل شيء ناضل هو من أجله هنـــا ، كما يختبط السمك في الجليد .

لقد غشاه نوع من التبلّد . كان يدوخ من تيّار أفكاره ، فكان يطردها بعيدا ، لكنهـا لم تكن تتقهقر ، كانت تتغلغـل روحه ، ورأسـه : «علامَ كـلّ هذا ؟ من يلزم هذا ؟ لماذا نكثّر الأغنـــام ، إن لم نكـــن نستطيع رعايتها وحفظها ؟ من المذنب في هذا ؟ من ؟ أجب ، من ؟ أنت نَفسك ، وأمثالك مـن الثرثـارين . اننا ، كما يقال ، طليعيون ، نُنهض الانتاج ، ندرك ونسبق المعدّل ، ونمنح كلمات الالتزام . إننا نُجمل القيل . ولكن تعال الآن ، أيهـا الطليعي ، وأنهض هذه الحملان الفاطسـة ، وانقلهـــا . جرّ تلـك الام ، التي نفقـت في البركـة . وأظهـر نفسـك للملأ ، أيّا ومـن أنت في الواقع . . .»

وكان تاناباي يختنق ، وخاصة في الليـــل ، وهو يغوص حتى الركبتين في الأوحال وفي بول الأغنـــام ، كان يختنق مـن أفكاره المزعجـة ، المرّة . يـا أنت ، يا ليالي التوالد المؤرقة ! أيّ عذاب : تحت الأقدام مستنقع الدمان المشبـع بالميـــاه ، ومن فوق ، وعلى الرأس يسيل المطر . والريح تعبث بالحظيرة ، تصول

وتجول ، كما في الحقل والسهب ، وتطفىء الفوانيس .
ويمضي تاتاباي ، متلمّسا طريقه بصعوبة ، متعثّرا ، ويزحف على أربع ، من أجل أن لا يدوس المواليد الجدد ، ويجد الفانوس ، ويشعله ليرى في ضوئه يديه السوداوين ، المتورّمتين ، الملوّثتين بالدمان والدم.

منذ زمن بعيد لم يطالع هو وجهه في المرآة ، لم يكن يعرف ، أنه قد شاخ وكبر سنين كثيرة . وان اسمه منذ الآن ــ هو الشيخ . ولكنه كان في شغل شاغل عن هذا وعن نفسه . ولم يكن عنده وقت لا للأكل ولا للاغتسال . إنه لا يمنح لا نفسه ، ولا الآخرين ، فرصة للراحة . ووضع ، وقد رأى ان الأمر يمضي حثيثا الى كارثة محيقة ، وضع المساعدة الأفتى سنا على الحصان :

ــ طيري ، وجدي تشورو . وأبلغيه ان يرتحل الينا دون إبطاء . وإن لم يجىء ، فقولي له أن لا يمثل أمام عيني بعد هذا قط !

وعدت هذه على حصانها عائدة فوصلت قبيل المساء ، ونزلت مترجّلة من السرج ، مزرقّة ، مبتلّة حتى آخر خيط مما كانت ترتديه :

ــ انه مريض ، يا تاناباي . إنه راقد في الفراش ، ويقول انه بعد يوم أو يومين سيأتي من كلّ بد ولو كان سيموت .

ـ ليته لا يرتاح من هذا المرض ! ـ شتم تاناباي .

وأرادت جايدار أن تنتهره ، ولكنها لم تجرؤ ، فقد كان ذلك غير ممكن .

وجعل الجو يروق في اليوم الثالث . كانت الغيوم تتقشّع على مهل وبتباطؤ ، وتصاعد الضباب الى الجبال . وسكن الريح . ولكن بعد فوات الأوان . كانت النعاج الحبالى قد هزلت ، في هذه الأيام ، وتضمّرت بحيث ان المرء كان يرتعب من النظر اليها . كانت تقف عجفاء ، ببطون منتفخة ، على أقدام نَحيفة . فأيّة أمهات مرضعات هذه ! أما تلك الأمهات التي ولدت ، والحملان التي لا زالت في قيد الحياة ، ـ أكثير منها سيستطيع إدراك الصيف لتتعافى وتسمن بالعشب الأخضر ؟ عاجلا أو آجلا سيدركها المرض ، فان حتى لم يحصل ذلك فسوف لن تحصل منها لا على صوف ولا لحم .

وما كاد الجو يصحو حتى حلت نكبة أخرى ـ فعلى الارض كان الجليد يتكاثف طبقات . كان هذا هو الغطاء الجليدي على الارض . وعند الظهر خفّ وتراخى . فسر تاناباي : فلعلّه الآن سيُوفق الى انقاذ بعض آخر . ومن جديد انطلق عمل المجارف ،

والمذاري ، والنقّالات . كان يلزم إيجاد طريق ما الى الحظيرة ، والا فانك لن تستطيع ان تخطو ولا خطوة . وعلى كل حال فلم ينشغلوا بهذا وقتا طويلا . فقد كان يلزم أيضا إطعام الحملان اليتامى ، وإرضاعها من الأمهات التي فقدت أطفالها . على ان هذه لا تسمح ، ولا تتلقّى غير أولادها . فكانت الحملان تخبط طالبة الحليب . كانت تلتهم الاصابع بافواهها الباردة ، وتمصّها . وان طردتها ـ فانها ستمتّص الأطراف الوسخة للأردية المطريّة . كانت تريد الطعام ، أي طعام . فكانت تسعى في إثرك زرافات تصرخ .

ماذا كان يمكن ان ينفع في مثل هذه البلوى ؟ حتى ولو تبكي ! حتى ولو تقطّع نفسك إربا ! ثم كم يمكن الطلب من هذه النساء ومن بنتك الصغيرة ؟ إنهن بالكاد يقفن على أقدامهن . كم من الأيام تصرّمت ولا تجفّ هذه المماطر عليهن . ولم يكن تاناباي ليقول لهم شيئا . مرة واحدة فقط لم يصطبر . لقد ساقت المساعدة العجوز القطيع الى الزريبة ، فقد أرادت ان تساعد تاناباي . فوثب هذا لينظر ماذا هناك . نظر ـ فاشتعل دمه نارا عندما رأى ان النعاج تقف ، وتقضم الواحدة صوف الاخرى . إن هذا يعني أن القطيع يتهدّده الموت جوعا . فركض وانقضّ على المرأة :

ـ ما دهاك ، أيتها العجوز ! أفلا ترين ؟ لماذا تصمتين ؟ ولّي من هنا ! سوقي القطيع ! ولا تدعيه يقف ولا لحظة ! لا تتركي الشياه تقضم الصوف . دعيها تمشي أبدا ، كيلا تقف ولا لحظة . والا فاني ساقتل !

وهنا أيضا انقضّت عليه مصيبة اخرى ـ فان احدى الامهات ذات التوأمين جعلت تتخلّى عن حمليها ، كانت تنطح ، ولا تسمح لهما بالاقتراب منها ، وكانت تركلهما باقدامها . ولكن الحملين كانا يدّبان ، ينسلاّن اليها ، ويقعان ، ويصرخان من ألم ومن جوع . إن مثل هذه الظاهرة تحدث حين يبدأ فعله أقسى قانون في الطبيعة وهو قانون حفظ الذات ، وذلك حين ترفض الأم غريزيا إطعام أطفالها الرضع ، لكي تبقى هي في قيد الحياة ، لانها لم تعد قادرة على إطعام آخرين . وهذه الظاهرة ، كالمرض ، مُعدِية . فيكفي أن تضرب نعجة واحدة بنفسها مثلا ، حتى يبدأ الكل الاحتذاء بها . فجنّ جنون تاناباي وطرد البنت والنعجة التي توحشت من الجوع ، مع حمليها الى الفناء ، الى الزريبة ، وهنا اخذا يرغمانها على إطعام طفليها . وفي البداية كان تاناباي يمسك بالنعجة ، اما البنت فكانت تجلس الحملين الى

ضروعها . لكن الأم كانت تدور ، وتصد . ولم توفق البنت لشيء .

ـ يا أبي ، إنهما لا يستطيعان المص .

ـ يستطيعان ، انما أنت فقدت يديك .

ـ كلا ، كلا ، أفلا تنظر ، إنهما يقعان . ـ وكادت تبكي .

ـ طيب إذن امسكي هنا ، سأقوم بالأمر بنفسي !

ولكن كم من القوة عند البُنيّة . فما كاد الحملان يمسكان بالضروع ، وما كاد هذان يبدآن المصّ ، حتى كانت النعجة الأم تندفع بقوة ، لتركض ، مطوّحة بالطفلة . ونفد صبر تاناباي . فصفع البنت في خدها . لم يكن قد ضرب أطفاله ولا مرة في حياته ، لكنه هنا ضاق ذرعا ، وطفح كأس صبره . وبدأت الطفلة تبكي بكاء خافتا . اما هو فقد مضى ، بصق على كل شيء ومضى .

مشى قليلا ، ثم رجع ، غير عارف كيف يسأل ابنته الصفح عنه ، اما هي فقد ركضت اليه :

ـ يا أبي ، لقد تقبّلتهما . أنا وأمي قد أجلسنا الحملين اليها . ولم تعد هي تطردهما .

ـ ما أروع ذلك . إنك شاطرة .

وصار يشعر بالتحسّن والانشراح في الحال . وكأن ليس كل شيء في منتهى السوء . فلعله سيوفق لأن ينقذ ما تبقّى . ولعل الجو يروق ويعتدل ! ولكن ماذا لو نهض الربيع بشكل حقيقي وولّت أيام الرعاة السود هذه ؟ ومن جديد انخرط في العمل . العمل ، العمل ، العمل ـ ليس الا العمل ، فيه وحده النجاة . . .

ووصل العدّاد ـ فتى ارتحل على حصانه . أخيرا ، وبعد كل شيء ، جاء يسأل ماذا وكيف . وأراد تاناباي إرساله الى ألف من الشياطين . ولكن بماذا تستطيع ان تطالبه .

ـ أين كنت سابقا ؟

ـ كيف أين ؟ في القطعان . لا أستطيع ان ألحق ـ أنا وحدي .

ـ ولكن كيف الحال عند الآخرين ؟

ـ ليس أفضل . فقد حصدت هذه الأيام الثلاثة السود حياة الكثير .

ـ وماذا يقول الرعاة ؟

ـ ماذا . انهم يؤنبّون ويشتمون . وبعض منهم لم يرد حتى التحدث معي . بكتاي طردني من الفناء . انه يسير حاقدا ، ومن الصعب التفاهم معه .

ـ أجل . وعندي لم تكن فرصة لأسعى اليه . على أي حال ، لعلي سأفلت وأرتحل اليه . حسنا ، وأنت ؟

ـ أنا ؟ أي شيء أستطيع أن أعمل ؟ أنا أتولّى الأحصاء .

ـ ولكن هل ستكون أيّما مساعدة ؟

ـ ستكون . يقال ان تشورو أبلّ من مرضه . فوجّه رتلا من العربات بالتبن والحشائش الجافة ، وأخذ كل شيء من الاسطبلات ـ يقول ـ فلتنفق الخيول ولا الاغنام . ويقال ان قافلة العربات تعطّلت في مكان ما ، فهذه الطرق عسيرة حقا .

ـ الطرق ! ولكن بماذا فكّروا قبلا ؟ أبد الدهر والحال عندنا بهذا الشكل . ثم أية فائدة ترجى من هذا الرتل الآن ! حسناً ، ولكني سأريهم يوما ما ! ـ هدّد تاناباي . ـ لا تسأل . امض أنت وعدها وسجلها بنفسك . فالآن بالنسبة لي الأمر سيان ! ـ ومضى الى الحظيرة ، قاطعا الحديث ، ليتولّى ولادات جديدة . وكانت خمسة عشر نعجة قد وضعت أطفالها اليوم .

سار تاناباي ، جامعا النتاج ، ونظر ـ فاذا بالعدّاد يدسّ إليه ورقة :

ـ وقع المحضر عن الموتان .

ووقّع ، دون ان ينظر . كتب بسرعة خارقة انكسر معها القلم .

ـ مع السلامة ، تاناباي ! لعلك تقول لي ان اُبلغ شيئا ؟ قل !

ـ ليس لي ما أقوله .ـ ثم قال ، مخاطبا الفتى العدّاد ،ـ عرّج على بكتاي . أخبره ، أنني غدا سأنطلق اليه عند الغداء .

عبثا قلق تاناباي . فقد سبقه بكتاي . لقد أتى هو نفسه إليه . أجل وإلى هذا ، فكيف أتى . . .

في تلك الليلة هبّ الريح من جديد ، وهطل ثلج ليس بالكثيف جدا ، لكنه وفّق لأن يفرش الأرض بالبياض . وغمر النعاج في الزريبة باللون الابيض ، وكانت هذه قد وقفت الليل بكامله على قوائمها . انها لم تعد الآن ترقد . كانت تتألب جمهورا ، وتتراصّ كومة ، لتقف دون حراك ، ودون اكتراث باُيما شيء . وقد طال عهد سوء التغذية فترة طويلة جدا ، وطويلا جدا ناضل الربيع الشتاء .

وفي الحظيرة عمّ البرد . وكانت ندف الثلج تسقط عبر السقف الذي اجترفته الأمطار ، وكانت

تدور في نور الفوانيس الكابي لتسقط بانسجام وتناسق الى أسفل ، على الأمهات والحملان المتجمدة ، الملتحمة بعض ببعض . أما تاناباي فكان طيلة الوقت يتدافع بين الاغنام ، قائما بواجبه ، مثل جندي في فرقة الدفن في ميدان الحرب بعد المعركة . لقد اعتاد أفكاره المريرة ، الكالحة وألفها ، واستحال الاستياء عنده الى حقد صامت . لكأن وتدا قد دق على قلبه ، فلا يستطيع الانحناء . كان يسير ، وينطلق صوت ارتجاج جزمتيه الطويلتين وهو يخوض بهما في البرك والأوحال ، كان يؤدي عمله ويتذكر طيلة الوقت في الساعات الليلية هذه مزقا من حياته الماضية . . .

وقتما كان يسعى في الأرض صبيا ، مساعد راع . كان يرعى سوية مع أخيه قولوباي الاغنام عند أحد أقربائهما . ومضى عام ، وتجلى أنهما إنما كانا يعملان لمجرد القوت . خدعهما صاحب الاغنام . ولم يشأ التحدث معهما . وهكذا غادراه ، ومضيا باخفاف بالية على الاقدام ، وقمطرين هزيلين على ظهريهما ، ويدين خاليتي الوفاض . وإذ خرج تاناباي هدد صاحب الاغنام : «اني سأذكرك بذلك ، حين أكبر» . أما قولوباي فلم يقل شيئا . كان يكبره

بخمسة أعوام . كان يعرف أنك بذلك لن تخيف ربّ العمل . شيء آخر ، أن تكون أنت مالكا ، فتقتني قطيعا وتفلح أرضا . «إن صرت ربّ عمل يوما ما فلن اسيء الى عاملي قط» ــ كان يقول هو آنذاك . وعلى هذه الحال افترقا في ذلك العام . مضى قولوباي ليرعى عند مالك آخر ، اما تاناباي فقد طوّحت به المقادير الى ألكسندروفكا ، حيث اشتغل عاملا زراعيا عند مستوطن روسي يدعى يفريموف . ولم يكن هذا المالك مفرط الثراء ــ كل ما عنده زوج من الثيران ، وزوج من الخيول ، وحقل للحراثة . كان يبذر الحبوب . وينقل القمح الى الطاحونة في بلدة آوليه ــ آتا . وكان يعمل بنفسه من الفجر الى المساء . وكان اكثر ما يعمله عنده تاناباي هو العناية بالثيران والخيول . كان صارما ، وعادلا في نفس الوقت . فكان يدفع ما عليه . وأيامذاك كان فقراء القرغيز المنهوبون من قبل مواطنيهم الاغنياء كانوا يفضلون البحث عن عمل بأجر عند المالكين الروس .

وتعلم تاناباي التكلم بالروسية ، وحلّ سوية مع عربة النقل في تلك البلدة آولية ــ آتا ، ورأى شيئا من العالم . وهناك أدركته الثورة . وقلبت كل شيء رأسا على عقب . وحان حين التانابايين .

رجع تاناباي الى القرية . وابتدأت حياة أخرى . التقفته ، جرت به ، وأدارت رأسه . وقد أتى كل شيء مرة واحدة ـ الأرض والحرية والحقيقة . وانتخب في لجنة العمال الزراعيين . وفي تلك السنين التقى هو بتشورو وتصادق معه . كان تشورو هذا متعلما ، وقد علّم الشبيبة كيف كتابة الحروف ، وكيف قراءة السطور . كان تاناباي بأمس الحاجة لمعرفة القراءة والكتابة ، فهو عضو في لجنة العمال الزراعيين . وقد التحق بخلية كومسومولية . وهنا كان سوية مع تشورو ، وبالحزب التحقا سوية . وجرى كل شيء في مجراه ، واستلم الفقراء السلطة . وحين ابتدأت كلخزة الاقتصاد الزراعي ، كان تاناباي قد أقبل على هذا الأمر بكل روحه . كان اكثر الجميع اهتماما وتكريسا لقضية النضال من أجل الحياة الفلاحية الجديدة ، في سبيل ان يكون كل شيء مشتركا ـ الأرض ، والماشية ، والعمل ، والأحلام . سحقا للكولاك ! ها إذن قد دوى الزمن العنيف ، العاصف . نهارا كان مفرشه صهوة حصانه ، وليلا كان يغوص في الاجتماعات والجلسات . ووُضعت قوائم الكولاك . كان هؤلاء البكوات والملالي ، وكل صنوف الاغنياء الآخرين قد استبعدوا من الحياة

العامة ، مثلما يستأصل العشب الضار من الحقل . كان ينبغي تنظيف الحقل من اجل ان تنبت بذور جديدة . وفي قائمة تزع ملكيـــة الكولاك ، كان قولوبـــاي أيضا . والى هذا الوقت ، ريثما كان تاناباي يعـــدو قمصا ، وفيما كان يحضر الاجتماعات والجلسات ، كان أخوه قد وفّق لأن يشقّ طريقه في الحياة . فقد كان قد تزوّج من أرملة ، وكوّن لنفسه ثروة . اقتنـى ماشية ـ أغناما ، وبقرة ، وزوجا من الخيـــول ، وفرسا حلوبة مع مهرها ، ومحراثا ، ومسالف ومـا شاكل ذلك . وكان يستأجر عمالا لموسم الحصـــاد . وهكذا فلا يمكن القول أنه قد أصبح غنيا مثريـا ، ولكنه لم يكن ، بالمقابل ، فقيرا بحال . لقد عاش ببلهنية واكتدح بجدّ .

قال تشورو حين بلـــغ الدور قولوباي ، في جلسة مجلس القرية :

ـ دعونا ، أيهـــا الرفـــاق ، نفكر . أننتزع ملكيّتـه أم لا . ان أنـاسـا مثـل قولوبـاي يمكن أن ينفعوا في الكولخوز . فانـه نفســـه قد تحدّر من الفقراء . كما انه لم يشتغل بالتحريض والدعايـــة المعادية .

وصار الاعضاء يتحدثون بوجهات نظر مختلفة ،

بهذا الصدد . منهم من كان « مـع » ، ومنهـم من كان « ضد » . وأعطيت الكلمة لتاناباي . كان قـد جلس منتفشا ، مثل غراب أسحم . بالطبع ، إنه أخوه ولو من أبيه فقط . ومن ناحية اخرى ، كان يلزم المضيّ ضد أخيه . كانا يعيشان على نحو مسالم ، ولو انهما كانا يلتقيان نادرا . كان كل مشغولا بقضاياه الخاصة . فان قال : لا تمسّوه ، فكيف سيكون الأمر آنـذاك مع الآخرين ــ سيوجد عند كلٍ من يدافع عنـه ، قريبه ، وإن قـال : قرّروا بأنفسكـم ، فانهـم سيتصوّرون انـه انما يتملّص ، ويتجنّب الأمر خوفا .

كان الناس ينتظرون ما الذي سيقوله . ولأنهم كانوا ينتظرون كلمته ، تعاظم فيه العنف والحدّة :

ــ أنت يا تشورو دائما هكذا ! ــ بدأ كلامه هو ، ناهضا . ــ في الجرائد يكتبون عن أهل الكتب ، كيف ، أعني ، المثقفين . وأنت نفسك مثقف . أنت طول عمرك تتشكّك ، تتهيّب ، كما لو ان الامر لا ينبغي أن يكون كذلك . ولكن لِمَ التشكّك وعلامَ ؟ طالما هو موجود في القائمة ــ إذن فهو كولاك ! ولا رحمة ولا شفقة ! من أجل السلطة السوفييتيـه أنا لا أُشفق حتى على أبي نفسه . أما كونه أخي ،

فهذا أمر لا ينبغي أن يحيّركم . لستم أنتم ، وإنما أنا الذي سأنزع ملكيّته .

وأتاه قولوباي في اليوم التالي . فواجه تاناباي أخاه ببرود ، ولم يمدّ إليه يده .

ـ لماذا اعتبرتموني كولاكا ؟ ألسنا قد اشتغلنا معاً عاملين زراعييّن ؟ أو لم يطردنا الاغنياء سوية من الفناء ؟

ـ ان هذا لا يعني شيئا الآن . أنت نفسك صرت غنيّا .

ـ أي غنيّ أنا ؟ بعمل ذراعيّ هذين اكتسبت هذا كله . ومع ذلك فلا أبخل بهذا ولا أُشفق عليه . خذوه كله . شيء واحد ـ لماذا تتهمونني بانني كولاك ؟ خف الله يا تاناباي واتقه !

ـ الأمر سواء . أنت طبقة معادية . ونحن ملزمون بتصفيتك ، من أجل بناء الكولخوز . إنما أنت تقف في طريقنا ، وعلينا أن نزيحك من الطريق ...

كان هذا هو حديثهما الأخير . وها قد مرت عشرون سنة ، منذ لم يتبادلا كلمة . وحين أرسل قولوباي الى سيبيريا ، فكم من الأحاديث ، وكم من اللغط والقيل والقال كان في القرية !

كان قليلا من دافع عن تاناباي . اكثر الناس أدانوه : «لا تسأل الله أن يمنحك مثل هذا الأخ . لأفضل ان تكون دون قريب !» وجرّحه البعض حيث كانوا يقولون له هذا صراحة . اجل ، ان قلنا الصراحة ، فان الناس تحاشوه آنذاك . لم يكن هذا بشكل مكشوف ، ولكنهم صاروا يمتنعون من التصويت من أجل ترشيحه . وهكذا صار يخرج تدريجيا من سلك النشطاء وينعزل عنه . ومع ذلك فقد كان يتبرَّر بأن الكَولاك قد أحرقوا الكولخوزات ، وأطلقوا الرصاص على الناس ، وبأن الشيء الأساسي هو ان الكولخوز بدأ حياته ، وان أموره كانت تتحسّن من عام لعام . لقد حلّت حياة أخرى تماما . كلا ، ليس عبثا كل ما كان آنذاك .

تذكّر تاناباي كل ما مرّ ، حتى أدقّ التفاصيل . لكأن كل حياته قد تبقّت هناك ، في تلك الفترة العجيبة ، حين كانت الكولخوزات تستجمع قواها . ومن جديد تذكّر هو أغاني تلك الفترة عن «الطليعية ذات الخمار الأحمر» ، وتذكر سيارة النقل الكولخوزية الاولى ، وكيف وقف هو آنذاك ، ليلا ، عند القمرة ، بالعلم الأحمر .

كان تاناباي يجول في الحظيرة ، ويؤدي خدمته

المريرة ، غارقا بأفكاره المؤلمة . ترى لم يتدهور الآن كل شيء ؟ أَتراهم قد أخطأوا ، ولم يمضوا إلى ما ينبغي ، ولم يسيروا في الطريق المطلوبة ؟ كلا ، هذا لا ينبغي ، لا يجوز ان يكون الأمر كذلك ! لقد كانت الطريق صحيحة ، مضبوطة . إذن ففيمَ العلّة والآشكال ؟ أضلّوا سواء السبيل ؟ إذن ، متى وكيف حدث هذا ؟ ها هي المسابقة الآن ـ لقد دوّنت الالتزامات والواجبات ، وبعد هذا لم ولن يهمّ أحدا كيف حالك هنا ، وماذا يحدث لك . قبلا ، كانت لوحات حمر وسود ، فكانت أحاديث كثيرة تدور ، ونقاشات كثيرة تنعقد : من سيكون في اللوحة الحمراء ، ومن في السوداء ـ كان هذا يهمّ الناس ويعنيهم . والآن يقولون ان هذا قديم ، مضى وقته ، وقد بطل استعماله الآن . ولكن ما هو البديل ؟ أحاديث فارغة و وعود . اما في الواقع فلا شيء . فلماذا هكذا ؟ ومن هو المذنب في كل هذا ؟

كلّ تاناباي من هذه الافكار التي لا مخرج منها . لقد لفّه عدم الاكتراث ، والتبلّد بقبضتيه . وكان لا يعمل بموفور قواه أو بعظيم رغبته وحافزه . وآلمه رأسه . وأراد أن ينام . لقد رأى كيف ان المساعدة الأفتى سنّا قد اتكأت الى الحائط . رأى كيف تتغامض

وتتلاصق عيناها المتورمتان ، المحمرتان ، وكيف كانت تقاوم النعاس ، وكيف جعلت تنزلق تدريجيا ، وكيف جلست ، بعدئذ ، على الأرض وغفت ، وقد ألقت برأسها على ركبتيها . وامتنع عن إيقاظها . وهو أيضا اتكأ الى الحائط ، وببطء زحف الى أسفل ، ولم يستطع فعل أي شيء مع نفسه ، مع هذا الثقل الذي ارتمى على كتفيه ، والذي كان يميل به باستمرار إلى أسفل . . .

واستيقظ من الصراخ المخنوق ومن ضربة صمّاء بالأرض . وجفلت إلنعاج مرعوبة ، فكانت تدوس قدميه وهي تسعى . ووثب هو ، دون ان يفهم ، ما الذي حدث وكان الفجر قد انبلج .

ـ تاناباي ، تاناباي ، المعونة ! ـ دعته زوجته .

واليها ركضت المساعدتان ، وما لبث هو أن التحق بهما . ونظر ـ فاذا بعارضة خشبية ضخمة قد هوت من السقف وجثمت على جايدار . كان أحد طرفيها قد انخلع من الحائط المجترف ، وانهارت العوارض تحت ثقل السقف المتآكل . وطار النوم من عينيه في الحال .

ـ جايدار ! ـ صرخ ، وهو يدسّ كتفه تحت العارضة ، ورفعها دفعةً واحدة .

وزحفت جايدار ، وجعلت تئن وتتأوه . وطفقت النساء تندب ، وجعلت تتلمّسها . ودفعهما تاناباي ، دون ان يتميّز شيئا من الرعب ، وجسّ بيديه المرتجفتين ما تحت الصديريّ في بدن الزوجة :

ـ ماذا بك ؟ ماذا ؟

ـ أوه ، الحقو ! الحقو !

ـ هل رُضضت ؟ اذن ، فلنسعفها ! ـ وألقى بردائه المطري على الفور ، ووضعوا جايدار عليه وحملوها من الحظيرة .

وتفحصّوها في الخيمة . كانت من الخارج تبدو وكأنه لم يقع لها شيء . لكنها كانت قد صُدمت بقوة . ولم تكن تستطيع التحرك .

وطفقت جايدار تبكي :

ـ كيف الآن ؟ ما اصعب هذا الوقت الذي جرحت فيه ؟ كيف سيكون الأمر معكم الآن ؟

«أوه يا إلهي ! ـ خطر كالبرق في ذهن تاناباي . ـ إنه لينبغي السرور أنك قد بقيت حيّة . أما هي ؟ فليذهب الى كل شياطين الأرض هذا العمل ! فقط لتبقي سالمة انت ، يا مسكينتي . . .»

وجعل يربّت على رأسها .

ـ عجباً لك ، جايدار ، اهدئي ! فقط لو نهضت على قدميك . أما الباقي كله فلغو باطل . سندبرّ أمورنا ...

وطفقوا كلهم ، ولم يصحَوا من الذهول والانشداه الا الآن ، طفقوا يتحدّثون ، ينافس بعضهم بعضا ، مُقنعين ومهدّئين جايدار . وكأنها قد هدأت بسبب ذلك . فابتسمت عبر الدموع .

ـ لا بأس . لا تزعلوا لأن هذا حدث . لن أرقد طويلا . بعد يومين سأنهض . سترون .

وأقبلت النساء تعدّ الفراش لها ، وتشعل النار ، أما تاناباي فقد رجع من جديد الى الحظيرة ، وهو لا يزال ، مع ذلك ، غير واثق ان الشقاء قد ولى جانبا عن طريقه .

انفلق الصباح أبيض ، في الثلج الناعم الجديد . وقد وجد تاناباي في الحظيرة أماّ من النعاج قد أودت العارضة بحياتها . ولم يلاحظوا من قبل هذه النعجة الفاطسة . وكان الرضيع يدور ببوزه في ضروع الأم النافقة . وأصبح تاناباي يشعر بمزيد من الرعب ، ومزيد من السرور ، في آن واحد معاً ، أن الزوجة قد

بقيت في قيد الحياة . فاخذ الحمل اليتيم ، ومضى يبحث له عن أم أخرى . ثم وضع عتلة تحت العارضة ، ساندا الحائط بذلك ، وهو ما ينفكّ يفكر أنه ينبغي المضي ليعاين ماذا طرأ للزوجة .

ورأى ، خارجا الى الخلاء ، رأى غير بعيد قطيعا من الأغنام ، كان يجول ببطء في الثلج . لا بد انه راع ما غريب قد ساق أغنامه اليه . ولكن : أي قطيع هذا ؟ ولِمَ يسوقها هو الى هنا ؟ ستختلط النعاج معاً ، أفحقا ممكن التصرف بهذا الشكل ؟ ومضى تاناباي ليحذر هذا الراعي الغريب ، ويبلغه أنّه انما وصل هائما الى غير مكانه .

واذ اقترب منه ، وجد ، أن القطيع يسوقه بكتاي .

ــ اي ، بكتاي ، أنت ؟

ولم يجب هذا بشيء . كان يسوق القطيع اليه ، صامتا ، وكان يوالي الضرب الشديد للأغنام بعصاه في ظهورها . «لماذا يفعل هكذا مع النعاج الحبالى !» ــ دهش تاناباي وتحير .

ــ من أين جئت ؟ والى أين ؟ مرحبا .

ــ من هناك ، حيث لم اعد موجودا . أما الى أين ــ فانت ترى بنفسك . ــ واقترب بكتاي منه ،

وقد شدّ رداءه وثيقا بحبل في خاصرته ، وقفازاه مرميّان على صدره تحت الرداء .

وتوقف ، ممسكا بعصاه وراء ظهره ، توقف على مبعدة بضع خطوات من تاناباي ، ولكن دون أن يحييه . وبصق حاقدا ، وبحقد داس على بصقته في الثلج . ورفع رأسه . كان أسود ، وقد أطلق لحيته ، لكأنها ملصقة الصاقا الى وجهه الفتي الجميل . كانت عيناه الوحشيتان كعيني القط البري تنظران من تحت جبينه بكراهية وتحدّ . وبصق مرة اخرى ، ونقل العصا بتشنّج ، ملوحا بها على القطيع :

ـ خذه .تريد أن تعدّه ، أو لا تريد . ثلاثمائة وخمسة وثمانون رأسا .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ اني تارك العمل .

ـ كيف هذا « تارك » ـ الى أين ؟

ـ الى مكان ما .

ـ حسنا ، وما ذنبي أنا هنا ؟

ـ لأنك رئيسي .

ـ ثم ماذا ؟ على مهلك ، على رسلك ، قف ، الى أين ؟ الى اين توجهت ؟ ـ ليس الا الآن تحسس تاناباي وفهم ما فكّر فيه مرؤوسه وما دبره . وأحس

بالاختنـــاق ، وبالسخونـــة من الدم الذي هجـــم على رأسه ،ــ كيف هكذا ؟ ــ جعل يتمتم ذاهلا .

ــ ولكن هكذا . كفى معي . لقد سئمت . وقد شبعت حتى الهامة من حياة كهذه .

ــ لكـن أو تميـز مـــا تقـول ؟ ان الـولادة في قطيعك وشيكة جدا ، أما اليوم أو غدا . اذن ، كيف يمكن مثل هذا ؟

ــ ممكن . ما دام مثل هذا ممكنــا معنــا ، اذن فيمكننا ان نجيب بذات الشيء ، ان نفعـل مثيلـــه . وداعا ! ــ ودّور بكتاي بالعصا فوق رأسه ، ورماها بكل ما أوتي من قوة ، ومضى لا يلوي على شيء .

وتجمّد تاناباي خدرا . لم يعد يجد مـا يناسب من الكلمات . اما ذاك فقـد وســـع خطـــاه ، دون ان يلتفت الى وراء .

ــ تأمل مليّا ، يـا بكتاي ! ــ ركض وراءه ،ــ مستحيل هكذا . فكر أنت نفسك ، ماذا تفعل ! هـــل تسمع ؟

ــ كفّ عني ، ابتعد ! ــ استدار اليــــه بكتاي بحدة . ــ أنت فكرّ ! اني أريد أن أعيش كما يعيش الناس . أنا لست أسوأ مـن الآخرين . وأنـــا أيضـــا أستطيع العمل في المدينة ، والقبض على أجر . لمـــاذا

أنا ملزم بأن أضيع هنا مع هذه النعاج ؟ بلا علف ، بلا حظيرة ، بلا خيمة على الرأس ؟ كفّ عني ! وامض ، أشبع نفسك ببذل المستحيل ، اندفن في الدمان ! انظر الى نفسك : من صرت تشبه . ستنفق هنا قريبا . أما أنت فتجد هذا قليلا بحقك . تنثر لي النداءات . تريد أن تجرّ الآخرين وراءك أيضا . مستحيل ! كفى معي ! — وجعل يخطو ، وهو يدوس الثلج الابيض ، الطريُ ، غير الممسوس بعد بقوة ، بحيث أن آثاره كانت تسودّ في الحال ، وتطفح بالماء .

— بكتاي ، اسمعني ! — لحق به تاناباي ، — سأوضح الأمر لك .

— أوضح للآخرين . ابحث عن حمقى !

— توقف ، يا بكتاي ، ولنتحدث .

ومضى هذا ، غير راغب في سماعه .

— ستمثل امام المحكمة !

— لأفضل امام المحكمة من هذا الوضع — كشّر بكتاي ، ولم يعد يلتفت .

— انك فارّ !

اما هذا فكان لا يزال يحثّ خطاه .

— أمثالك أعدموهم في الجبهة رميا بالرصاص !

وواصل ذاك خطاه .

ـ قف ، أقول لك ! ـ أمسك تاناباي بردته .

فنفض ذاك يده ، ومضى أبعد .

ـ لا أسمح لك ، انت لا تملك حقا ! ـ جذبه بقوة من كتفيه ، وفجأة عوّمت الجبال البيضاء حواليه ، في عينيه واظلمت في الدخان . كانت الضربة المفاجئة ، غير المتوقعة ، تحت الفك ، قد القته أرضا .

وحين رفع رأسه الذي كان يدور ، كان بكتاي قد اختفى وراء اليفاع .

ومضت وراءه سلسلة واحدة لآثار قاتمة .

ـ ضاع الفتى ، ضاع ، ـ جعل تاناباي يئّن ، ناهضا على أربع . وقام . كانت يداه ملطختين بالوحل والثلج .

والتقط نفسه . وجمع قطيع بكتاي وساقه مكتئبا ، منكس الرأس ، الى حيث مرعاه هو .

١٧

ارتحل فارسان من القرية متجهين الى الجبال . كان أحدهما على الحصان الأشقر ، والآخر على حصان كميت . وكان ذيلا حصانيهما قد رُبطا بعقدتين ، فقد

كان الطريق طويلا . وكان الوحل المختلط بالثلج يبقبق ، ويتطاير من تحت الحوافر كتلا ورذاذا .

لقد مضى غولساري بعنان قوي مشدود وثيقا ، وبخطو حازم ، مكين . فلقد شبع الرهوان وقوفا ، فيما كان صاحبه مريضا . انما ارتحل الآن عليه لا صاحبه ، بل شخص آخر لا يعرفه هو ، شخص قد غاص في معطف جلدي ، وممطر من التاربولين مفتوح الياقة ارتداه فوق المعطف . ومن ملابسه كانت تفوح رائحة الاصباغ والمطاط . والى جانبه كان تشورو قد اعتلى صهوة حصان آخر . وقد حدث هذا احيانا ــ فقد تنازل تشورو عن الرهوان للرفيق القادم من المركز المنطقي . وبالنسبة لغولساري ، في الحقيقة ، كان الأمر سواء : من الذي يمتطيه . فمنذ ذلك الوقت ، وحين أخذ من القطيع ، وفصل عن صاحبه القديم ، كان قد امتطى صهوته كثير من الناس المختلفي الطبائع والمشارب ــ اناس طيبون واناس غير طيبين ، مريحون أو غير مريحين في السرج . بل ووقع في أيدي المتهورين . كم كانوا حمقى على ظهر الحصان ! يستحثه أحدهم لغاية ما يستطيع من الجري السريع ثم يجذب اللجام فجأة ، فيشب الحصان على عقبيه ، ومن جديد يستعجله مسرعا للغاية ليوقفه ، شادا باللجام ،

من جديد ، بأقصى قواه . انه هو نفسه ، هذا الراكب ، لا يعرف أية أعمال غريبة يقوم بها ، كل ما يريد هو أن يراه الجميع ممتطيا صهوة الرهوان . لقد اعتـاد غولساري على كل شيء . شيء واحد ـ كان همّه الآن أن لا يقف طويلا في الاسطبل ، فيسام ، ويكلّ ركودا . وكانت لا تزال تعيش فيه وتمور تلك الشهوة العريقة وذلـك التحـرق الاكـّال القديـمـ الركض ، الركض ، الركض . اما من يحمل على ظهره ، فهذا الامر سيان بالنسبـة له ، انه لا يهمـه . لكن الحال كان مختلفا بالنسبة الى من يركبه ، فلم يكن بالنسبة له سواء على أي حصان يرتحل . فما دام قـد اعطـوه الرهوان الاشقرـ فهـذا يعني انهـم احترمـوه ، وهـابوه . فغولساري قويّ وجميل . وراكبه يشعر بالراحـة والطمأنينة عليه .

وفي هذه المـرة حمل الرهـوان المدعي العام للمنطقة : سيغيزبايف ، المرسـل الى الكولخـوز ، مفوضا . وقد اصطحبه المنظم الحزبي للكولخوز ـ هذا يعني ، ايضا ، الاحترام والتقديـر . ويصمـت المنظـم الحزبي ، يخـاف ان يرفـع رأسه ، ويخـاف الحديث ذاته ، فالامـور سيئـة مع التوالد في شؤون تربية الاغنام . بل في غاية السوء . حسنا ، اذن دعـه

يصمت . دعه يهاب . فلا داعي يدعوه لأن يزج نفسه في احاديث فارغة ، فالأسفلـــون ينبغي ان يهابـــوا الأعليين . وبخلاف ذلك لن يكون أي نظام . والى ذلك فيوجد ثمة من يعامل ببساطـة بمرؤوسيـه ، ولكنه يتلقى من هولاء المرؤوسين بالذات ، فيما بعد ، تلك الضربات التي يتطاير منه التراب من جراءها ، كما من الملابس العتيقـــة . ان السلطـــة ـ قضية كبيـرة ، مسؤولة ، وليس بمستطاع أيما أحد تحملها .

ارتحل سيغيز بايف بمثل هذه الافكار ، مهتـــزاً في السرج على ايقاع خطوات الحصان ، ولا يمكن القول انه كان في حال معنوية واطئة ، بالرغم من انه ماض في مهمة تفتيشية الى رعاة الاغنام ، وبالرغم من انه كان يعرف انه لن يلقى الكثير مما يسره . لقد التحم الشتاء بالربيع وجعل يصطرع معه ، ولا يريد أحدهمـــا أن يتنازل للآخـر ويخلي لـه المكان ، وفي هذا الاصطراع تتألم في الاكثر ، الاغنام ، فتموت الصغار ، وتمـوت الأمهات العجفاوات ، ومـــا من طريق آخـــر ، ولن تستطيع ان تفعل شيئا . كل عام يقع مثل هذا الامر . والكل يعرف ذلك . ولكن ما دام قد ارسل مفوضـا مسؤولا ، اذن فانــه ملــزم ان يستذنب أحدا ، وان يضعه أمام المسؤولية . وفي مكان ما في خفايا الروح

العميقة كانت تستخفي فكرة تقول ان هذه النسبة العالية من موتان الماشية في المنطقة ، انما هي في صالحه . ذلك انه في خاتمة المطاف ليس هو ، المدعي العام المنطقي ــ وكل ما هو عضو مكتب لجنة المنطقة الحزبية ، ــ ليس هو بالمسؤول عن الوضع في تربية الماشية . انما السكرتير الأول ــ هو الذي يجيب عن ذلك ، هو المسؤول . فهذا الذي لا زال حديث العهد في المنطقة ، هذا بالذات . . دعه يجيب ! اما هو ، سيغيزبايف ، فليتفرج ، ولينتظر . واولئك الذين يتربعون في مقاعد المسؤولية العالية ، فوق ، دعهم ، هم ايضا ، يروا ــ أفلم يخطئوا حين بعثوا سكرتيرا من خارج المنطقة . لقد استاء سيغيزبايف حين حدث هذا ، ولم يستطع ان يرضخ أو يهادن كونهم قد تخطّوه بهذا الشكل . انه هنا منذ زمن طويل في الادعاء العام ، وقد أثبت ، أكثر من مرة ، فيما يبدو ، لأي شيء هو مؤهل وعلى أي شيء هو قادر . لكن لا بأس ، ان لديه الاصدقاء الذين سيسندونه عند الضرورة . لقد حان الحين لأن ينتقل الى العمل الحزبي ، فقد شاب هو وشبع جلوسا في مقعد المدعي العام المنطقي . . . أما الرهوان فكان رائعا يتهادي مثل سفينة ، لا يعوقه لا وحل ولا أوساخ . وكان حصان

المنظم الحزبي قد تغطى برغوة ، اما الرهوان فهو انما بدأ يندى ليس الا . . .

اما تشورو فكان يفكر بأموره ، هو الآخر . كان يبدو عليه ان صحته في غاية السوء . فالصفرة قد طفحت على وجهه المرهق تماما وعيناه قد غارتا في موقيهما . كم من السنين كان قلبه يعذّبه ، وكلما امتدّ به العمر ، كان الأمر يسوء اكثر فاكثر . وكانت أفكاره مزعجة ، مؤلمة . أجل ، لقد تبيّن أن تاناباي كان محقّا . فهذا الرئيس يصرخ ، ويضج ، وما من جدوى في صراخه وضجيجه . وكان يقضي اكثر وقته في المركز المنطقي ، وهو يزعم باستمّرار أن لديه أمورا ما هناك . ينبغي وضع سؤال عنه في الاجتماع الحزبي ، ولكن في المركز المنطقي يوصون بالترّيث . ولكن لِمَ التريث ؟ انهم يقولون ، كأن آلدانوف نفسه يريد ان يغادر عمله ، ألعله بسبب ذلك ؟ لوغادر لكان أفضل . وبالنسبة له ، هو تشورو ، آن أوان تركه العمل ايضا . فآي نفع يُرجى منه ؟ انه مريض أبد الوقت وقد جاء سامنصور في العطلة ، وهو الآخر ينصحه بترك العمل أيضا . وبالطبع ، فترك العمل ممكن ، لكن والضمير ؟ ان سامنصور فتى ليس بالغبّي ، والآن هو يميّز الامور على نحو أفضل من أبيه . فباستمرار

يناقش هو ويوضح كيف ينبغي ادارة المزرعة التعاونية واقتصادها . انهم يدرّسونهم علوما نافعة ، طيبة ، ويمكن ، مع مرور الزمن ، أن تصبح الامور والحال على ما يعلّمهم أساتذتهم ، ولكن ريثما يُجرِّب ذلك ، ويختبر ، ويقرّر ، ـ فان الاب سيكون قد جاد بروحه ، وغادر هذه الدنيا . وليس له أن يزوغ من حزنه وبلواه هذه الى أيما مكان . فمن نفسك لن تهرب ، ولن تختفي . ثم ما سيقول الناس ؟ لقد وعد ، وشجعّ ، وورّط الكولخوز في ديون يصعب الأيفاء بها ، ـ أفيغادره للراحة الآن ؟ كلا ، لن تكون له راحة ، الأفضل ان يبقى حتى النهاية . سيهبوّن لمساعدته ، فمثل هذا لن يستمرّ طويلا . فقط لو اسرعوا للعون ! ولو كان ذلك العون بشكل حقيقي ، وليس هكذا ، مثل هذا الذي أتى . سنحاكم ، يقول ، لقاء تدهور الحال : طيب ، حاكم ! ولكن الآمور بالاحكام والعقوبات لن تصلح . انه يرتحل متجهما ، مقطّب الجبين ، لكأن هناك ، في الجبال ، ليس سوى المجرمين ، وهو لوحده يناضل من اجل الكولخوز... لكنه في الحقيقة يبصق على كل شيء ، فالأمر لا يهمّه ، انما هو يتصنع مظهرا ليس الا . ولكن جرّب أن تقول ذلك !

١٨

كانت الجبـــال تقف في العتمـــــة الرمادية . لقد اظلمت ، منسية من قبل الشمس واقتمّت في اعاليهـا على نحو متجهـــــم ، مثل عمالقـــة غاضبين . وكانت الرطوبة والعكارة تسود الأماكن حوالها .

لقد ابتأس تاناباي في حظيرته هـذه . ليس الا البرد ، وضيق النفس . وقـــد ولدت في الحال عــدة امهات ، ولكن لم يكن ثمة مكان لتنقل هذه الحمـــلان اليه . حتى ولو تصرخ صراخــــا ، وتلطم الخـــدود . ضوضاء ، وثغاء ، وزحامٌ . والكل يريدون الأكل ، الكل يريدون الشرب ، ويتهاوون موتى كالذباب . والى ذلك فلازالت الزوجة راقدة بحقو محطوم . كانت تريد أن تنهض ، ولكنها لا تستطيع ان تنتصب بجذعها . فليكن ما يكون . لم تعد ثمة أيما قوى .

وبكتاي لم يبارح ذهنه قط ، فكان حقده العاجز عليه يخنقه خنقــــا . لا لانه انصرف ــ فهـــــذا ما يستحقه ، ولا لأنه هجر قطيعه ، مثلما يهجر طائـــر الوقوق بيضه في عشر الغير ــ ففي خاتمـــة المطاف سيرسلون راعيا آخر ، وسيأخذون أغنامه ، وانمـــا لأنه لم يستطع أن يجيب بكتاي بذلك الشكـــل الذي

لانفرط معه كرشه من العار والخزي . بذلك الشكل الذي لن يبتهج معه ، بعد هذا ، بنور العالم الابيض . الصبي الغـــر ! ضعيف الارادة ! لكنـــه هو تاناباي ، الشيوعي العجوز ، الباذل كل حياته للكـــولخوز ، لم يجد ما يكفي من الكلمات ويناسب ، لكي يجيبه كما ينبغي . لقد رمى بعصا الرعاة ، وانصرف الغرّ ! أو فكّر تاناباي ، آنذاك ، أنه سيحدث مثل هذا ؟ أتصور هو ، وقتا من الاوقـــات ، ان أحـــدا ما سيضحـك وسيسخر من قضيته المصيرية ؟

«كفى !» ــ اوقف هو سيل أفكاره ، ولكن بعد دقيقة ليس الا ، عاد من جديد الى ذات الافكار .

ها قد ولدت ام أخرى ، أنجبت توأمين لطيفين . ولكن الى أين بهما ؟ فالضرع عند الأم يابس ، ولكن من اين يمكن له ان يدرّ حليبا ؟ اذن ، وسيمـــوت هذان ايضا ! ايه انها المأســـاة ، الكارثة ! أما هناك فترقد الحملان الميتة ، المتجمّدة من البرد . وجمـــع تاناباي الجثث ، ومضى ينقلها . وها قد دخلت ركضا اليه بنته وقالت لاهثة :

ــ أبتاه ، لقد قدم الينا رؤساء .

ــ دعهم يقدمون ، ــ قذف تاناباي بكلماته . ــ امضي ، انت ، انظري حال أمك .

واذ خرج تاناباي من الحظيرة ، رأى فارسين .

«أوه ، غولساري ! – سُرّ هو . وعزف في صدره الوتر القديم ودوى عاليا . – كم من الوقت لم نتلاق ! انظر كيف يمضي ، لا زال هو هو !» ومن القادمين كان لا يعرف الا تشورو . اما الآخر ، في المعطف الجلدي ، والذي ارتحل على الرهوان ، فلم يكن يعرفه . لا بد أنه أحدهم من المنطقة .

«أحم – تفضلوا . لقد وصلتم اخيرا .» بدأ يفكر بتشف . هنا ، كان يمكنه أن يجأر بالشكوى ، وان يفرج عن نفسه بالبكاء وبلعن نصيبه وحظّه في هذه الحياة ، ولكن لا ، لن يئن ، دعهم يخجلون ، دعهم يتضرجون استشعارا بالخزي . أَوَ ممكن ، حقا ، بهذا الشكل ؟ رموه للموت ، وها هم الآن قادمون بعد كل ذلك ...

لم يعد تاناباي ينتظر حتى يصلوا ، فمضى وراء ركن الحظيرة ، وألقى بالحملان الميتة في كومة . ورجع غير مستعجل .

أما القادمان فقد كانا في الفناء . وكان حصاناهما يتنفّسان بعسر . وكان تشورو يبدو في مظهر يرثى له ، مظهر المذنب الذي يثير الشفقة . لقد كان يعرف انه سيلزمه أن يجيب أمام صديقه عن كل هذا . أما

ذاك الذي على الرهوان فكان غاضبا متوعدا ، بل حتى لم يحيـّه . وما لبث ان انفجر على التو :

ـ يالها من شناعة ! في كل مكان مثـل هذا ! انظر ما الذي يجري هنا ! ـ دهش باستيباء ، متوجها بالكلام الى تشورو . ثم عاد يخاطب تاناباي . ـ لماذا هكذا ، أيها الرفيق ، ـ والتفت الى تلك الجهة ، حيث رمى تاناباي بالحملان النافقة ، ـ كيف أنت راع شيوعي ، وحملانك تنفق ؟

ـ أما هي ، الحملان ، فعلى الأرجح ، لا تعرف أني شيوعي . ـ قالها تاناباي ، ساخرا ، لاذعا ، وفجأة ، وعلى حين غرة كما لوان نابضا ما انكسر فيه ، فجعلت روحه تقفر ، وبدأت تستولي عليه لامبالاة مريرة .

ـ يعني كيف ؟ ـ تضرّج سيفيزبايف . ولاذ بالصمت ـ هل تقبلت الالتزامات الاشتراكية ؟ ـ وجد ، في النهاية ، ما يقوله .

ـ تقبلّت .

ـ ما الذي قيل هناك ؟

ـ لا أتذكّر .

ـ ولهذا تنفق عندك الحملان ! ـ وأومأ سيفيزبايف بمقبض السوط ، مشيرا الى تلك الجهة ،

مرة اخرى ، ونهض بالركاب ، متشجعا ، بامكانية تعليم هذا الراعي الوقح ، واعطائه درسا . ولكنه في البداية انقض على تشوررو بالذات : ـ الى أين تنظر ؟ الناس لا يعرفون حتى واجباتهم . يخرقون الخطط ، يقتلون الماشية . بماذا تشتغل هنا ؟ كيف تربي شيوعيبيك ؟ اي شيوعي هو ؟ انا أسألك أنت !

وصمت تشورو ، منكسا رأسه . وثنى بيديه مقاود العنان .

ـ كما هو موجود ، ـ أجابه تاناباي بهدوء .

ـ هذه هي المسألة ، كما هوموجود ! أجل ، انك لمؤذ ! انك تقضي على ثروة الكولخوز . أنت عدو للشعب . في السجن مكانك وليس في الحزب . انك تسخر من المسابقة الاشتراكية وتستهزئ بها .

ـ اي نعم ، في السجن مكاني ، في السجن ـ أكّد تاناباي بنفس الهدوء . وجعلت شفتاه تتواثبان مرتجفتين من نوبة الغضب المحتدم احتداما ، والمنفجر فيه من الأساءة ، من الأحزان والمرارة ، من كل ذلك الذي منه طفح كأس صبره . . طيب ! ـ وسمّر نظره على سيغيز بايف ، جاهدا أن يكبح غضبه ويلمّ شفتيه المرتجفتين . ـ ما الذي ستضيف الى هذا كله ، أيضا ؟ هل من مزيد ؟

ـ علامَ تتحدث بهذا الشكل يا تاناباي ؟ تدخّل تشورو . ـ علامَ ؟ أوضح كل شيء بتعقّل !

ـ هكذا ! يعني ، أَوَ لك أيضا ينبغي ان اوضح الامور ؟ قل لي : علامَ جئت الى هنا ، يا تشورو ؟ ـ بدأ تاناباي يصرخ . ـ لماذا جئت ؟ أسالك أنت بالذات ؟ ألأجل ان تقول ان الحملان عندى تموت ؟ أنا نفسي أعرف ذلك ! أم لأجل ان تقول انني غاطّ بالاوحال والعذاب حتى الهامة ؟ أنا أعرف ذلك أيضا ! ام لاجل ان تقول انّي كنت أحمق طيلة حياتي وانني بذلت المستحيل من اجل الكولخوز ممزقا نفسي ؟ وهذا أعرفه أنا ايضا ! . .

ـ تاناباي ! ثُب الى رشدك ! ـ قفز تشورو الشاحب من السرج .

ـ اليك عني ! ـ دفعه تاناباي ، مبعدا اياه . ـ لأبصقنّ على التزاماتي ، على كل حياتي ! امض ! ان مكاني في السجن ! لماذا جئتني بهذا السيّد الجديد في المعطف الجلد ؟ ألأجل ان يستهزأ بي ؟ ام لأجل أن يطوّح بي في السجن ! عجّل ، أيها الوغد ، وألقني في السجن ! ـ جعل تاناباي يتحرك سريعا ، من أجل أن يختطف شيئا ما بيديه ، فاختطف المذاري ، التي كانت متكئة الى الحائط ، وانقضّ بها على سيغيزبايف . ـ

فلتولّ عني ، أيها الوغد ! ابعد ! ـ وطفق يلوّح ، وهو لم يعد يميّز شيئا ، بالمذاري أمامه .

وكان سيغيزبايف ، الذي جبن غايـــة الجبن ، يجذب الحصان ، بارتباك وبلادة ، تارة الى هنا ، وتارة الى هناك ، فكانت المذاري تضرب الحصان المشدوه في رأسه ، وترتدّ عنه ، مدوية ، لتهوى ، من جديد ، على رأسه . ولم يفهم تاناباي في سعاره الضاري هذا ، لماذا كان يرتجف رأس غولساري بتشنج وعصبية ، ولماذا كان لجامه يمزق الفم الأحمر الساخن ، ولِمَ كانت عيناه الجاحظتان من موقيهما تتخاطفان امامـــه منذهلتين ومرعوبتين تماما .

ـ وَلِّ عني ، يا غولساري ، ابعد ! دعني أبلغ هذا السيد في الجلد ! ـ زأر تاناباي ، موجّها الضربة تِلوَ الضربة على رأس الرهوان البرئ .

وتعلقت المساعدة الأفتى سنا ، وقد وفقت لأن تهرع في الوقت المناسب ، تعلّقت بيديه ، محاولة ان تختطف المذاري ، ولكنه ألقاها أرضا .

ـ الى الوراء ! فلنفرّ ! انه سيقتل ! ـ ارتمى تشورو حاجزا بينه وبين سيغيزبايف ، الذي كان قد وفق لأن يثب الى السرج .

وأهوى تاناباي عليه بالمذاري ، لكن الفارسين

كانا قد أطلقا حصانيهما في فرار سريـــــع من الفناء . فطاردهما كلب بنباحه ، وهو يتشبّث بالركب ، وبذيلي الحصانين .

أما تاناباي فقد ركض اثرهما ، يتعثر ، واختطف في ركضه كتلة من الطين ، ورماها في أثرهما ، دون ان يكف عن الزعيق :

ـ في السجن مكاني ! في السجن ! ولّوا ! ولّوا من هنا ! في السجن مكاني ! في السجن !

ورجع بعدئذ ، وهو لا يزال يتمتم ، لاهثـــا ، مختنقا : «في السجن مكاني ، في السجن !» والى جنبه كان كلبه يسير ، مفتخرا ، معتزّا بشعور من قد أدى واجبه .كان ينتظر استحسان صاحبه ، ولكن هذا لم يلاحظه ، ولم يلق له بالا . ولملاقاته ، خفت جايدار ، معتمدة على عصاها ، تعرج ، شاحبة ، مرعوبة :

ـ ماذا فعلت ؟ ماذا ارتكبت ؟

ـ عبثا .

ـ اي عبث ؟ بالطبع عبثا .

ـ عبثا ضربت الحصان .

ـ اانت في كامل عقلك ؟ أتعرف ماذا ارتكبت ؟

ـ أعرف . أنا مؤذ . أنـــا عدو الشعب ـ صار يتكلم ، مقاوما لهاثه ، وما لبث أن صمت ، وابتدأ ،

وقد غطّى وجهه بيديه ، ينتحب بمرارة وبصوت عال .

ــ اهدأ ، اهدأ ! ــ سألته زوجته ، باكية سوية معه ، ولكنه كان لا يزال يبكي ويبكي ، مهتزاً من جانب الى آخر . ولم تكن جايدار قد رأت ، من قبل ، ولامرة ، تاناباي باكيا . . . .

١٩

اجتمع مكتب اللجنة المنطقية الحزبية في اليوم الثالث بعد هذه الواقعة الاستثنائية .

كان تاناباي باكاسوف جالسا في قاعة الاستقبال ، وهو ينتظر دعوته الى الغرفة ، التي كان الحديث عنه يدور خلف بابها . لقد فكّر كثيرا في هذه الأيام ولكنه لم يستطع ان يقرّر بعد : أمذنب هو ام لا . لقد فهم انه قد ارتكب عملا شائنا ، لقد رفع يده على ممثل السلطة ، ولكن لو كان الأمر مقتصرا على ذلك فقط ، لكان كل شيء سهلا . فلقد كان مستعدا ان يتلقى ، لقاء سلوكه غير اللائق ، أيما عقوبة . انما هو ، وقد انضاع لسورة الغضب ، قد قذف في الريح بكل آلامه وعذاباته من أجل الكولخوز ، ودنس كل همومه ومعاناته وتأملاته . فمن سيثق فيه الآن ؟ من سيفهمه الآن ؟ «ولكن لعلهم ، على كل حال ، سيفهمونه ؟» ــ

برقت عنده بارقة أمل . ــ سأحكي كل شيء ، عن هذا الشتاء ، عن الحظيرة والمخيم العتيق المهلهل ، عن عدم وجود العلف ، عن الليالي المؤرقة ، عن بكتاي . . . دعهم يميزوا الأمر ويتفحّصوه . أفيمكن بهذا الشكل ادارة المزرعة التعاونية واقتصادها ؟» ولم يعدْ يأسف ، في هذه اللحظة ، أن الأمر قد جرى بهذا الشكل . «دعهم يعاقبوني ــ طفق يفكر . ــ فمقابل هذا ، سيكون الأمر أسهل على الآخرين . لعلهم بعد هذا سيلقون على رعاة الاغنام نظرة الرعاية ، ولعلهم سيهتمون بأمر معيشتنا ، بأحزاننا وكوارثنا» . ولكن بعد دقيقة استسلم للعنف من جديد ، وهو يتذكر كل ماعاناه ، فضغط جُمعي يديه بين وكبتيه ، وأكد بعناد لنفسه : «كلا ، لست مذنبا في أيما شيء ، كلا !» ومالبث ان وقع بعد ذلك من جديد ، في دوامة الشك . . .

وهنا ، في قاعة الاستقبال بالذات ، جلس ، لأمر ما ، ابراهيم أيضا . «ولكن لأي شيء يلزم هذا هنا ؟ لقد طار مثل صقور الجثث على جيفة» . ــ حقد تاناباي ، مُشيحا بنظره عنه . أما ذاك فقد لزم الصمت ، وتأوه ، وهو يطالع ببصره رأس الراعي المطرق .

«لماذا يطيلون ؟ ـ طفق تاناباي يفكر ، وهو يتحرك متململا على الكرسي . ـ ما هو المزيد ـ الضرب . ماذا يعوقكم اذن ، اضربوا ! » وهناك ، وراء الأبواب المغلقة ، كان يبدو أن الجميع كانوا في اجتماع . وكان آخرهم الذي دَلفَ الى الغرفة قبل بضع دقائق هو تشورو . عرفه تاناباي من الشعر اللاصق بساقي جزمتيه الطويلتين من اللباد . كان ذلك هو الشَّعَر الضارب الى الصفرة ، والذي كان يزهو به جلد غولساري . «أفرط في السرعة ، فيما يبدو ، وعرق غولساري حتى رغى» ـ طفق يفكر ، ولكن دون ان يرفع رأسه . وسمع وطأ الجزمتين اللتين علق بهما فيضُ قطرات عرق الحصان ، وشيء من شعره ، سمع وطأهما الواهن بجنبه ، ثم ما لبثت ان اختفت الجزمتان وراء الباب.

ومضى وقت طويل ، ريثما أطلت السكرتيرة ناحيته :

ـ ادخل ، أيها الرفيق باكاسوف .

فانتفض تاناباي ، ونهض ، وقد أصمّت سمعه ضربات قلبه العنيفة ، ومضى الى الغرفة تحت وطأة هذا القصف غير المنقطع في اذنيه . وطغى على عينيه الضباب . ولم يميّز تقريبا أويشخّص وجوه الناس الجالسين هنا .

ـ اجلس . ـ أشار السكرتير الأول للجنة المنطقية كاشكاتايف لتاناباي ، ليجلس على كرسيّ عند نهاية المنضدة الطويلة .

جلس تاناباي ، ووضع يديه المتثاقلتين على ركبتيه ، وجعل ينتظر ريثما يتبدّد الضباب في العينين . ثم أجال بصره على طول المنضدة . وعلى اليد اليمنى للسكرتير الاول ، كان قد جلس سيغيزبايف بوجه متجبّر ، متكبّر . واستشعر تاناباي بتوتّر بالغ من مقته لهذا الانسان ، بحيث ان الضباب الذي كان جاثما في عينيه ، قد تقشّع مرة واحدة . وتبينت وجوه الجالسين ازاء المنضدة بجلاء وتمييز . وكان اكثر الوجوه اظلاما هو وجه سيغيزبايف الاحمر القاتم ، اما اكثرها شحوبا وخلوا من الدم تماما فكان وجه تشورو . وكان هذا جالسا في الطرف الأقصى ، أقرب الجميع الى تاناباي . كانت يداه المعروقتان ترتجفان بعصبية على غطاء المائدة الاخضر من الجوخ . اما رئيس الكولخوز آلدانوف ، الجالس قبال تشورو ، فكان يئز نفسه بضجيج وانزعاج ، وهو يجيل طرفه مقطبا ، فى الجوانب . ما كان يخفي موقفه من القضية المطروحة . اما الآخرون فكانوا لا يزالون ينتظرون . وأخيرا رفع السكرتير الأول نظره عن الأوراق في الاضبارة .

ـ نباشر بالقضيــــــة الشخصيـــــة للشيوعي باكاسوف . ـ قال هو ضاغطا على الكلمات بقوة .

ـ أجل ، اذا أمكن القول ، الشيوعي . ـ نبس أحدهم بخبث وهو يسخر .

«حاقدين ! ـ لاحظ تاناباي محاورا نفسه . ـ لاتتوقع منهم لا رحمة ولا شفقة . ولكن لِمَ يتعين عليّ انتظار الشفقة ؟ او أنا مجرم ؟» .

لم يكن يعرف أنه في حل قضيته ومعالجتها ، سيصطدم جانبـــان متنافسان بخفية ، وكل واحـــد منهما مستعدّ لأن يستثمر بطريقته الخاصة هذا الحادث المهين . يتمثل أحـــد الطرفين في شخص سيغيزبايف وأنصاره ، وقد أراد هذا الطرف أن يمارس مقاومـــة السكرتير الجديد ، وأن يختبر امكانية اخضاعه ، ولو في البداية . أمـــا الطرف الآخر ـ المتمثل في شخص كاشكاتايف ذاته ، ـ الذي حزر طمع سيغيزبايف في الاستيلاء على منصبه ، ـ فقـــد فكـــر في الأمر مليا للتوصل الى تلك الطريقة لمعالجة هذه القضية ، والتي بموجبها لا يضحّي هو بنفسه أو بمنصبه من جهة ، كما لا يؤزم العلاقة مع هؤلاء الناس الخطرين من جهة اخرى .

وبدأ سكرتير اللجنـــة المنطقيـــة قراءة مذكرة

سيغيزبايف . وقد وصفت ، على نحو مفصل ، في هذه المذكرة ، كافة الجرائم المقترفة بكلمات وأفعال تانابـاي باكاسوف ، راعي كولخوز «الأحجار البيضاء» . ولم يكن في المذكرة ما يستطيع تاناباي رفضه ، لكن لهجتها ، وطريقة صياغة الاتهامات الموجّهة له اقتادته الى اليأس . وجلّله العرق ، اذ وعى ضعفه التام أمام هذه الورقة الرهيبة . كانت مذكرة سيغيزبايف قد أظهرت أنها أخطر من سيغيزبايف ذاته . فضدها لن تهوى بالمذاري في يديك . وكان كل ما أزمع تاناباي قوله في دفاعه وتبريره قد انهار ، في لحظة واحدة ، وفقد في عينيه كل معنى ، واستحال الى شكاوى بائسة لراع من نكباته الاعتيادية . او لم يكن غبيا ؟ أي قيمة لدفاعه وتبريراته أمام هذه الورقة الخطيرة ، الرهيبة ! ضدّ من فكّر هو ان يحارب ؟

ـ أيها الرفيق باكاسوف ، أتعترف بموضوعية الحقائق المقررة في مذكّرة عضو المكتب الرفيق سيغيزبايف ؟ ـ سأله كاشكاتايف ، وقد أنهى قراءة المذكّرة .

ـ نعم ، ـ أجاب تاناباي بصوت خافت .

ووجم الجميع . وبدا ، كما لوان الجميع كانوا

في رعب من هذه الورقة . وقاس آلدانوف الجالسين ازاء المنضدة بنظرة تحدّ صارخ ، كأنه يقول : أفلا ترون ، كما يقال ، ما يحدث هنا .

— أيها الرفاق ، أعضاء المكتب ، ان سمحتم ، سآتي بالمزيد من التوضيحات لجوهر القضية .— بدأ سيغيزبايف كلامه بحزم .— اني أريد تحذير بعض الرفاق ، على الفور ، من مغبّة المحاولة المحتملة لوصف أفعال الشيوعي باكاسوف بأنها مجرد تصرف من تصرفات الشقاوة . لو كان الأمر كذلك ، فثقوا باني ما كنت أرفع القضية ، إذ ذاك الى المكتب : فمع الاشقياء لدينا وسائل اخرى للنضال . والامر ، بالطبع ، ليس في مشاعري المُهانَة . فورائي يقف مكتب لجنة الحزب المنطقية ، وورائي في القضية المعنية ، ان اردتم ، يقف الحزب كله ، وأنا لا أستطيع السماح بهتك سمعته . اما الشيء الأساسي — فهو ان كل هذا انما يحكي عن استهتار وتدهور عملنا السياسي — التربوي بين الشيوعيين وغير الشيوعيين ، عن النقائص الجدّية في العمل الايديولوجي للجنة المنطقية . وعلينا جميعا أن نجيب عن طابع أفكار هؤلاء الشيوعيين الاعتياديين ، البسطاء أمثال باكاسوف . وسيظلّ علينا أن نوضح : أهو لوحده

هنا ، أم أن لديه شركاء في تفكيره ؟ ما مغزى تصريحه «سيّد جديد في معطف جلدي !» فلنضع جانبا المعطف . ولكن وفقا لما يقوله باكاسوف ينتج انني ، أنا الانسان السوفييتي ، المفوض الحزبي ـ سيد جديد ، بارون ، جلاّد للشعب ! فتأملوا ! أتفهمون ماذا يعني هذا ، وماذا يختفي وراء هذه الكلمات ؟ أرى ، ان التعليق هنا زائد ... والآن ، عن جانب آخر من الموضوع . فأنا ، وقد بتّ مكروبا غاية الكرب من الحبوط البالغ في تربية الماشية في كولخوز «الأحجار البيضاء» ، وأنا ، في معرض الجواب عن كلمات باكاسوف الشائنة ، في كونه نسى وأهمل التزاماته الاشتراكية ، أنا أسميته مؤذيا وعدوا للشعب ، وقلت ان مكانه ليس في الحزب وانما في السجن . اني أعترف أنني قد أهنته ، وكنت مستعدا للاعتذار أمامه . ولكني الآن اقتنعت أن الامر انما هو بالضبط كذلك ، ولن أسحب كلماتي ، وأؤكد أن باكاسوف ـ عنصر خطر ، ذو مزاج معادٍ ...

ما الذي لم يُعانِه تاناباي ؟ لقد خاض الحرب من بدايتها حتى نهايتها ، لكنه لم يكن يتصوّر ولم يخبر أن قلبه يمكن أن يصرخ مثل هذا الصراخ الذي صرخه الآن . وتحت رحمة هذا الصراخ الذي كان يتردد

قصفا لا يفتر في الأذنين ، كان قلبه يهبط ، وينهض ، ويتسلق ، ويتدهور ، ومن جديد يحاول النهوض ، لكن الرصاص قد خرقه عن كثب .. «يا الهي ، – قرع رأس تاناباي ، – الى أين مضى كل شيء ، كل شيء مما كان مغزى حياتي ، ومغزى كل أعمالي ؟ الى اين امتد بي العمر – الى حدّ أنني أصبحت عدوا للشعب . ولكن ماذا فعلت ، كل ما فعلت اني تعذّبت وعانيت من الحظيرة ، ومن هذه الحملان المتسخة بالدمان ، ومن بكتاي الضال سواء السبيل . فمن يلزم هذا ! ..»

– آذكر مرة اخرى باستنتاجات مذكرتي . –

واصل سيغيزبايف ، مرتبا كلماته بنهج حديدي . – ان باكاسوف يكره نظامنا ، يكره الكولخوز ، يكره المباريات الاشتراكية ، يبصق على كل هذا ، يكره كل حياتنا . لقد أعلن كل هذا بصراحة ، بحضور المنظم الحزبي للكولخوز ، الرفيق ساياكوف . وفي أعماله تتوافر كذلك أركان الجريمة الجنائية – وذلك في محاولة اغتيال ممثل السلطة والتطاول عليه عند تنفيذ هذا لالتزامات خدمته . اني ألتمسكم أن تفهموني على نحو صحيح ، ألتمسكم التصديق على تقديم باكاسوف للمسؤولية القضائية بحيث لا يخرج من هنا الا تحت خفارة الميلشيا . ان أركان جريمته تتفق تماما مع نصّ

المادة الثامنة والخمسين . اما عن بقاء باكاسوف في صفوف الحزب ، فلا يمكن ان يكون حديث ، في رأيي ! ...

كان سيغيزبايف يعرف انه قد أفرط في الطلب ، لكنه قدّر أنه ان لم يحسب المكتب ضروريا تقديم تاناباي باكاسوف الى المسؤولية أمام القضاء ، فان فصله من الحزب سيكون مضمونا ، في كل الاحوال . فان مثل هذا الطلب لم يكن ممكنا أن لا يحظى بموافقة كاشكاتايف ، وآنذاك سيتقوّى موقفه ووضعه هو ، سيغيزبايف ، اكثر فاكثر .

— أيها الرفيق باكاسوف ، ما الذي ستقوله عن إثمك ؟ — سأله كاشكاتايف مُثارا .

— لا شيء . فكل شيء قد قيل . — أجاب تاناباي . — ينتج بالتالي أنني كنت وسأظل مؤذيا ، عدوا للشعب ... اذن فعلام ، والحال هذه ، معرفة بماذا أفكر أنا ؟ أحكموا بانفسكم ، قرروا ماترون ، فرأيكم أصوَب ...

— وأنت ... أتحسب نفسك شيوعيا شريفا ؟

— غير ممكن أن تثبت هذا الآن .

— وهل تعترف بذنبك ؟

— كلا .

ـ عجبا ، أتحسب نفسك أذكى الجميع ؟

ـ كلا ، بالعكس ، اغبى الجميع .

ـ اسمحوا لي بالكلام .ـ نهض من مكانه شاب بشارة الكومسومول على صدره . كان هذا أصغر الجميع سنا ، ضئيل القدّ ، ضيّق الوجه ، وقد بدا مظهره اكثر فتوة ، فكان يتراءى صبيّا ...

وليس الا الآن لاحظه تاناباي . « العن ، أيها الفتى ، لا تُشفق ، ـ قال هو في سرّه .ـ فلقد كنت أنا نفسي مثلك ، وقتا من الأوقات ، ولم أشفق ... » .

ـ تكلّم يا كريمبيكوف .

ـ إني لا آستحسن تصرّف الرفيق باكاسوف ولا أؤيده . واني لأرى انه يجب ان يلقى العقوبة الحزبية المقتضاة . بَيْد اني غير موافق أيضا وأعترض على الرفيف سيغيزبايف .ـ وقمع كريمبيكوف في نفسه الاضطراب .ـ وفضلا عن ذلك فاني أرى أنه ينبغي محاكمة الرفيق سيغيزبايف نفسه ...

ـ عجيب ! ـ قاطعه أحدهم بخشونة .ـ أَوَ هذه الانظمة عندكم في الكومسومول ؟

ـ الأنظمة عند الجميع واحدة ، ـ أجاب كريمبيكوف ، وقد تعاظم اضطرابه وتضرّج وجهه . وتلجلج ، وهو ينتقي كلماته ويقمع حصره ، وفجأة ،

وكأن ذلك بسبب يأسـه ، بدأ الكلام على نحو لاذع وحاد : ـ اي حق كان لك في اهانة كولخوزي ، راعى غنـم ، وشيوعي قديـم ؟ حاول ان تسميني عدوا للشعب ... انك توضح ذلك وتبرره بانك كنت مكروبا تماما بسبب وضع الماشية فى الكولخوز . أفلا تفترض ان الراعي لم يكن اقل كربا منك ؟ وحينما قدمت اليه انت ، فهل استرعى اهتمامك كيف يعيش هو ، وكيف تجري أموره ؟ لماذا تموت الحملان ؟ كلا ، حكما على مذكرتك ذاتها انت لم تفعل ذلك ، بل بدأت في الحال تثلبه وتشتمه . ليس خافيا على احد كيف تسير حملة توالد الاغنام في الكولخوزات بصعوبة . انني كثيرا ما أغشى هذه الاماكن وانه لمن المخجل بل والمحرج لي امام رفاقي الرعاة من الكومسومولیين اننـا نتطلب منهم الكثير ، ولكن لا نقدم مساعدة عملية . انظروا اية حظائر عندنا في الكولخوزات ، ثم كيف هي حالة العلف ؟ انني نفسي إبن راع . واني لأعرف ماذا يعني الأمر حينما تموت الحملان . في المعهد يدرسوننـا بشكل ، ولكن في الواقع تمضي كل الامور في المزارع بشكل آخر ، بالطريقة القديمة . ان قلبي ليؤلمني حين اُجيل طرفي في كل هذه الامور ! ...

ـ يا رفيق كريمبيكوف ، ـ قاطعه سيغيزبايف .

ـ لا تحاول ان تستعطفنا وتثير شفقتنا ، ان الشعور ـ هو مفهوم مطاط . ان الحقائق ، الحقائق هي اللازمة لا المشاعر .

ـ اسمح لي ، ولكن ليست هنا محاكمة لمجرم جانٍ ، وانها تحليل ومناقشة أعمال رفيق لنا في الحزب ، ـ استطرد كريمبييكوف . ـ هنا يتقرر مصير شيوعي . اذن دعونا نفكر قليلا ، ترى لماذا بهذا الشكل بالذات تصرف الرفيق باكاسوف . إن أعماله ينبغي ادانتها ، بالطبع ، ولكن كيف حدث هذا ، كيف حدث ان واحدا من أفضل مربي الماشية في الكولخوز ، وهو مَنْ كانه باكاسوف ، وصل الى مثل هذه الحياة وانحدر ؟

ـ اجلس ، ـ قال كاشكاتايف ممتعضا . ـ انك تحرفنا عن جوهر الموضوع ، أيها الرفيق كريمبييكوف. فواضح جدا للكل هنا ، في رأيي ، أن الشيوعي باكاسوف قد ارتكب جريرة بالغة السوء . فلمن يصلح هذا وبمن يليق ؟ أين شوهد مثل هذا من قبل ؟ اننا لا نسمح لأحد ان ينقضّ بالمذاري على مفوضينا ، ولن نسمح لأحد بثلب سمعة موظفينا وشغيلتنا . لكان آفضل ، يا رفيق كريمبييكوف ، لو فكرت بطرق تسوية الامور والاحوال في الكومسومول ، بدلا من الانشغال واشغالنا

بنقاشات لا موضوع لهـــا ،عن الروح والمشاعر . ان العواطـف تُعـالَج بالعواطف ، والأعمــال تُعالـج بالاعمال . ان هذا الذي سوّغه لنفسه باكاسوف ، ينبغي ان ينبّهنا وينصب آذاننا حقا . وبالطبع لا مكان له في صفوف الحزب . أيهــا الرفيق ساياكــوف ، بصفتك منظّم الكولخوز الحزبي ، هل تؤيّد كل هذه الواقعة؟ ـ سأل هو تشورو .

ـ أجل ، أوُيد ، ـ قـال تشورو الشاحــب ، ناهضا ببطء من مكانه . ـ ولكني وددت أن أشرح ...

ـ ماذا تشرح ؟

ـ أولا ، لالتمست ان نحاكم باكاسوف عندنا ، في منظمتنا الحزبية .

ـ هذا ليس بالحتم . أطلع ، فيما بعد ، أعضاء المنظمـة الحزبية على قرار مكتب اللجنة المنطقيـة . وماذا بعد ذلك ؟

ـ وددت أن أشرح ...

ـ ماذا تشرح يا رفيق ساياكوف ؟ ان اقوال باكاسوف المعادية للحزب واضحة وبيّنة . ولا شيء هنـا يستحق الشرح والايضـاح . انك أيضـا تتحمـل المسؤولية . واننا سنعاقبك عن تدهور العمل في تربية الشيوعيين . لماذا حاولت اقناع الرفيق سيغيزبايف

بعدم طرح القضية على جلسة المكتب ؟ هل اردت ان تخفي هذه الواقعة ؟ أية شناعة ! اجلس !

وابتدأت المناقشات . كان مدير محطة الآلات والتراكتورات في المنطقة ومحرّر الجريدة المنطقية في صف كريمبيكوف ، وقد أيداه . بل حتى لقد بدا ، في لحظة ما ، انهم سيوفقون في الدفاع عن تاناباي . ولكنه هو نفسه ، المسحوق والمشوش ، لم يسمع أحدا . كان يسأل نفسه باستمرار : «الى أين ولى ما كنت أعيشه وأعيش به ؟ فانه ليبدو هنا ، أن الجميع في شغل شاغل ولا تهمهم أمورنا وما يلم بنا في عملنا مع قطعان الماشية وقطعان الاغنام . أي أحمق كنته ! لقد بذلت حياتي من أجل الكولخوز ، من أجل الأغنام والحملان . والآن لا يؤخذ كل هذا بالحسبان . الآن أنا خطر ! طيب ، الى الشيطان بكم جميعا ! اعملوا معي ماشئتم ، ان كانت الأمور ستكون أفضل حالا بذلك ، لن آسف على شيء . اطردوني بخشونة ! فالآن لدي نهاية واحدة ، العنوا ماشئتم ، لا تشفقوا ...»

وتكلم رئيس الكولخوز آلدانوف . ورأى تاناباي وفهم ، من تعبير وجه الرئيس ومن اشاراته ، أنه يشتم أحدا ما ، ولكن من بالذات – لم يستطع ان

يفهم ، حتى سمع الكلمات : «القيد القفلي ... الرهوان غولساري ...»

ـ ... وماذا تتصورون ؟ ـ قال آلداتوف مستاءا . ـ لقد هدّد صراحة بتحطيم رأسي لا لشيء الا لأنا كنّا مضطرين لوضع القيود في قدمي الحصان . أيها الرفيق كاشكاتايف ، أيها الرفاق أعضاء المكتب ، بصفتي رئيسا للكولخوز ألتمسكم تخليصنا من باكاسوف . حقا ، ان مكانه في السجن . انه يكره كافة الموظفين القياديّين . أيها الرفيق كاشكاتايف ، يوجد وراء الباب شهود يستطيعون تأكيد تهديدات باكاسوف بخصوصي . أممكن دعوتهم ؟

ـ كلا ، لا داعي . ـ أجابه كاشكاتايف مصعرا خدّه بتقزز . ـ يكفي هذا . اجلس .

وشرعوا بعد ذلك بالتصويت .

ـ مُدرَجٌ اقتراح واحد : فصل الرفيق باكاسوف من عضوية الحزب . من يؤيد ؟

ـ دقيقة واحدة ، يا رفيق كاشكاتايف . ـ نهض كريمبيكوف باندفاع مرة اخرى . ـ أيها الرفاق أعضاء المكتب ، افلا نرتكب بهذا خطيئة كبيرة ؟ ان لدي اقتراحا آخر ـ الاقتصار على توبيخ شديد مع ادراجه في الملف الشخصي لباكاسوف ، وسوية مع ذلك ،

اعلان توبيخ لعضو المكتب سيغيزبايف لأهانته الاعتبار والكرامة الحزبية والأنسانية للشيوعي باكاسوف ، ولأسلوب عمل سيغيزبايف غير المسموح به كمفوض للجنة المنطقية .

- ديماغوغية ! - هتف سيغيزبايف .

- اهدأوا ، أيها الرفاق ، - قال كاشكاتايف . - انكم موجودون في مكتب اللجنة المنطقية وليس في بيوتكم ، أرجوكم التقيد بالضبط . - كان كل شيء الآن قد توقف عليه ، على السكرتير الأول للجنة المنطقية . وقد حوّل هو الأمر كما كان سيغيزبايف يأمل . - تقديم باكاسوف الى المسؤولية الجنائية أمر لا أراه لازما ، - قال هو . - ولكن في صفوف الحزب لا يوجد له مكان طبعا ، والرفيق سيغيزبايف على تمام الحق في هذا . سنصوّت . مَن مع فصل باكاسوف ؟

كان عدد أعضاء المكتب سبعة . رفع ثلاثة أيديهم مع الفصل ، وثلاثة - ضده . بقي كاشكاتايف نفسه . وببطء ، رفع يده « مع » الفصل . ولم يرَ تاناباي أي شيء من هذا . لقد عرف كيف تقرّر مصيره ، حين سمع كيف خاطب كاشكاتايف السكرتيرة :

- اكتبي في المحضر : فُصل الرفيق باكاسوف من عضوية الحزب بقرار من مكتب اللجنة المنطقية .

«وهكذا ، انتهى كل شيء !» ـ قال تاناباي في نفسه ، منهارا .

ـ ولكني أصرّ على اعلان توبيخ لسيغيزبايف . ـ لم يستسلم كريمبيكوف .

كان يمكن اطّراح هذا الاقتراح جانبا ، وان لا يوضع موضع التصويت ، لكن كاشكاتايف قرّر أنه ينبغي وضعه . وكان في هذا مغزاه الخفيّ أيضا .

ـ مَنْ مع اقتراح الرفيق كريمبيكوف ؟ أرجو رفع الأيدي !

ومرة اخرى ـ كانت نتيجة التصويت ثلاثة ضد ثلاثة . ومرة اخرى ، رفع كاشكاتايف يده ، رابعا ، وأنقذ ، بهذا بالذات ، سيغيزبايف من التوبيخ . «ولكن أيفهم هو هذا ، أيقدّر هذه الخدمة ؟ من يعرفه ... انه لئيم وماكر» .

وتململ الجالسون على الكراسي كأنهم يتهيّأون للخروج . وقرّر تاناباي ان كل شيء قد انتهى ، ونهض صامتا ، دون ان ينظر لاحد ، واتجه الى الأبواب .

ـ باكاسوف ، الى أين ؟ ـ أوقفه كاشكاتايف . ـ سلّم بطاقتك الحزبية .

ـ اسلمها ؟ ـ ليس الا الآن وعى تاناباي كل ما حدث .

ـ نعم . ضعها على الطاولة . لست الآن عضوا في الحزب ، ولا تملك الحق في حملها معك .

ودسّ تاناباي يده يبحث عن البطاقة الحزبية . انشغل طويلا في البحث ، فيما قد ران الصمت . كانت البطاقة هناك ، في مكان قصيّ ، تحت الصديري ، تحت السّترة ، في محفظة جلدية صغيرة ، كانت قد صنعتها يدا جايدار . وكان تاناباي يحمل هذه المحفظة في حزام عبر كتفه . وأخيرا أخرجها من هناك ، وأدرك البطاقة الحزبية ، مدفأة من حرارة صدره وأنفاسه ، ووضعها ، دافئة ، مُشبعة برائحة بدنه ، وضعها على طاولة كاشكاتايف الباردة ، المصقولة جيدا . وتقلص اثر ذلك ، حتى صار يشعرُ بالبرودة . ومرة اخرى ، ودون ان ينظر لأحد ، جعل يحشر المحفظة تحت السترة ، متهيّئا للخروج .

ـ يارفيق باكاسوف ، ـ سمع من ورائه ، من وراء المنضدة صوت كريمبيكوف المتعاطف معه . ـ ولكن ماذا ستقول أنت في كل هذا ؟ ما هي كلمتك ؟ فانك لم تقل أيما شيء هنا . ألعل ذلك كان صعبا عليك ؟ اننا نامل أن الأبواب ليست مغلقة بالنسبة لك ، وانه عاجلا كان أم آجلا ستستطيع العودة الى الحزب . أفلا تقول لنا بماذا تفكر الآن ؟

فاستدار تاناباي ، وهو يحسّ في نفسه بالألم والحرج مما حَدث له ، أمام هذا الفتى الذي لا يعرفه ، والذي كان لا يزال يحاول على نحوما تخفيف المصيبة التي ناءت بكلكلها على كتفيه .

ـ ما يمكنني أن أقول ؟ ـ فاه بذلك بأسى . ـ لا استطيع ان اتحدث اكثر من الاخرين واقنعهم هنا . شيء واحد أقوله فقط ـ هو أني لست مذنبا في أيما شيء ، حتى ولو اني رفعت يدي ، وحتى ولو اني فُهت بكلمات غير طيبة . أما شرح ذلك لكم فلا أستطيعه . وهذا هو كل شيء ، اذن .

وخيّم صمت ثقيل .

ـ همْ . اذن ، أنت زعلان على الحزب ؟ ـ قال كاشكاتايف بضجر . ـ اذن ، فاعرف ايها الرفيق : ان الحزب قد وجهك الى الطريق الحقيقي ، وقد أنقذك من المحكمة ، ولكنك لازلت مستاء ، غير راض ! اذن ، انت لا تستحق ، حقا ، لقب عضو الحزب . ومن المستبعَد ان تكون الابواب مفتوحة لك للرجوع في المستقبل !

وخرج تاناباي من مقرّ اللجنة المنطقية هادئا في مظهره . بل هادئا جدا . وكان ذلك سيئا . كان النهار دافئا ، مُشمِسا ، وكان المساء يقترب . وقد جاء

الناس وارتحلوا في أمورهم الخاصة . وكان الأولاد يلعبون في الساحة عند النادي . وكان من المُقرف لتاناباي الآن النظر الى كل شيء ، بل وكان يشعر بالقرف حتى من نفسه . فليعجّل ، اذن ، من هنا الى الجبال ، الى البيت . وليسرع ، مخافَةَ أن يلمّ به ويدهاه ما هو أسوأ .

وفي مربط الخيل ، وجنبا الى جنب مع حصانه ، كان الرهوان غولساري واقفا . كان يراوح بقدميه كبيرا ، طويلا ، وقويا ، حين اقترب تاناباي منه ، وطالعه بنظرات هادئة واثقة من عينين قاتمتين . لقد نسي الرهوان كيف انهال تاناباي بالمذاري على رأسه . فهو حصان ، وهذا امر طبيعي .

ـ انسَ ، يا غولساري ، لا تزعل ، ـ همَس تاناباي للرهوان . ان لديّ مصيبة كبيرة ، مصيبة كبيرة جدا . ـ ونشج معانقا رقبة الحصان ، ولكنه اعتصم برباطة الجأش ، وتماسك فلم يبك خَجَلا من المارّة . واعتلى ظهر حصانه ، ومضى الى البيت .

ولحق به تشورو وراء مرتفع الكساندرفكا وما ان سمع تاناباي ، وراءه ، السير المعهود للرهوان الراكض ، حتى عضّ على شفتيه باستياء ، وتقلّص بامتعاض . ولم يلتفت الى الوراء . ان استياءه العميق

مما حلّ به قد جعل روحه مظلمة ، وعينيه قاتمتين . ان تشورو الحالي بالنسبة له انسان آخر ، غير ذاك الذي كانه من قبل ، تماما . فها هو اليوم قد فضح نفسه ـ فما ان رفع كاشكاتايف صوته ، حتى جلس مطيعا ، وبخشوع ، مثل تلميذ مدرّب . ثم ، ما الذي سيحصل ، فيما بعد ؟ ان الناس يثقون ويؤمنون به ، أما هو فيخاف ان يقول الحقيقة . يدخر نفسه ، وينتقي الكلمات انتقاء . ترُى ، مَن الذي علّمه ذلك ؟ هَبْ ان تاناباي انسان متأخر ، عامل بسيط ، لكنه هو ، تشورو ، متعلم ، متنور ، يعرف كل شيء ، وقد قضى عمره في القيادة . واعجبا ، او لم يلاحظ تشورو ان الأمر ما كان في الحقيقة كما صوّره السيفيز بايفيّون والكاشكاتايفيّون ! وأن كلماتهم جميلة من حيث المظهر ، أما في الداخل فزائفة وفارغة . فمن يخدع بذلك ، ولأجل أي شيء ؟

لم يُدر تاناباي رأسه حين لحق به تشورو ، وصار الى جانبه ، وهو يجذب الرهوان الحامي ، كابحا سرعته .

ــ لقد تصورت ، يا تاناباي ، اننا سنرتحل معا ، ــ قال هو ملتقطا نَفَسه . ــ تفقدتك فلم أجدك . . .

ـ ما تريد مني ؟ ـ رمى تاناباي بكلماته ، وهو لا يزال بالوضع ذاته ، دون انٰ ينظر اليه . ـ امض في طريقك .

ـ دعنا نتحدث . لا تشح وجهك يا تاناباي ، ولا تطو كشحا عني . فلنتحدث كأصدقاء ، كشيوعيين ، ـ بدأ تشورو الحديث ، وتلعثم .

ـ لست صديقا لك ، ناهيك من أن أكون شيوعيا . اما أنت فمنذ زمن بعيد لم تَعدُ شيوعيا . فانك تتظاهر بالشيوعية .

ـ أو جادّ أنت فيما تقول ؟ ـ سأله تشورو بصوت متدهور .

ـ بالطبع ، جاد . فأنا لم أتعلم بعد انتقاء الكلمات . ولا أعرف كذلك ما وأينَ وكيف ينبغي ان اتكلم . طيب ، وداعا . طريقك يمتدّ باستقامة ، وطريقي يحرف جانبا . ـ وحَرَفَ تاناباي حصانه من الطريق ، وارتحل ، دون ان يلتفت ، ودون ان يطالع وجه الصديق بنظره ولا مرة ، ارتحل عبر الحقل ، بشكل مباشر الى الجبال .

انه لم يَرَ كيف شحب تشورو وابيضّ على نحو مميت ، وكيف أراد أن يوقفه ، مادّا يَده ، وكيف تلوى من الألم بعدئذ ، وأمسك بصدره ، ثم كيف انهار على عفرة الرهوان ، ينشق الهواء بفمه .

ـ حالي سيئـــة ، ـ هَمَس تشورو ، مصعراً وجهه من الألم الذي لا يُطاق في القلب . ـ أوه ، كم أشعر بسوء ! ـ بح صوته ، وصار يلهث مزرقا . ـ فلأسرع الى البيت ، يا غولســاري ، أسرع بي الى البيت .

وانطلق به رَهوانُه الى القرية ، عبر السهب المقفر ، المظلم ، فقد أرعب الحصانَ صوت الانسان ، فقد سمع فيه شيئا ما رهيبـا ، مميتـــا . وأرهف غولساري السمّع ، ونَخر مرعوبا في عَدْوِه . اما الانسان الذي كان على صهوته فقد تعذّب ، وتلوّى متقلّصا ، وقد تشبّث بتشنّج بعفرة الحصان بكل ما اوتيت يداه وأسنانه من قوة آفلة . وتأرجحت المقاود متهدلة من على رقبة غولساري الراكض .

٢٠

وفي هذه الساعـة المتأخرة ، حين كان تاناباي لا يزال في الطريق الى الجبـــال ، كان قد انطلق في شوارع القرية مسرعا فارس على حصان ، مثيرا نباح الكلاب المذعورة .

ـ أيْ ، من هناك في البيت ؟ اخرج ! ـ كان

يدعو أهل البيت ــ . الى الاجتماع الحزبي ، تعالوا الى الدائرة .

ــ ولكن ما الأمر ؟ ولماذا انت مستعجل بهذا الشكل ؟

ــ لا أدري . ــ أجاب الرسول . ــ تشورو يدعوكم . قال ، ان تأتوا سريعا .

وكان تشورو نفسه قد جلس ، في هذا الوقت ، في الدائرة . كان قد أمسك بصدره ، أمسكه بكفّه بقوة تحت القميص ، وقد اتكأ بكتفه الى المنضدة ، منحنيا ، لا هثا ، محتبس الانفاس . كان يجأر من الألم ويعضّ شفتيه . وكان العرق البارد يطفح على وجهه المخضرّ ، وكانت عيناه قد غارتا داخل حفرتين قاتمتين . وكان يُغمى عليه من وقت الى وقت ، فكان يتراءى له ، من جديد ، ان الرهوان ينطلق به في السهب المظلم ، وانه يريد ان ينادي تاناباي ، لكن هذا ، وقد رمى عند الوداع بكلمات متوهجة ، مثل الفحم المتوهج ، لم يلتفت اليه . ان كلمات تاناباي تحرق الصدر ، تحرق الروح ... والى هنا أتوا بتشورو ، يقودونه من ابطيه ، من الاسطبل ، بعد ان رقد هناك قليلا على الدريس . وقد أراد سوّاس الاسطبل ان يأخذوه الى البيت ، لكنه لم يوافق .

وأرسل شخصا ليدعو الشيوعيين وصار الآن ينتظرهم لحظة بعد لحظة .

وأشعلت الحارسة المصباح ومضت ، تاركة تشورو وحده ، لتنشغل بالموقد في الغرفة الأمامية ، متطلعة من وقت لآخر عبر الباب المواربة ، متأوهة تهزّ برأسها .

كان تشورو ينتظر النـاس ، ولكن الوقت كان يتصرّم قطرات . لقد نضب الوقت الذي مُنح له منذ ولادته ، نضبت كل ثانية منه مثل قطرات مرة ، ثقيلة ، ونفد هذا الوقت الذي لم يدرك قيمته الا الآن ، بعد أن عاش حياة ليست بالصغيرة . انه لم يتابع أيامه وسنينه ، لم يفلح في ان يلتفت اليها ، وقد طارت هذه وتبخّرت بين المشاغل والهموم . ولم يحصل كل شيء في عهده ، ولم يحالفه الحظ في كل شيء كما كان يريد . لقد ناضل ماشاء وجاهد ما استطاع ، ولكنه تقهقر في مكان ما ، من أجل ان يتخطّى الزوايا الحادة ، كيلا يكون سيره بالغ الصعوبة ولم يفلح في تخطّى ذلك على كل حال . لقد حشرته تلك القوة في الزاوية ، وهي القوة التي كان بها يتجنّب المصادمة ، اما الآن فالتقهقر غير وارد ، فالطريق قد انتهى . آه ، لو كان قد فهم ذلك قبلا ،

ولو أرغم نفسه قبلا على النظر بصراحة في عيني الحياة ...

لكن الوقت كان يجري بقطراته المرة . ما أطول ما يتأخر الناس ، وما أطول وأمرّ انتظارهم !

«فقط لو وفّقت ـ فكرّ تشورو برعب . ـ فقط لو وفقت لأن أقول كل شيء ! ـ كان يستمسك بحياته الآفلة بصراخ يائس مستميت لا صوت له . واصطبر ، مستعدا للمعركة الاخيرة . ـ سأتحدث بكل شيء . كيف كان الأمر . كيف كان اجتماع المكتب ، كيف فُصل تاناباي من الحزب . دع الناس يعرفون انني لست موافقا على فصل تاناباي . سأقول كل شيء : انني لست موافقا على هذا القرار للجنة المنطقية ، سأقول كل شيء مما أفكر به واعتقده حول آلدانوف . دعهم بعدئذ ، بعدي ، يستمعون اليه . دع الشيوعيين هم الذين يقرّرون . سأحكي كل شيء عن نفسي كما أنا على حقيقتي في الواقع . سأتحدّث عن كولخوزنا ، عن الناس ... ليتني أفلح فقط في ذلك ، لو أسرع الناس بالمجيء ، لو أسرعوا ...»

كان أول من عدا اليه زوجته بالدواء . وارتعبت ، وبدأت تندب وتبكي :

ـ أأنت في وعيك ؟ أَوَ لم تشبع حقا من هذه الاجتماعات ؟ لنذهب إلى البيت . انظر الى نفسك . اواه يا آلهي ، لو فكرت في نفسك على الاقل !

ولم يرد تشورو أن يسمعها . وأبعدها ملوّحا بيديه ، وهو يتناول الدواء . وصكّت أسنانه على القدح ، واريق الماء على صدره .

ـ لا شيء ، صارت حالي أفضل ، ـ طفق يتكلم ؛ محاولا ان يتنفّس على نحو اكثر انتظاما . ـ انتظريني أنتِ هناك ، ستقودينني بعدئذ . لا تخافي شيئا . امضي .

وحين سُمعت من الشارع خطوات الناس ، كان تشورو قد قوم من جذعه وانتصب ازاء المائدة ، وكبت الألم في نفسه ، واستجمع كل قواه ، من أجل أن ينفذ ما اعتبره واجبه الأخير .

ـ ما الذي حصل ؟ ما الذي معك ، يا تشورو ؟ ـ جعل الناس يسألونه .

ـ لا شيء . ساقول الآن . دع الجميع يأتون . ـ كان يجيب .

وكان الوقت يتضاءل بقطراته الداوية ، المرّة . وحين اجتمع الشيوعيون نهض المنظم الحزبي تشورو ساياكوف من وراء الطاولة ، وخلع قبعته عن رأسه ، وأعلن عن افتتاح الاجتماع الحزبي .

٢١

رجع تاناباي الى بيته ليلا . وطلعت جايدار الى الفناء بالفانوس . كانت تنتظره طويلا ، وابتدأت تجيل بصرها فيه . ومن النظرة الأولى فهمت هي أية كارثة حلّت بالزوج . وفكّ اللجام صامتا ، ونزع السرج ، أما هي فكانت تضوّىُ له ، ولم يقل لها شيئا . «حتى لو أفرط في الشراب في مركز المنطقة لكانِ ذلك أهون مما هو الآن عليه ؟» — كانت تفكر هي ، أما هو فكان لا يزال صامتا ، وزاد الحال سوءا وأصبح رهيبا من صمته . اما هي فقد تهيأت لأن تسرّه بشيء — فقد أتوا بقليل من العَلَف ، والقش ، وطحين الشعير ، وصار الجو أدفأ ، فسرحوا الحملان الى المرعى ، وقد بدأت هذه تقضم العشب .

— أخذوا قطيع بكتاي . وأرسلوا الينا راعيا جديدا ، — قالت هي .

— فليمضوا الى الشيطان جميعا : بكتاي ، والقطيع ، وراعيك ... انهم لا يهمونني قط ...

— أتعبان انت ؟

—ممّ تعبت ؟ لقد طردوني من الحزب !

— اخفض صوتك ، قد تسمع المساُعِدتان .

– لماذا اخفض صوتي ؟ ما الذي أخفيه ؟ طردوني مثل كلب عقور ، وانتهى كل شيء . وهذا ما ينبغي وهذا ما أستحق . وأنت تستحقين ذلك أيضا . فهذا قليل بحقنا . طيب لماذا تقفين ؟ لماذا تنظرين ؟

– امض لتستريح .

– أعرف أنا نفسي ذلك .

مضى تاناباي الى الحظيرة المسقفة . تفحّص النعاج . ثم مضى الى الزريبة ، وهناك أيضا جال في العتمة ورجع من جديد الى الحظيرة . لقد ضاقت الأرض على روحه من الألم والحزن . رفض الأكل ، وامتنع من الكلام . هوى على القش المرمي في الركن ، ورقد دون حراك . لقد فقدت الحياة والقلق والهموم والمطامح معناها . لم يكن يريد أي شيء . لم يُرد أن يعيش ، لم يرد أن يفكر ، لم يُرد أن يرى اي شيء حواليه .

كان يتململ ، أراد أن يغفو ، اراد أن ينسى ، ولكن أنّى له هذا ، والى أين تفرّ من نفسك وتختفي . ومن جديد تذكر كيف مضى بكتاي ، وكيف تخلّفت وراءه آثار سوداء على الثلج الابيض ، وكيف لم يجد ما يجيبه به . ومن جديد صوّر لنفسه كيف صرخ

سيغيزبايف ، ممتطيا صهوة الرهوان ، وكيف شتمه باقذع الشتائم ، وكيف هدّد بالقائه في السجن ، وكيف صوّر في مكتب اللجنة المنطقية كشخص ضارّ وعدو للشعب ، وعند هذا انتهى كل شيء ، وانتهت حياته كلها . ومن جديد أراد أن يختطف المذاري وينقضّ بها مع الصراخ ، وأن يعدو في الليل ، ويصرخ بآخر قواه المنهكة في الكون كله ، حتى يتدهور في مكان ما في الوادي فيدق عنقه .

فكر ، وهو يغفو ، ان الموت أفضل من ان يحيا بهذا الشكل . اجل ، اجل ، فالموت أفضل ! ..

وصحا برأس ثقيل يئن . ولبضع دقائق لم يستطع أن يميز اين هو وأي شيء حلّ به . فالى جنبه كانت الشياه تسعل مثارة ، والحملان تثغو . اذن ، فهو في الحظيرة . وكان الفجر قد بزغ ، وهو يلقي بقليل من شعاعه في الفناء . علامَ استيقظ هو ؟ علام ؟ لَكان أفضل أن لا يستيقظ . لم يتبق له الا الموت ، والانتحار ...

... وشرب الماء ، بعدئذ ، حفنات بملء يديه من النهر . كان ماء باردا ، مثل ثلج ناعم هش . وسال الماء بضجيج من بين أصابعه المرتجفة ، ولكنه اخذه

من جديد وجعل يشربه ، وهو يتسايل على ملابسه . وبلع ريقه ، وصحا على نفسه وليس الا آنذاك تحقّق من سخف هذه الفكرة وهذه الخاطرة بالا نتحار ، ومن غباء كل هذا الظلم والاضطهاد الذي لاحَق به نفسه . أجل ، كيف يمكن ان تحرم نفسك الحياة ، التي لا تعطى للانسان الا مرة واحدة فحسب ! وهل يستحق انصار سيغيزبايف حقا مثل هذا ؟ كلا ، سيعيش تاناباي المزيد ، وسيظل غارقا في العمل ! ..

وبعد رجوعه اخفى البندقية وجراب الطلقات ، وانهدّ يعمل ، في ذلك اليوم ، بمواظبة واجتهاد لا يعرف الكلل . وأراد ان يكون اكثر رقة مع الزوجة ومع بنتيه ، ومع المساعدتين ، لكنه ضبط نفسه كيلا ترتاب الامرأتان باي شيء او تفطنا الى سره . اما هاتان فقد كانتا تعملان بدون اي اهتمام اليه ، وكأن شيئا لم يحدث ، وكأن كل شيء على ما يرام . وكان تاناباي ممتنا منهما لقاء ذلك ، فصمت هو الآخر وانغمس في العمل . وذهب الى المرتع ورجع ، وساعد في سوق القطيع والمجيء به الى البيت .

وساء الجو في المساء . لم يكن واضحا ماذا سيكون أمطر أم ثلج ، ولكن شيئا من هذين سيكون . وتجللت الجبال بالضباب ، وتلبدت السماء بالغيوم .

ومن جديد كان ينبغي التفكير بوقاية الحملان من البرد . ومن جديد كان ينبغي تنظيف الحظيرة وفرش القش ، كيلا يبدأ الموتان من جديد . واقتم تاناباي ، ولكنه حاول ان ينسى ما حدث ، وان لا تخور عزيمته .

كان الظلام قد خيّم في الوادي ، حين ظهر فارس في الفناء . قابلته جايدار . وتحدثا بشيء . وكان تاناباي في هذا الوقت يعمل في الحظيرة .

– اخرج لدقيقة ، – دعته زوجته . – لقد قدم شخص اليك . – وأحس تاناباي من مجرد الشكل الذي دعته به زوجته ، أحسّ بشيء ما غير طيب .

خرج وحيّاه . كان هذا راعيا من المرعى المجاور .

– أهذا أنت يا آيتباي ؟ ترجل من حصانك . من أين جئتنا ؟

– من القرية . كنت هناك في اشغال . وقد رجوني ان أبلغك : أن تشورو مريض جدا . وقالوا ان ترتحل اليهم .

«من جديد هذا التشورو !» وثارت فيه الاساءة ، التي كانت آخذة بالانطفاء . ما كان بودّه أن يراه بعد هذا! .

– ولكن ماذا ، هل أنا طبيب ؟ انه مريض

أبد عمره . وأنا من دونه غارق في الهموم حتى أذنيّ . وها قد ساء الجو .

ــ حسنا ، هذا شغلك ، يا تاناباي ، تمضي أو لا تمضي ، انك نفسك من يقدّر هذا ويعرفه . ولكني قد أبلغتك ما التمسوني . الى اللقاء . لقد آن الأوان لي لأمضي ، فقريبا سيشتدّ ظلام الليل .

ودفع آيتباي فرسه ، لكنه تلكّأ بعدئذ واوقفها .

ــ فكر ، على كل حال ، يا تاناباي . انه منحرف الصحة تماما . وقد استدعوا ابنه من حيث يدرس . ومضوا لاستقباله في المحطة .

ــ شكرا ، أنك أبلغت . ولكني لن أمضي .

ــ بل سيمضي .ــ قالت جايدار خجلة .ــ لا تقلق ، سيرتحل .

وصمت تاناباي شيئا ، ولكن حين غادر آيتباي الفناء ، بادر زوجته بحقدقائلا :

ــ كفّي عن هذه العادة ـ عادة الأجابة عني . انني نفسي أعرف ماذا يجب علي ان اقول . قلت لن أمضي ، يعني لن امضي .

ــ هل تفكّر بما تقول ، يا تاناباي ؟

ــ ليس عندي ما أفكر به ، وما يدعوني

للتفكير . كفى ! لقد أكثرت التفكير وواصلته أبد الوقت حتى انتهى بطردي من الحزب . ليس عندي من أدعوه أو من يساعدني ، فانا وحيد . واذا مرضت ، فلا اريد ان يجيئني احد سأنفق لوحدي ! ـ ولوح بيده بضجر ودَلَف الى الحظيرة .

ولكن الطمأنينة بارحت قلبه . فكان اذ يستقبل المواليد الجدد عند من تضع من الامهات ، واذ ينقل الحملان ليجد لها مستقراً في الركن ، واذ يصرخ بالنعاج الزاعقة ، ويشقّ طريقه زاحما بينها ، كان يدمدم ويلعن شاتما ، ساخطا :

ـ لو ترك منصبه من زمان ، سوف لا يتعذب هكذا . كل حياته يمرض ، ويئن ، وتنتابه نوبات القلب ، لكنه لا يترجّل من صهوة حصانه . أي رئيس أنت ! لا أريد رؤيتك بعد هذا . تزعل او لا تزعل ، لا يهم ، أنا زعلان أيضا . ولن يهم أحدا ذلك ...

واحلولك ظلام الليل في الفناء . وجعل الثلج يتساقط قليلا ، وكان الصمت والهدوء مرهفين لدرجة كان يُسمع معها حتى حفيف ندفات الثلج النادرة المبعثرة وهي تتهاوى على الارض .

لم يمض تاناباي الى الخيمة ، كان يتجنب الحديث مع الزوجة ، وهي لم تأته أيضا . «طيب ، فلتجلسي

هنـاك ،ـ طفـق يفكـر . ـ ولكنـك على الرحيـل لن ترغميني . فـالأمر سيّـان بالنسبـة لي الآن ، ولم أعد اكترث به . فاني وتشورو شخصـان مختلفـان ، لا يلتقيان . ان لديه طريقه ولديّ طريقي . أجل ، كنا أصدقاء ، ولم نعد الآن كذلك . اذ لو اعتبرني صديقا له ، فأين كان من قبل اذن ؟ كلا ، أنـا لم أعد أبـالي بشيء ...»

ومع ذلك فقد أتته جايدار . جلبت له ممطرا ، وجزمة طويلة جديدة ، ووشاحا ، وقفازات ، وقبعة كان يرتديها في المناسبات الهامة .

ــ البس ،ـ قالت له .

ــ عبثـا تسألينني ذلك . لن أرتحـل الى أيما مكان .

ــ لا تُضع الوقت . فقد يحدث مـا ستظـلّ تتأسف عليه طيلة حياتك .

ــ لن آسـف على شيء . كمـا لن يحدث معه سوء . سيرقد عدة أيام فحسب ويشفى . ليست هذه باول مرة .

ــ تاناباي ، لم ألتمسك ولا مرة في أيما شيء . ولكني ألتمسـك الآن . احسب اسـاءتك علي . أعطني حزنك . ارتحل . وكن انسانا .

ــ كلا . ــ هزّ تاناباي رأسه بعناد . ــ لن أرتحل . لم أعد الآن أبالي بأيما شيء . انت تفكرين باللياقة والعُرف ، بالواجب ، وماذا سيقول الناس ؟ اما أنا فلا أريد ان أعرف بشيء بعد اليوم .

ــ تفكّر جيدا ، يا تاناباي . أنا ماضية لألاحظ النار ، وقتا ، كيلا تقع الفحمات على اللبّاد .

ومضت ، وقد تركت له ملابسه ، ولكنه لم يتزحزح قيد شعرة . جلس في الركن ، ولم يستطع ان يقهر نفسه ، لم يستطع نسيان تلك الكلمات ، التي قالها لتشورو . اما الآن فيجيء ليقول «مرحبا ، جئت أعودك ، كيف صحتك ؟ أَوَلا أساعدك بشيء ؟» كَلا ، انه لا يستطيع ان يعمل هكذا ، فان هذا ليس من طبعه ولا من عاداته .

وعادت جايدار .

ــ أو لم تلبس بعد ؟

ــ لا تضجريني . قلت : لن أرتحل ...

ــ انهض ، ــ صرخت هي به غاضبة . وهو لعجبه ، نهض بأمرها ، مثل جندي . خَطَت اليه ، وهي تجيل بطرفها في النور الكابي للفانوس بعينين مُنهكتين ، منزعجتين . ــ ان لم تكن رجلا ، ان لم تكن انسانا ، ان كنت امرأة ضعيفة الارادة ، اذن فسأمضي

أنا بدلاً عنك ، اما انت فابقَ ، واسترسل في بكائك ! سأمضي الآن . قم ، أسرج الحصان في الحال !

ومضى ، مذعنا ، مطيعا ، مضى يُسرج الحصان . وكان الثلج قد رشّ الفناء ، وانفرش خفيفا . وبدا ان الظلمـة تدور في الجوار مثـل دوّارة بطيئـة ، دون ضجيج ، مثل الماء في خليج غميق واهن التيار . حتى الجبـال لا تميزهـا من الظلام الدامس هذا . «ها هي عقوبة اخرى ، الى أين تمضي هي الآن وحدها خلال الليـل ؟ – جعل يفكر ، ملقيـا السرج في العتمـة على الحصـان . – ولن تَثنيها عن عزمهـا . كلا . انهـا لن تتراجع . اقتلها ، ولن تتراجع . لكن كيف اذا ضلت عن الطريق ؟ دعها لاتلوم سوى نفسها ! ..»

أسرج تاناباي الحصان ، وأخذ يشعر بالخجل «انني وحش ، لا اكثر . لقد تبلّدت من الاســـاءة . أعرضها للأنظار ، – انظر ، كم أنا شقي ، وكيف ساءت أموري . وقد أضنيت زوجتي . ولكن هي ذاتها باي شيء مذنبة ؟ ولقاء أي شيء أعذّبها وأوذيها . لن يكون لدّي خير . وانا إنسان لا أصلح لشيء . وحش ليس الا» .

وتردّد تاناباي . فليس من السهل عليه التراجع عن كلماته . وانتكص الى الوراء متجهّما ، ينظر الى أسفل .

– هل أسرجت ؟

– نعم .

– اذن فتهيأ للرحيـــل .–وأعطتـه جـايدار ممِطَـرا .

وجعل تاناباي يرتدي ثيابه صامتا ، وقد سُرَّ أن زوجته كانت هي أول من مضى للمصالحة . ومـع ذلك فمن اجل المظهر ليس الا ، جعل يعاند :

– ولكن ، ربما في الصبح أذهب .

– كلا ، امض الآن . والا فسيكون متأخــرا ، وبعد فوات الأوان .

كان الليل يحوم في الجبال وينسـاب انسيابـا هادئـا مثـل التيار في خليـج صغير بطيء الجريـان . وبرقـــة وتناسق كانت نـدف الثلـج الربيعي الاخير تتسـاقط على الارض وارتحل تانابـاي ، وحيدا بين المنحدرات المظلمة ، مستجيبا لنداء الصديق الذي أشاح هو بوجهه عنه . كان الثلـج يعلق بـالرأس ، بالكتفين ، باللحيـة ، وبالأيدي . وجلس تانابـاي في السرج دون حراك ، دون ان ينفضه . كان ذلك أفضل له لكي يفكر . كان يفكـر في تشـورو ، وفي كـل هذا الرباط المشترك بينهما والذي تطاول سنين عددا ، حين علـّمه تشورو القراءة والكتابة ، وحين انتسبـا

سوية الى الكومسومول ، ثم الى الحزب . وتذكر كيف عملا ، هما الاثنان ، سوية في بناء قناة ، وكيف كان تشورو أول من جلب له الجريدة التى نشرت صورته وكتبت مقـالا عنه ، وكان أول من هنـّاه ، وشدّ على يده .

وتطامنت روح تاناباي ، وزال تجمده ، ومالبث ان اكتنفه شعور معذب بالقلق : «كيف هو هنـــاك ! لعلـه في الحقيقة منحرف الصحة تمامـا ؟ وإلا فعلام دعوة الابن ؟ ام انه يريد ان يقول شيئا ؟ أهو الوداع الاخير ؟ ! . .»

وكان الجو قد نوّر . وكان الثلج لا يزال يدور . وحثّ تانابـاي الحصـان ، واستحثّه ليخبّ خببا . فوراء هذه الروابي ، وفي المنخفض ، سيبلغ القرية قريبا . كيف حال تشورو هناك ؟ ليته استطاع السير أسرَع .

وفجأة في صمت الصباح ترامى الى مسامعه صوت مبهم ، بعيد من ناحية القرية . انفجر صراخ أحدهم ثم انقطع و انطفأ . فأوقف تاناباي الحصان ، ونصب أذنيه للريح ، مرُهفا السمع . كلا ، لم يسمع شيئا . يبدو ان هذا قد خيـّل اليه ليس الا .

ارتفع الحصان بتاناباي ، مرتقيا الرابية . وفي الأسفل أمامه ، وبين الحواكير المثلّجة البيضاء ، والحدائق العارية ، كانت ترقد شوارع القرية ، وهي لا تزال بَعدُ مقفرة من الناس في هذا الوقت المبكر . ليس من أحد في أيما مكان . وليس الا في فناء دار واحدة كانت تهوش جيئة وذهابا كومة سوداء من الناس ، كما كانت الخيول ترابط مسرجةً عند الاشجار . كان هذا هو دار تشورو . ترُى لماذا تجمّع مثل هذا العدد الغفير من الناس ؟ ما الذي حَدَث ؟ أفحقا ...

ولم يُطق تاناباي صبرا ، فنهض على الركابين ، وابتلع متشنجا كتلة شائكة من الهواء البارد ، وتسمّر ، وفي الحال ساق الحصان الى أسفل في الطريق . «لا يمكن أن يكون ! كيف هكذا ؟ لا يمكن أن يكون !» وضايقه شعور موجع ، وألم حاد في روحه ، لكأنه كان هو المذنب فيما حلّ هناك ، على الأرجح . كان تشورو ، صديقه الوحيد ، قد التمسه أن يرتحل اليه للوداع الأخير قبل الفراق الأبدي ، أما هو فقد حَرَن وعند ، معلّلا نفسه ، ومتبررا بالحيف والأساءة . فمن سيكون هو بعد هذا ؟ ولماذا لم تبصق الزوجة في وجهه ؟ وماذا يمكن ان يكون اكثر

وجاهة واعتبارا ، في الارض ، من الالتماس الاخير لأنسان محتضر ؟

ومن جديد انتصبت أمام تاناباي تلك الطريق في السهب ، التي أدركه فيها تشورو على الرهوان . فبماذا أجابه هو آنذاك ؟ أَوَ يستطيع ان يغفر لنفسه حقا هذا ؟

وكما في نوبة الهذيان ، ارتحل تاناباي في الشارع الثلجي ، منحنيا تحت ثقل ذنبه وعاره ، وفجأة ، رأى أمامه ، ووراء فناء دار تشورو ، جماعة كبيرة من الناس على الخيول . لقد اقتربت كومة صامتة ، وفجأة ، ودفعة واحدة ، انطلقوا يصرخون عاليا بصوت واحد ، متمايلين في السروج .

ـ أويباي ! باوريماي ! اويباياي ، باوريم ! *

«انهم القازاخ قد قدموا» ـ حزر تاناباي ، وفهم انه لم يعد ثمة شيء يمكن التأميل عليه . فان الجيران القازاخ ، الذين قد وصلوا من وراء النهر ، كانوا يبكون تشورو كأخ ، كجار ، كانسان قريب لهم ومشهور في كافة أوساطهم . «شكرا لكم أيها الأخوة ، ـ جعل تاناباي يفكر في تلك اللحظة . ـ اننا منذ عهود

---

* هتاف الحداد ، يبكي المتوفى ويندبه .

الاجداد والآباء معا في المصائب والآلام والاحزان ، وسوية في ولائم الاعراس والمسابقات والأعياد معا في السراء والضراء . ابكوا ، سوية معنا ! »

ومالبث ان انطلق في اثرهم يشقّ أجواز القرية في الصباح بصراخ عال ، مضنٍ .

– تشورو – أو – أو – أو ! تشورو – أو – أو ! – تشورو – أو – أو !

وخبّ على الحصان ، متهدلا من السرج تارة الى الشمال وتارة الى اليمين ، وانخرط ينتحب حزنا على صديقه الفقيد الذي غادر هذا العالم .

وها هو فناء الدار ، ها هو غولساري يقف بجانب البيت في جلّ الحداد . يسقط الثلج عليه ويموع . لقد تبقّى الرهوان من دون صاحبه . انه يقف بسرج فارغ .

ويخرّ تاناباي على عفرة الحصان ، وينهض ليخرّ من جديد . وحواليه كان البكاء ، ووجوه الناس الذين بالكاد يتميزون ، كأنهم غرقى في الضباب . ولم يسمع كيف قال أحدهم :

– ارفعوا تاناباي من السرج . خذوه الى ابن تشورو .

وامتدت في الحال بضعة أزواج من الأيدي

وساعدوه في الترجّل من الحصان ، واقتادوه من ابطيه عبر جمهور الناس .

– سامحني ، يا تشورو ، سامحني ! ـ أجهش تاناباي بالبكاء .

وفي الفناء كان ابن تشورو ، الطالب سامنصور واقفا ، ووجهه الى الحائط . فالتفت الى تاناباي واغرورقت عيناه بالدموع ، وتعانقا باكيين .

ـ لم يعد أبوك موجودا ، لم يعد رفيقي تشورو ! سامحني ، يا تشورو ، سامحني ! ـ انّهد تاناباي ينتحب مختنقا ، لا هثا .

وفرقوا بينهما بعدئذ . وهنا رآها تاناباي الى جنبه ، تقف بين النساء ـ رآها ، هي بوبوجان . كانت تجيل بصرها فيه وتذرف دموعها صامتة . فتعاظم انتحاب تاناباي .

لقد بكى كل شيء ، بكى كل فقداناته وضياعاته ، بكى تشورو ، وبكى اساءته الى صديقه ، وكونه لم يستطع ان يسحب تلك الكلمات التي رماها له في الطريق ، بكى عليها هي التي كانت تقف بجنبه كغريبة ، وبكى ذلك الحب وذلك الليل العاصف ، وكونها بقيت وحيدة ، وكونها قد شاخت ، بكى رهوانه غولساري ، الواقف في جلّ الحداد ، بكى

مظالمه والاساءات بحقه وعذاباته ، بكى كل ما لم يبكه بعد .

– سامحني ، يا تشورو ، سامحني ، – كان يكرّر . وكأنه ، بهذا نفسه ، كان يطلب الصفح منها . كان يودّ أن تجيء اليه وتعزّيه ، وان تجفّف دموعه وتنشفها ، ولكنها لم تجيء . كانت واقفة تبكي .

وعزّاه أناس آخرون :

– كفى ، يا تاتاباي . انك بالدموع لن تفعل شيئا ، ولن تجدي نفعا ، اهدأ .

ومن هذا بالذات ازداد مرارة وألما وتعاظم حزنه .

٢٢

دفنوا تشورو بعد الظهر . كان قرص الشمس المعتكر ينوّر شاحبا خلال الطبقات الكالحة للغيوم الساكنة . وكانت لا تزال تسبح في الجو ندف الثلج الناعمة الرطبة . وامتدّ الموكب الجنائزي في الحقل الابيض كالنهر الاسود الصامت . وكأن هذا النهر قد ظهر فجاة ، وكأنه يمدّ لنفسه المجرى للمرة الاولى . وفي الامام وعلى سيارة مكشوفة ، مفتوحة الجوانب نقلوا جثمان المرحوم تشورو ، المقمّط بقوة واحكام

في قطعة من اللباد الابيض الخاص بالدفن . وبجانب الجثمان جلست زوجته ، والاطفال ، والاقارب . وتابعهم الآخرون جميعا راكبين على الخيول . وكان اثنان فقط قد مضيا يمشيان وراء السيارة – سامنصور نجل الفقيد ، وتاناباي الذي كان يقتاد حصان صديقه الراحل ، الرهوان غولساري ، بسرج فارغ .

كان الطريق وراء القرية يرقد في ثلج ناعم متناسق . وفي اثر الموكب الجنائزي كان الطريق يمتد شريطا واسعا ، قاتما ، محتفرا بحوافر الخيول . وكأن الطريق ، بهذا الشكل كان يشيع تشورو الى مثواه الأخير . كان الطريق يقود الى التل ، حيث كانت المقبرة . وهنا انتهى الطريق ، بالنسبة الى تشورو ، نهاية أبدية لا رجوع منها .

كان تاناباي يقود الرهوان بالمقاود ويقول له في نفسه «ها قد فقدنا أنا وانت ، يا غولساري ، صديقنا تشورو . انه غير موجود ، لم يَعدُ بيننا ... لماذا لم تصرخ في آنذاك ، ولِمْ توقفني ؟ ان الله لم يعطك لغة . أما أنا ، ولو كنت انسانا ، لكني تكشّفت أسوأ منك ، أنت أيها الحصان . لقد طوّحت بصديقي في الطريق ، لم ألتفت ، ولم أَثُبْ الى رشدي . لقد قتلت تشورو ، قتلته بكلماتي ...»

وطيلة الطريق حتى المقبرة ذاتهـا كان تانابـاي يلتمس الصفح عند تشورو . وعند القبر ، حينما نزل في جوفـه مـع سامنصور كان يقـول لتشورو ، وهو يسجي جسده في المرقد الأرضي الأبدي :

ــ اغفـــرلي ، ياتشورو . وداعـــا . أتسمعني ياتشورو ، اسألك العفو والغفران !..

وانهالت حفنـات التراب على القبر ، ثـم انصب التراب عليه من المجارف أنهارا من مختلف الجهات . فامتـلأ جوف القبر ، ونهضت رابيـة فتيـــة على القبر .

اصفح عني ، ياتشورو !..

وبعد وليمة التأبين دعا سامنصوّر تاناباي على حدة :

ــ تانابـاي ، لديّ قضية معـك ، وعلينـا ان نتحدث .

ومضيا عبر الفناء ، تاركين الناس ، والشعاليل والسماورات بدخانها وبخارها . خرجا الى الحديقة ، وراء البيت ومضيا يمشيان على طول حافة الساقية وتوقفا وراء حاكورة ، عند شجرة هاوية . وجلسـا عليها . وران عليهما الصمت والوجوم ، كان كلُ يفكر بقضاياه الخاصة . «هذه هي الحيـاة ،ــجعـل تاناباي

يتأمل . ــ لقد عرفت سامنصور صبيّاً ، اما الآن فها قد شبّ وأصبح شابا مؤمّلا . لقد كبر ونضج من الحزن والمصيبة . انه الآن يعوّض تشورو . والآن أنا واياه ندّ لندّ . هكذا ينبغي ان يكون . ان الابناء يحلّون محل آبائهم . والابناء يحفظون النوع ، ويواصلون القضيّة . فليكن بمشيئة الله مثل أبيه . وليمنحه الله القوة من أجل أن يتقدم أباه في الطريق والعمل من أجل ان ينهض بعقله وذكائه متجاوزا ما لدينا ، ومن أجل ان يبدع السعادة لنفسه وللآخرين . لمثل هذا نسمّى نحن بالآباء ، ولهذا ننجب نحن الأبناء بأمل ان يصبحوا أفضل منا ، وفي هذا جوهر الموضوع كله .»

ــ انك ، يا سامنصور ، أكبر أبناء عائلة ابيك ، ــ قال له تاناباي ، وهو يجذب ، ويربّت على لحيته ، على طريقة الشيوخ . ــ انك الآن بديل تشورو ، وأنا مستعد لأن أسمعك ، مثلما كنت أسمع تشورو .

ــ أنا ملزم أن أبلغك ، يا تاناباي ، وصيّة أبي ، ــ قال سامنصور .

وانتفض تاناباي ، وقد التقط بوضوح لهجةَ الأب في صوت ابنه ، واكتشف للمرة الأولى أنه يشبه

تشورو تماما ، تشورو الفتى ذاك ، الذي لم يعرفه ابنه ، ولكن عرفه ويتذكره تاناباي . أَوَ ليس لذلك يقولون ان الانسان لا يموت طالما يعيش عارفوه ؟

ـ أسمعك يا بنيّ .

ـ لقد أدركت أبي حيا ، يا تاناباي . أفلحت في أن أصل البارحة قبل ساعة من وفاته . كان في وعيه حتى نفسه الأخير . اما أنت ، ياتاناباي ، فقد انتظرك طويلا . كان طيلة الوقت يسأل : «أين تاناباي ؟ أَوَ لم يصل ؟» وكنا نهدئه ونقول : انك في الطريق ، وانك ستصل بين لحظة واخرى . وواضح ، انه كان يريد ان يقول لك شيئا . ولم يستطع اتمام الانتظار .

ـ أجل ، يا سامنصور ، أجل . كان ينبغي ان نتلاقى . كان ذلك لازما جدّ اللزوم . لن أغفر لنفسي ذلك طيلة حياتي . في هذا أنا المذنب . اني لم أفلح في الوصول في الوقت المناسب .

ـ وهكذا التمسني ان ابلغك أمرا . قال : يا ولدي ، قل لصديقي تاناباي ، انّني ألتمس الصفح عنده ، قل له أن ينسى مالحقه من ضيم وان يطرح ذلك من روحه ، وان ينقل بنفسه بطاقتي الحزبية الى اللجنة المنطقية . وقال : دع تاناباي بالذات يُرجع ، بيده ، بطاقتي ـ لا تنسَ ، أبلغه . ثم وقع مغشيّا

عليه . وجعل يحتضر . وحين توفي ، بعد نزعه الأخير ، نظر بشكل كما لو انه كان ينتظر أحدا ما . وبكى ، ولم نستطع تمييز كلماته .

ولم ينبس تاناباي ببنت شفة ، ولم يَفِه بأي كلمة جوابا . انهدّ ينشج ، وهو ينتف ويجذب لحيته . لقد مضى تشورو . وقد حمل تشورو معه نصفا من روح تاناباي ، بعض حياته .

ـ شكرا لك ، يا سامنصور ، على كلماتك . ولأبيك شكري أيضا .ـ نطق تاناباي أخيرا ، وقد تمالك نفسه ،ـ شيء واحد يحيّرني . أتعرف أنهم فصلوني من الحزب ؟

ـ أعرف .

ـ كيف اذن أحمل أنا ، المفصول ، بطاقة تشورو الحزبية الى اللجنة المنطقية ؟ ليس لي الحق في ذلك .

ـ لا أعرف ، ياتاناباي ، قرّر بنفسك . انما يتعيّن عليّ أن أنفذ وصية أبي عند وفاته . وسأظل ألتمسك ان تفعل كما اراد ، وهو يغادرنا .

ـ لَكُنتُ مسرورا من اعماق قلبي . ولكن هذه الكارثة الكبيرة حلّت بي . أفلا يكون أفضل لو حملتها أنت نفسك ، يا سامنصور ؟

ـ كلا ، ليس أفضل . لقد كان الأب يعرف ما التَمسه . طالما هو نفسه وَثَقَ فيك ، اذن لماذا لا ينبغي عليّ أن أثق فيك ؟ قل في لجنة المنطقة ، انه هذه كانت ارادة أبي ، تشورو ساياكوف .

كان ظلام الغبش لا يزال مخيما ، حين ارتحل تاناباي من القرية . وجرى غولساري ، الرهوان المجيد غولساري ، الحصان المؤمّل سواء في الأتراح أو في الأفراح ، في السراء والضراء ـ ركض تحت السرج ، وهو يضرب بحوافره الكتل المتجمدة لآثار المرور في الطريق . وفي هذه المرة كان يحمل تاناباي ، المرتحل بتكليف خاص من صديقه الراحل ، الشيوعي تشورو سياكوف .

كان الفجر يتفايض ببطء ، فوق المناطق غير المرئية من الارض أمام العين . كان الفجر الجديد يولد في جوف السحر . لقد نمى هناك ، داخل العتمة الرمادية . . .

عدا الرهوان الى هناك ، الى السحر ، الى النجمة الوحيدة والألقة ، التي لم تأفل بعد في قبة السماء . كان يطبع على الطريق المقفر ذي الصدى والرنين الأيقاع الهادر لرهوه السريع . ومنذ زمن طويل لم

يقيّض لتانابـــاي ان يرتحل عليه . وكان عَدْو غولساري سريعا ووثيقا ، كما في السابق . كان الريح يبسط عفرتـه ، ويهبّ في وجه راكبـه . لقد كان غولساري حصانـا طيبـا ، وكان لا يزال في عنفوان قوته .

وطيلة الطريق كان تاناباي يتأمـــل ، وضـاع في دوّامة الأحجيات ، لماذا اليه بالذات ، هو تاناباي ، المطرود من الحزب ، أوصى تشورو قبيل وفاته ، بأن ينقل بطاقته الحزبية الى لجنـة المنطقـة . ماذا أراد بذلك؟ هل أراد تجربته؟ أم لعله أراد بهذا بالذات القول بعـــدم موافقته على اقصـاء تاناباي من صفوف الحزب؟ الآن لن تعرف هذا قط ، ولن تستخبر عنه . فلن يقول أيما شيء اكثر ممـا قال ، ومـا من مزيد . أجل ، توجد مثل هذه الكلمات المريعـــة: «لن يعود أبدا!» وليس بعد ذلك في مقدور المرء ان يقول اية كلمات ...

ومرة اخرى تدفقت أفكار شتى ، ومن جديـــد انتعش وثار فيه كل ما أراد هو أن ينساه ، وكل ما أراد أن يطرحه من نفسه الى الأبد . كلا ، يتجلّى ، أنه ليس كل شيء قد انتهى . فمعه ، وعنده لا زالت ارادة تشورو الاخيرة ووصيته . سيأتي ببطاقته الحزبيـــة

ويـُبلغ عنه ، عن تشورو ، كل شيء كما كان في الواقع ، وسيتحدّث عن مكانة تشورو عند الناس ، مَن كان هو بالنسبة لهم ، وأيا كان هو بالنسبة له ، هو تاناباي . وسيتحدث عن نفسه ايضا ، لأنه هو وتشورو اصبعا يد واحدة .

دعهم يعرفوا ، أيّا كان هما آنذاك ، في الشباب ، وأية حياة عاشا . ولعلهم سيفهمون أنه لا يستحقّ هو ، تاناباي ، أن يحرموه تشورو لا في حياته ، ولا بعد وفاته . فقط لو سمعوه حتى النهاية ، فقط لو سمحوا له بان يدلي برأيه ويبيّن أفكاره!

وصوّر تاناباي لنفسه كيف سيدخل غرفة سكرتير لجنة المنطقة ، وكيف سيضع على الطاولة بطاقة تشورو الحزبية ، وكيف سيتحدث عن كل شيء. سيقرّ بذنبه وسيطلب المغفرة ، لا لشيء الا ليعيدوه الى الحزب ، الذي بدونه تسوء حياته ، بل لا يفهم هو نفسه ذاتها .

ولكن ماذا لو قالوا: أي حق يملك هو المفصول من الحزب ، في أن ينقل وثيقة حزبية؟ «ما كان ينبغي عليك أن تمسّ البطاقة الحزبية لشيوعي ، لاينبغي عليك ان تضطلع بهذا الأمر . ومن دونك كان يمكن ان يوجد آخرون» . ولكن هكذا كانت رغبة تشورو عينه

عند وفاته! انه هو الذي أوصى بذلك بحضور الجميع ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . وان هذا ليمكن أن يؤكده ابنــه ، سامنصور . «طيب وأي جديد في هذا ، لن يعني شيئا ولا يهمّ ما يمكن أن يقولـــه انسان عند وفاته ، في حالة الهذيان ، تحت وطأة الأغماء؟» فبماذا سيجيب آنذاك؟

أمــا غولساري فكان يعدو في الطَريق الصائت ، الرنان ، المتجلّد ، متجاوزا السهب ، وقد انطلق الآن الى منحدر آلكساندروفكا . لقد أوصل الرهوان تاناباي بسرعة . حتى انه لم يلاحظ كيف وصل.

كان يوم العمل في الدوائر قد بدأ على التوّ حين وصل تاناباي الى مركز المنطقة . ودون ان يتعطل في أيما مكان ، وجّه هو الرهوان المتصبب عَرَقا ، رأسا ، الى مقر اللجنة المنطقية ، وربطه في مربط الخيول ، ونفض الغبــار عن نفســه ، ومضى بقلب يخفق من القلق . ماذا سيقولون له؟ كيف سيستقبلونه؟ كانت المماشي مقفرة ، فارغة . لم يفلحوا بعد في الوصول من القرى . ودلف تاناباي الى صالة استقبال كاشكاتايف .

ــ مرحبا ــ قال للسكرتيرة .

ــ مرحبا .

ــ هل الرفيق كاشكاتايف في غرفته؟

ـ أجل .

ـ أنا أقصده . انني راعٍ من كولخوز «الأحجار البيضاء» . لقبي هو باكاسوف ، ـ بدأ هو .

ـ بالطبع ، إني أعرفك ـ قالت متضاحكة .

ـ اذن قولي له ان منظّمنا الحزبي تشورو ساياكوف قد توفي ، وقبيل وفاته التمسني أن أنقل بطاقته الحزبية الى لجنة المنطقة . وها اني قدمت بهذا الخصوص .

ـ طيب . انتظر دقيقة .

ولم ينصرم وقت طويل حقاً على دخولها غرفة كاشكاتايف ، لكن تاناباي تعذب الكفاية ، لم يجد لنفسه مكانا ، ضاقت عليه روحه في انتظاره اياها .

ـ الرفيق كاشكاتايف مشغول ـ قالت هي ، مغلقة وراءها الباب بأحكام . ـ لقد أوصى بتسليم بطاقة ساياكوف الى قسم التسجيل . انه هناك ، الى اليمين ، في الممشى .

«قسم التسجيل ... الى اليمين في الممشى ... ماذا يعني هذا؟ ـ لم يستطع تاناباي ادراك جليّة الأمر . ومالبث أن فهم كل شيء دفعة واحدة ، ومرة واحدة خارت عزيمته وانهارت . كيف يمكن مثل هذا؟ أَو كل شيء رخيص ، هيّن لهذا الحد؟ أما هو فتصور ...

ـ ان لديّ حديثا معه . أرجوك ، أخبريه بذلك. ان لديّ حديثا مهما .

ومضت السكرتيرة ، بتردّد ، الى الغرفة ، وقالت ثانية ، اذ رجعت:

ـ انه مشغول جدا . ـ ثم أضافت من عندها بلهجة المتعاطف معه: ـ لقد انتهى الأمر معك منذ زمن . ـ ثم قالت بصوت أخفض من ذي قبل: ـ لن يستقبلك . الأفضل أن تمضي .

ومضى تاناباي في الممشى ، ثم عطف على اليمين. وها هي لوحة تقول «قسم التسجيل» . وفي الباب ، كانت ثمة كوة صغيره . طرق . ففتحوا الكوة .

ـ ماذا تريد؟

ـ نقلت لكم بطاقة لتسليمها . لقد توفي منظمنا الحزبي تشورو ساياكوف . كولخوز «الأحجار البيضاء» .

واصطبرت رئيسة قسم التسجيل وقتا ، ريثما أدرك تاناباي من تحت السترة المحفظة الجلدية الصغيرة ذات السير ، والتي كان قد حمل فيها في زمن غير بعيد بطاقته الحزبية الخاصة ، وحمل فيها الآن بطاقة تشورو الحزبية . وسلّم البطاقة الى الكوة: «وداعا ، يا تشورو!»

عاينها وهي تكتب في الكشف رقم البطاقة الحزبية، واللقب ، والاسم ، واسم والد تشورو ، وسنة انتسابه الى الحزب — وكانت هذه آخر ذكرى منه . ثم أعطته الكشف للتوقيع .

— أَوَ هذا كل شيء؟ — سأل تاناباي .

— أجل .

— مع السلامة .

— مع السلامة — واصطفقت الكوة .

خرج تاناباي الى الشارع . وجعل يفكّ رباط الرهوان .

— انتهى كل شيء ، يا غولساري ، — قال هو للحصان . — هذا كل شيء .

وانطلق به الرهوان ، الذي لا يعرف الكلل ، في درب الأياب ، الى القرية . كان السهب الربيعي الكبير يعدو للقائهما ، مع الريح ، وتحت وطء الحوافر الهادر . وليس الا في العدو ثاب تاناباي الى رشده ، وتطامن ، وسكن ألمه .

ومساء ذلك اليوم بالذات ، عاد تاناباي الى بيته في الجبال .

استقبلته زوجته صامتة . اقتادت الحصان من

لجامه ، وساعدت زوجها في أن يترجّل من السرج ، ساندة اياه بيديها . والتفت تاناباي اليها ، وعانقها ، وانهار على كتفها . وعانقته هي باكية أيضا .

ـ دفنّا تشورو ! لم يعد موجودا ، يا جايدار ، ان صديقي غير موجود ! ـ قال تاناباي ، وأطلق العنان لدموعه من جديد .

ثم جلس صامتا على حجر بجنب المسكن . أراد أن يخلو مع نفسه ، أراد أن ينظر الى طلوع القمر ، الذي كان قد ارتفع هادئا ، من وراء القمم المسننّة لسلسلة الجبال الثلجية البيضاء . وارقدت زوجته الطفلتين في الخيمة لتباتا ليلتهما . وترامى الى المسامع صوت النار وهي تنشّ وتفرقع في الموقد . ثم انهد يعزف ، الوتر الرنان ، الصافر لآلة «تمير ـ كاموز» الموسيقية ، وصوته يتوغل في أعماق الروح وتثيرها . لكأن الريح كانت تعوي بانزعاج وقلق أو كأن انسانا قد عدا في الحقل ببكائه وأغنيته النائحة المولولة ، ولكن كل شيء حواليه كان صامتا ، لقد همد كل شيء ، حابسا الأنفاس ، وكأنه لم يجر الا صوت اللوعة والانسحاق الانساني متوحّدا . لكأنه كان يسعى دون أن يعرف الى اين يلتجىء بحزنه ، وكيف

التعزّي وسط هذا الهمود وهذا الأقفار من الناس ، ولم يجبه أحد . كان يبكي ويستمع لصوته وحيدا . وفهم تاناباي ان هذه هي زوجته تعزف له «أغنية الصيّاد العجوز» ...

... في غابر الأزمان كان عند أحد الشيوخ ابن – وكان شابا ، وصيادا جريئا . كان أبوه نفسه قد علّمه فنّ الصيد الصعب ، الحاذق . لكن هذا تفوّق عليه وتخطّاه .

لم تكن سهامه تعرف الطيش . وليس ثمة مخلوق حي استطاع أن يزوغ من رصاصاته المميتة والمصوّبة تصويبا دقيقا محكما . وقد قتّل بالجملة كافة الطرائد في الجبال حواليه . لم يكن يشفق على الامهات الحبالى ، ولاعلى الأولاد الصغار أيضا . وقد أباد قطيع المعزى الشهباء ، وهي الأم الأولى لجنس المَعَز . وبقيت المعزى الشهباء ذاتها مع العنز الاشهب العجوز ، وابتهلت هي وتوسّلت ، مخاطبة الصياد الفتى ، أن يُشفق على العنز الشيخ ، وان يوفّره ، لكي يستمر جنسهما . ولكن هذا لم يُصغ سمعا الى ندائها ، وصرع بأطلاق محكم العنز العجوز ، الضخم . وتدهور العنز وخرّ من الصخرة . وآنذاك ابتدأت المعزى الشهباء تندب فقيدها ، واستدارت بجنبها الى الصياد وقالت :

«صوّب الى قلبي . لن أتزحزح عن مكاني قيد شعرة . ولكنك لن تصيب مني مقتلا . وسيكون هذا طلقك الأخير !» فجعل الصياد الفتى يضحك من كلمات المعزى الشهباء العجوز التي قد اخرّفت وجعلت تهذي . وصوّب اليها . ودوى الأطلاق . لكن المعزى الشهباء لم تهوِ ولم تقع . فالرصاصة مسّتها في قدمها الأمامية ليس الا . ففزع الصياد وارتعب – فمثل هذا لم يحدث معه قط من قبل . «أرأيت ، – التفتت اليه المعزى الشهباء . – اما الآن فحاول ان تمسك بي عرجاء !» فضحك الصياد الفتى جوابا لها . «حسنا ، حاولي ان تهربي . ولكني ان ظفرت بك – فلا تنتظري شفقة مني . سأقطعك إربا إربا ، أيها العجوز ، مثل نفّاجة قبيحة !» .

وجعلت العنزة الشهباء ، العرجاء تعدو ، والصياد يطاردها . أياما كثيرة ، وليالي كثيرة في الصخور ، في الجروف ، في الثلوج والاحجار استمرت هذه المطاردة . كلا ، لم تستسلم المعزى الشهباء . وقد مرّ زمن طويل منذ طرح الصياد جانبا سلاحه ، وملابسه ، لم يتبقّ منها الا المِزَق . ولم يلاحظ كيف اقتادته العنزة الشهباء الى الصخور التي لم يطأها أحد من قبل من حيث لا توجد دروب لا الى فوق ، ولا الى أسفل ،

حيث يستحيل القفز والهبوط . وهنا تركته العنزة الشهباء ولعنته : «من هنا لن تفلت طول عمرك ، ولن يستطيع أحد في الدنيا انقاذك ، فليبك أبوك عليك ، كما أبكي أنا أولادي القتلى وجنسي الذي اختفى . فَلْيعوَ أبوك وحده بين أحجار الجبال ، فليعو وحيدا بين الجبال الباردة ، كما أعوي أنا ، العنزة الشهباء العجوز ، أم جنس المَعَز . اني لألعنك ، ياقراغول ، ولتحلّ بك لعنتي ...» وغادرته المعزى الشهباء بنواحها وبكائها ، قافزة من حجر الى حجر ، ومن جَبل الى جبل .

بقي الصياد الشاب على القمة الشاهقة . كان يقف على الحافة الناتئة الضيقة ، وقد ألصق وجهه بجنب الجبل ، يخاف ان يلتفت ــ اذ ليس له ان يخطو لا الى فوق. ولا الى تحت ، لا الى يمين ولا الى شمال . لا يرى سماء ، ولا يطالع أرضا .

اما الأب فقد كان في هذا الوقت يبحث عنه في كل مكان . وقد طاف الجبال جميعا . وحين عثر في أحد الدروب الجبلية الضيقة على السلاح الذي ألقاه ابنه ، فهم في الحال أن فاجعة قد حلّت به . فجعل يركض في الشعاب الصخرية ، وفي المضايق المظلمة .

«قاراغول ، أين أنت ، يا قاراغول ، أجبني !..»

أما في الجواب فقد هدرت الجبال الحجرية مقهقهة ، وأرجعت له صدى كلماته ذاتها : «أين أنت ، يا قاراغول ، أجب !..» .

«أنا هنا ، يا أبتاه !» – ترامى إليه فجأة صوت من مكان ما من حالق . نظر الشيخ الى فوق فرأى ابنه ، مثل غراب على طرف جرف ساقط ، على الصخرة العالية المنيعة . انه يقف هناك ، وظهره الى الناظر ، الى العالم ، فهو لا يستطيع الالتفات أو الاستدارة .

«كيف وجدت أنت هناك ، يا ابني التعيس ؟» – ارتعب الأب .

«لا تسألني ، يا أبتاه ،– أجاب هذا .– أنا هنا عقابا على ما جنيت . لقد اقتادتني الى هنا العنزة الشهباء العجوز ولعنتني لعنة رهيبة . اني أقف هنا أياما كثيرة ، لا أرى شمسا ولا أطالع سماء ولا أشاهد أرضا . ووجهك لا أراه ، يا أبتاه . أشفق علي ، يا أبي . فانا أتعذّب عذابا بالغا : فاقتلني ، خفّف عذاباتي ، ألتمسك . اقتلني وادفني !»

ما الذي كان الأب يستطيعه ؟ طفق يبكي ، ويرتمي الى هنا والى هناك اما الابن فكان يتوسّل باستمرار : «اقتلني سريعا . صوّب الى يا أبتاه !

ارحمني ، سدّد !» وحتى غاية المساء لم يحزم الأب أمره ، ولم يستقرّ على قرار . ولكن قبيل مغيب الشمس صوّب وأطلق . وحطّم البندقية بحجر ، وطفق يغني أغنية الوداع فوق جسم ابنه القتيل بيديه :

«اني قتلتك ، يا ابني قراغول ،
وبقيت وحدي في الكون ، يا ابني قراغول .
ان القدر قد لعنني ، يا ابني قراغول ،
والقدر قد عاقبني ، يا ابني قراغول .
علام علمتك ، يا ابني قراغول ،
مهنة الصيد ، يا ابني قراغول ،
لماذا أبدتّ انتَ ، يا ابني قراغول ،
كل مخلوق وكائن حي ، يا ابني قراغول ،
لماذا أفنيت ، يا ابني قراغول ،
كل ما ظهر ليحيا ويتكاثر ، يا ابني قراغول ،
واحدا بقيتُ في الكون ، يا ابني قراغول ،
لا احد يردّ عليّ ، يا ابني قراغول ،
ببكائه على بكائي ، يا ابني قراغول ،
إني قتلتك ، يا ابني قراغول
بيدّي هاتين قتلتك ، يا ابني قراغول ...»

... كان تانابـاي جالسا بجنب الخيمة ،

وهو يسمع النواح القرغيزي القديم ، ويتابع بنظره القمر وقد عوّم فوق الجبال الصامتة والمظلمة ، ثم كيف تعلّق فوق القمم الثلجية ذات الرؤوس الحادة ، فوق الصخور الحجرية العملاقة . وانهدّ ثانية يبتهل الى صديقه الراحل ويلتمسه الغفران .

اما جايدار فكانت لا تزال تعزف على آلة «تمير – كاموز» مرثيّة الصياد الكبير قراغول :

«إنى قتلتك ، يا ابني قراغول ،
وبقيت وحدي في الكون ، يا ابني قراغول ...»

٢٢

كان الفجر يقترب . وكان الشيخ تاناباي جالسا ازاء الشعلة ، عند رأس الرهوان المحتضر ، وهو يواصل تذكّره ما الذي جرى فيما بعد .

لم يكن ثمة أحد يعرف ، أنه قد ارتحل في تلك الأيام الى مركز المحافظة . كانت تلك هي محاولته الاخيرة . كان يريد ان يرى سكرتير اللجنة الحزبية في المحافظة الذي سمع خطابه في اجتماع في مركز المنطقة ليحدثه عن كافة مصائبه وأحزانه . وقد آمن ان هذا الانسان كان يمكن ان يفهمه وأن يسدي له

يد العون . وقد تحدث تشورو عنه بكلمات الأطراء ، كما ان الآخرين امتدحوه . ولم يعرف عن نقل ذلك السكرتير الى محافظة اخرى ، الا بعد أن غشي مقر اللجنة في المحافظة بنفسه .

ــ ولكن أو لم تسمع حقا ؟

ــ كلا .

ــ حسنا ، ولكن ان كانت لديك قضية مهمة جدا ، فاني سأبلغ سكرتيرنا الجديد ، فلعله سيستقبلك ــ اقترحت عليه المرأة في قاعة الاستقبال .

ــ كلا ، شكرا ، ــ رفض تاناباي . ــ فاني انما طلبت ذلك ، لقضية شخصية خاصة . ذلك انني كنت أعرفه ، وهو كان يعرفني . وبخلاف ذلك لما كنت ازعجه بهذا الشكل . العفو ، مع السلامة . ــ وخرج من قاعة الاستقبال ، مؤمنا في نفسه ، انه كان يعرف جيدا ذلك السكرتير ، وان ذاك قد عرفه شخصيا ، هو الراعي تاناباي باكاسوف . ولكن لِمَ لا ؟ لكانوا قد استطاعوا معرفة واحترام أحدهما الآخر ، انه لم يشك في هذا ، ولذلك قاله .

مضى تاناباي في الشارع ، متوجها الى محطة سيارات الباص . كان عاملان بجانب كشك بيرة يحملان سيارة ببراميل بيرة فارغة . كان أحدهما

يقف في صندوق سيارة الشحن . والتفت ذاك ، الذي كان يدحرج البراميل الى فوق اليه ، التفت صدفة فرأى تاناباي المارّ بجانبه وتسمّر في مكانه ، وامتقع وجهه . كان هذا هو بكتاي . فجعل وهو يمسك بالبرميل على اللوحة الخشبية ينظر الى تاناباي بثبات وعلى نحو عدائي ، بعينيه الضيقتين القلقتين وينتظر ماذا سيقوله تاناباي .

ـ ماذا ، هل غفوت هناك ؟ ـ هتف في بكتاي العامل الواقف في صندوق السيارة مثارا .

كان البرميل يتدحرج الى أسفل ، لكن بكتاي ، وقد أمسك به ، انحنى قليلا تحت ثقله ، وواصل نظره دون انقطاع الى تاناباي . غير أن تاناباي لم يحيّه . «هذا اذن هو مكانك . انك هنا اذن . شاطر ! تدبير رائع لا عيب فيه ! عكفت على البيرة ، والتحقت باشغالها ! ـ طفق تاناباي يفكر ، ومضى ، دون تلكؤ ، موغلا في سيره . سيضيع الفتى ، ها ؟ ـ فكر هو بعدئذ ، مُبطِئا خطوه . ـ كان يمكن أن يكون انسانا طيبا ، لعلّي سأكلّمه ؟» ـ وأراد أن يرجع ، فلقد أشفق على بكتاي هذا ، وكان مستعدا لأن يغفر له كل شيء . فقط ، لو ان هذا ثاب الى رشده . وعلى أية حال ، لم يقُم تاناباي بذلك . فقد تيقن لوان هذا

عرف أمر فصله من الحزب ، اذن لـما أمكن اجراء حديث . ولم يـرد تاناباي ان يمنح هذا الفتى النمّام ، الواشي مناسبة للسخرية منه ، من مصيره ومن قضيته التي ظلّ ، رغم كل شيء ، أمينا لها . وهكذا واصل سيره . وغادر المدينة مرتحلا في سيارة عابرة ، وكان يفكر طول الطريق في بكتاي . تذكّر وقفة هذا ، منحنيا تحت ثقل البرميل المتدحرج ، وتذكّر كيف تطلع اليه راكزا ، مترقبا .

وفيما بعد حين حوكم بكتاي ، لم يُفد تاناباي في المحكمة الا بأن بكتاي هجر القطيع ومضى . ولم يتفوه بأكثر من هذا . لقد ودّ ورغب كل الرغبة في ان يفهم بكتاي في خاتمة المطاف ، أنه ما كان على حق ، وأن يعلن أسفه وندامته . لكن هذا لم يفكر ، فيما يبدو ، لا بأسف ولا بندامة .

– ان أنهيت سجنك ـ فتعال اليّ . سنتحدث عن مستقبلك ، ـ قال تاناباي لبكتاي . أما هذا فلم يجب بشيء ، بل حتى لم يرفع عينيه . وغادره تاناباي . لقد صار بعد الفصل من الحزب غير واثق في نفسه ، وجعل يحسّ أمام الجميع بأنه مذنب . صار يتهيب نوعما . انه لم يتصور ولا مرة في حياته ، ولم يَجُل في خاطره قط أن مثل هذا الحدَث

سيقع له ، ويلمّ به . لم يعيّره أحد ولم يجرّحه ، لكنه ، على كل حال ، جعل يتجنب الناس ، ويعتزل الاحاديث وكان اكثر وقته صامتا .

٢٤

كان الرهوان غولساري راقدادون حراك عند الشعلة ، وقد ألقى برأسه الى الأرض . لقد فارقته الحياة ببطء . شخر وغرغر حلقه ، وجحظت عيناه وانطفأتا ، مسمّرتين على اللهب لا تطرفان ، وتخشّبت أقدامه الطويلة ، كالعصى .

كان تاناباي يودّع رهوانه ، ويقول له كلماته الأخيرة : «لقد كنت حصانا ماجدا ، يا غولساري ، لقد كنت صديقي ، يا غولساري . إنما تأخذ معك أفضل سنيّ ، يا غولساري . سأظلّ أتذكرك دوما . والآن وأنا بقربك أتذكرك ، لأنك تغادرني ، يا حصاني المجيد . لا بدان نلتقي ، وقتا ما ، في العالم الآخر . لكني هناك لن أسمع وقع حوافرك . فهناك لا توجد طرق ، ولا توجد أرض ، وما من عشب ، وما من حياة . ولكن حيثما عشتُ وأينما سأكون ، فانك لن تموت ، لأني سأظل أتذكرك ، يا غولساري . ان وطء سنابكك ، سيظل بالنسبة لي ، مثل أغنية حبيبة ...»

هكذا فكّر الشيـخ تاناباي ، واكتنفـه الحزن والأسى ، لان الزمن عدا ، مثل عَدْو الرهوان . ولأنهما شاخا سوية بسرعة غريبة . ولربّما كان لا يزال من السابق لأوانه أن يحسب تاناباي نفسه شيخا . ولكن الأنسان يشيخ ليس من السنين التي عاشها فحسب ، بقدرما يشيخ من الوعي بأنه شاخ ، وان عهده قـد ولّى ، وانه انما تبقّى له ان يحمل نفسه حملا ليعيش بشكل ما حتى نهاية عمره ...

والآن ، وفي هذه الليلة ، ليلة موت رهوانه ، جعل تاناباي يتأسف ، متطلعا ، من جديد ، بتركيز وانتباه شديد الى ماضيه ، على كونه قد استسلم ، على هذا النحو المبكّر ، الى الشيخوخة ، ولأنه لم يقرّر في الحال الأخذ بنصيحة ذلك الانسان الذي لم ينسه ، كما يتبيّن ، والذي بحث عنه هو بنفسه ، وجاء اليه بذاته .

حدث هذا بعد سبع من السنين بعد فصله من الحزب . وكان تاناباي يعمل ، آنذاك ، حارسا للآراضي الكولخوزية المزروعة في شعب ساريغوسكي ، وعاش آنذاك في بيت الحراسة الصغير سوية مع عجوزه جايدار . اما بنتاه فقد ارتحلتا للدراسة . واما ابنه فبعد انهاء المدرسة المهنية انخرط في العمل موظفا في المنطقة ، وأصبح معيلا .

وذات مرة في الصيف كان تاناباي منهمكا في حشّ العشب عند شاطىء النهر . وكان النهار قائظا ، حارا ، ونيّرا . وكان الهدوء يعمّ الشّعب . وكانت الجنادب تصرصر . كان تاناباي في قميص طليق وسروال ابيض عريض ، مما يلبس المسنّون ، كان يخطو وراء محصدة العشب الهادرة ، ويكومّ العشب أكواما كثيفة ، متناسقة . كان يشتغل مسرورا ، مستغرقا في العمل . ولم يلاحظ كيف توقفت غير بعيد عنه سيارة صغيرة تحمل ماركة «غاز» ، وكيف طلع منها شخصان وتوجها اليه .

– مرحبا ، يا تاناباي . الله يساعدك ! – سمع هو أحدهم يكلّمه ، من جانبه . التفت فرأى ابراهيم . وكان هذا لا يزال على عهده خفيف الحركة ، نافر الوجنتين ، ببطن ناتئ . – ها اننا وجدناك ، أخيرا يا تاناباي ، – ابتدأ ابراهيم يبتسم ابتسامة عريضة غطّت وجهه . – ان سكرتير اللجنة الحزبية في المنطقة قد جاء اليك بنفسه ، يريد ان يراك .

«يا له من ثعلب ! – تأمله تاناباي باعجاب عفوي ، لا ارادي . – يعيش في كافة العهود ويجد لنفسه مكانا . انظر كيف هو يتملّق ، وكيف هو متكّرم ، على غاية السخاء . انه ليُرضي كل أحد ، ويخدم الجميع دون استثناء !»

ـ مرحبا . ـ شدّ تاناباي على يديهما .

ـ أفلا تعرفني ، أيها الأب ؟ ـ سأل الآخر بحفاوة وترحاب ، وهو الرفيق الذي جاء مع ابراهيم ، سأله دون ان يُفلت يده من راحة يده القوية .

وتلكّأ تاناباي بالجواب . «أين بالذات رأيته ؟» ـ طفق يتساءل في نفسه . وأمامه كان رجل كأنه معروف جدا لديه ولكن ، فيما يبدو ، قد تغيّرت هيأته تماما . كان شابا ، عفيّا ، مسفوعا ، بنظرة صريحة واثقة ، مرتديا بدلة رمادية من الكتان بقبعة من القش . «أحدهم ، واحد من المدينة» . ـ تصوّر تاناباي .

ـ انه هو ذلك الرفيق ... ـ كاد ان يبوح ابراهيم .

ـ على مهلك ، توقف لحظة ، سأقول بنفسي ، ـ أوقفه تاناباي وقال ضاحكا في سرّه ، ـ أعرفك يا بني . كيف لي أن لا أعرفك ! مرحبا مرة اخرى . اني لمسرور بلقائك .

كان هذا هو كريمبيكوف . انه سكرتير الكومسومول ذاك ، الذي دافع بشجاعة عن تاناباي في اجتماع لجنة المنطقة حين فصلوه من الحزب .

ـ طيب ، ما دام قد عرفتموني ، فتعالوا

نتحدث ، يا تاناباي . هيا بنا نتمشى على الشاطىء . اما انت فخذ المحصّدة واحصد ،– اقترح كريمبيكوف على ابراهيم .

وخفّ هذا في الحال باستعداد استثنائي ، وخلع السترة :

– بالطبع ، بمنتهى السرور ، أيها الرفيق كريمبيكوف .

ومضى تاناباي وكريمبيكوف في المرج حيث يجري حصاد الحشائش ، وجلسا على الاحجار عند النهر .

– انك ، على الأرجح ، تحزر ، يا تاناباي ، بأية قضية قصدتك ،– بدأ كريمبيكوف الحديث .– نظرت اليك ، فاذا أنت على حالك السابق من القوة وعلى عهدك ، وها أنت منشغل بجز الحشائش – اذن فالعافية عندك في تمامها والحمد لله . أنا مسرور بهذا .

– أسمعك ، يا ولدي ، أنا أيضا مسرور بك .

– اذن ، ولكي يكون الأمر أوضح بالنسبة لك ، يا تاناباي . فالآن تعرف أنت نفسك ، ان كثيرا قد تغيّر ، وكثيرا من الامور صارت تجري على ما يُرام . ولا أظنك أقل مني تدري بهذا .

– أعرف . الحقيقة هي الحقيقة . حتى قياسا على كولخوزنا أستطيع الحكم والاستنتاج . لكأن الأمور تبدّلت خيرا ، وصارت أفضل . حتى اني لا أصدق عيني . كنت في زمن غير بعيد في وادي «الاشجار الخمس» حيث دهتني المصائب في ذلك العام بالذات وكنت راعيا . وشعرت بالحسد: فقد انّشأوا هناك حظيرة مسقفة جديدة . حظيرة جيدة ، بسقف من قطع الطين الصفحي الرمادي ، تتسع لخمسمائة رأس . وأنشأوا ، بالتالي ، بيتا للراعي . وبجنب ذلك أقيم عنبر ، واسطبل . ان هذا لشيء جديد تماما لا يُقارَن بحال بما كان بالأمس . أجل وفي أمكنة المشتى الاخرى صنعوا ذات الشيء . أما في القرية ذاتها فان الشعب يبني البيوت . وكلما غشيت القرية يطالعني بيت جديد قد نهض في الشارع . فليجعل الله الامور كذلك في المستقبل .

– هذا شغلنا وواجبنا يا تاناباي . ليس كل شيء بعد كما يرام . ولكن مع الوقت سنسوّي الأمور . أما أنا فقد قصدتك بالقضية التالية : أن ترجع الى الحزب . سنعيد النظر في قضيتك . وفي جلسة اللجنة دار الحديث بخصوصك . وكما يقال : لا بأس حتى بآجل الامور .

وصمت تاناباي ، واكتنفته الحيرة . لقد سُرّ من جهة ، ومن جهـــة اخرى صار يشعر بالمرارة . لقد تذكّر كل ماعاناه ، وكان الضيم قد رسخ عميقا في ذاكرتـــه . لم يكن يريد أن يحرك ساكن الماضي ، ولم يشأ التفكير في ذلك .

ـ شكرا على الكلمة الطيبة ، الرفيقة ،ـ شكر تاناباي سكرتير اللجنـــة المنطقيـــة ،ـ شكرا أنك لم تنسَ الشيخ .ـ وفكر برهـــة ، وما لبث أن قـــال بصراحة :ـ لقد صرت شيخا . أية فـائدة مني للحزب الآن ؟ أي شيء سأستطيع عمله له ؟ لم أَعد أصلح لشيء . لقد ولى عهدي . لا تزعل مني . أعطني فرصة للتفكير .

تردّد تاناباي طويلا ولم يحزم أمره على شيء ، وكان يؤجل باستمرار ـ غدا سأمضي ، بعد الغد ، أما الوقت فكان يمضي مسرعا . كان يتثاقل عندما ينهض ، وفتر حماسه .

وعلى كل حال فقد تهيّـــأ ذات يوم ، وأسرج حصانه ، وارتحل ، ولكنه عاد من منتصف الطريق . ولكن لماذا ؟ لقد فهم هو نفسه ، انه انما عاد لحمقه ليس الا . قال هو لنفسه « لقد تحامقت ، لقد خرفت

خرف الشيخوخة » . كان يفهم كل هذا ، لكنه لم يستطع صنع شيء مع نفسه ، أو قهر هواها .

لقد طالعت عينه في السهب آنذاك غبار الرهوان الراكض . وقد عرف غولساري على التو . قلما كان يراه وقتذاك . كان يجري ، وقد طبع بجريه في السهب الصيفي الجاف أثرا متطايرا . نظر تاناباي الى ذلك ، من بعيد ، واكتأب . فقبلا كان الغبار المتطاير من تحت حوافره لا يلحق بحال الرهوان ذاته . كان ينطلق الى أمام ، مثل طير طائر بمنتهى السرعة ، ويخلّف وراءه ذيلا من الغبار طويلا فائرا . أما الآن فالغبار غالبا ما حطّ سحابة على الرهوان نفسه ، وغطّاه . كان ينطلق الى أمام ، ولكن بعد دقيقة كان يختفي من جديد في مكعّبات كثيفة من الغبار الذي أثاره هو ذاته . كلا . انه الآن لم يَعُد يستطيع الخلاص من غباره . اذن ، فقد شاخ الحصان ما فيه الكفاية ، وضعف ، وانهارت قواه . « سيئة أمورك ، يا غولساري » — فكّر هو بأسى .

وصوّر لنفسه كيف اختنق الحصان بالغبار ، وكيف كان الركض يَصعُب عليه ، وكيف اغتاظ فارسه فساطه يستحثّه . ورأى أمامه عينيَ الرهوان الذاهلتين ، وأحسّ بما يبذله هذا من جهد ، لينطلق

بكل قواه ، ويمرق متخلصا من سحب الغبار دون ان يستطيع ذلك . وبالرغم من ان الفارس لم يكن ليستطيع أن يسمع تاناباي ـ فالمسافة كانت بعيدة حقا ـ الا ان تانابـــاي هتف: «عــلى رسلــك ... لا تستحثّ الحصان» ـ وانطلق بحصانه قمصا لقطع الطريق عليه .

ولكنه لم يتم جريَه ، وسرعان مـــا توقف . لا بأس: اذا فهم ذلك الشخص مقصده ، ولكن ان لم يفهم؟ واذا قال لـه جوابـا: «لماذا يعنيك الأمر ؟ من أين طلعت عليّ آمرا ؟ كيفما أريد ، فكذلك أرتحل . تنحّ عني ، أيها الأحمق العجوز!»

أما الرهوان فكان في ذلك الوقت لا يزال موغلا في الجري العسير ، غير المنتظم ، يختفي تارة في الغبار ، ويتخلّص منه تارة أخرى . نظر تاناباي في اثره طويلا. ثم استدار بحصانه وعاد . «لقد عَدونا حصتنـــا من العدو ، يـا غولساري! ـ قـال هو ـ وشخنـا . فلمن نلزم نحن ، الآن ، في مثل هذي الحال؟ وأنا الآن كذلك لست بركّاض . لم يتبق لنـــا ، يـا غولساري، الا ان نعيش آخر أيامنا ...»

ولكن بعد عام رأى تاناباي الرهوان مقرونا الى عربة نقل . وانهارت أعصابه من جديد . كان يحزنه أن ينظر الى الوثّاب العجوز ، الذي عتق وأفل نجمه ، وقد

أصبح نَصيبه السير في رقبيّـة قد أضرّ بها العث ، وجرّ مركبة متداعية . وأشاح تاناباي ببصره عنه ، فما كان يودّ رؤيته في هذي الحال .

والتقى تاناباي بالرهوان مرة اخرى . كان على ظهره في هذه المرة صبي له من العمر سبع سنين ، ولم يرتد سوى فانلة ممزقة ولباسا قصيرا ، وكان يرتحل به في الشارع . كان قد استوى عليه متهللا مبتهجا ، وهو يسوطه بعقبيه العاريين ، متباهيا أنه يقود الحصان بنفسه . وكان واضحا ان الصبي يركب حصانا للمرة الاولى في حياته ، ولذلك فقد أُجلس على أطوع وآمن فرس هزيل ، وهو من كانه آنذاك الرهوان السابق ، غولساري .

ــ أيها الجد ، أفلا تنظر الي ! ــ افتخر الصبي أمام الشيخ تاناباي . ــ انني البطل تشابايف ! سأمضي الآن عبر النهر .

ــ مرحى ، مرحى ، امض ، وسأنظر ! ــ شجعه تاناباي .

ومضى الغلام بجرأة عبر النهر ، هامزا الحصان بالأعنة ، ولكن حين صار الحصان يشق طريقه الى الشاطئ المقابل مخوضا في الماء لم يثبت على ظهره ، فتخبّط في الماء .

ــ مــا ــ مــا ــ آ ! ــ بدأ الصبي يولـول من الرعب .

وانتشله تاناباي من الماء وحمله الى الحصان . وكان غولساري ، أذ ذاك ، يقف طيّعا في الـّدرَيب ، رافعا قدميه واحدة بعد اخرى . «ان قدمي الحصان تؤلمانه ــ اذن فقـد سـاءت حـاله تمـامـا» ــ فهـم تاناباي . وأجلس الصبي على الرهوان العجوز .

ــ ارتحل ولا تقع مرة أخرى .

ومشى غـولســاري متثـاقـلا ، على مهـل في الطريق ...

وها هي المرة الأخيرة ، بعد أن وقـع الرهوان ثانيـة في يدي تاناباي ، وبعد ان لاح ان الشيـخ قد شفاه ، وأعاد له قواه وَحـيْـَله ، ها هي المرة الاخيرة التي حمــل غـولســاري بهـا تـانـابـاي الى قريـة آلكساندروفكا ، وها هو الآن يلفظ أنفاسه في الطريق .

كان تاناباي قد ارتحل الى ابنه وكنته ، بمناسبة ولادة حفيده ، وهو ثاني طفل في أسرة الابن . وقد قدم اليهم حاملا في جملة الهدايا نعجة مذبوحة ، وكيسـا من البطاطا ، وخبزا وعديدا من الأطعمة والمأكولات التي أعدتها الزوجة . وقد فهم ، فيما بعد ، لماذا لم تـُرد جايدار ان تسافر ، وادّعت بالمرض . وبالرغم

من انها لم تقل لأحد ، الا انها ما كانت تحب هذه الكنّة . وقد كان الابن بطبيعته ، انسانا اتكاليا ، ضعيف الشخصية ، ضعيف الارادة خائرا ، أما الزوجة فقد تكشفت قاسية متسلّطة . كانت ، وهي جالسة في البيت ، تأمر ، وتهتضم الزوج وتتعسّف به ، مثلما تريد وكما تشاء . وفي الدنيا يوجد مثل هؤلاء الناس ، الذين لا يتاثرون اطلاقا ولا يهمهم أبدا الاساءة الى الانسان واهانته والتعدي عليه ، لا لشي الا للتأمر وللشعور بممارسة السلطة .

ان مثل هذا الأمر قد حدث في هذه المرة أيضا . فلقد تبيّن أنهم في الدائرة كانوا بسبيل أن يرفعوا الابن في العمل ، ولكن فيما بعد ولسبب ما رفعوا انسانا آخر أما هو فقد تخطّوه . وها هي الكنّة تنقضّ على الشيخ البرىء ، غير المذنب في أيما شيء :

ــ علامَ انتسبت الى الحزب ، ان كنت تقضي كل حياتك في رعي الأغنام ورعي الخيول . فالامر سيّان ، فمع كل ما عملت ، طردوك عند النهاية ، ومن جرّاء هذا لن تكون ترقية لابنك . وسيظل مائة سنة اخرى قاعدا في ذات الوظيفة دون ترقية . انكم تعيشون هناك في الجبال ، فما الذي يلزمكم هناك ، أنتم الطاعنون في السن ، أما هنا فنحن نعاني بسببكم .

وثرثرت بكلام كثير آخر في هذا المعنى ...

لم يكن تاناباي مسرورا أنه ارتحل . ولاجل أن يهدّي الكنة على نحو من الأنحاء ، قال بتردد :

ـ طالما الأمر كذلك ، فلعلي سأسال العودة الى صفوف الحزب .

ـ انت تعتقد بانك تلزمهم هناك جدا . وانهم ينتظرونك على أحر من الجمر . كلا ، فهم يستطيعون تدبير أمورهم من دون شيخ عجوز مثلك ! ـ أجابت هي متذمرة بسخرية لاذعة .

لو كان القائل ليس الكنة ، زوجة ابنه ، لو كان القائل انسانا آخر ، ترُى أفكان سيسمح تاناباي حقا بالتحدث معه بهذا الشكل ؟ ولكنك لن تستطيع التبرؤ من ذويك ، مهما كانوا طيبين أم سيئين . ولاذ الشيـــخ بأذيال الصمت ، وكفّ عن المعارضة ، ولم يجرؤ أن يقول لها ان زوجها لا يرقونه في الخدمة لا لأن أباه مذنب ، وانما لكونه هو نفسه لا يصلح لشيء ، ناهيك عن انه ابتُلي بمثل هذه الزوجة التي منها يفر الانسان السوي ، الطيب الى حيث تقوده عيناه . فليس عبثـا أن يقول الشعب «الزوجـة الطيبة تجعـل من الزوج الرديء لا باس به ، ومن الزوج المتوسط طيبا ، أما الطيب فتجعل العالم باسره يمجده» . ولكن من جديد

لم يجرؤ الشيخ ولم يُرد ان يعير الابن بحضور زوجته ، أجل ، دعهم يفكرون أنه مذنب .

ولكل هذا غادرهم تاناباي سريعا . فقد كان مُقرفا له أن يبقى عندهم .

«حمقاء ، أنت حمقاء ! ـ كان يوبخها وهو يجلس عند الشغلة ـ فقط ، من أين يطلع هؤلاء الناس ؟ انهم لا يكنون للآخرين لا مشاعر التكريم ، ولا الاحترام ، ولا الخير . أنانيون لا يفكرون طيلة الوقت الا بأنفسهم . ويحكمون على الناس جميعا ، منطلقين من الحكم على انفسهم . شيء واحد ـ لست كما تظنين ، وكما تتصورين . لازلت لازما ، وساظل ضروريا ولازما ...»

٢٥

انفلق الصباح . كانت الجبال تستيقظ فوق الأرض ، وقد اتسع السهب حواليها ، وتلألأ بالنور . وفي طرف الوادي كانت تضطرم على نحو ضعيف ، واه فحمات الشعلة الآخذة بالانطفاء . والى جانبها كان الشيخ الاشيب واقفا ، وقد ألقى بالفروة على كتفيه . فالآن لم تَعُد ثمة ضرورة لتغطية رهوانه . لقد مضى غولساري الى العالم الآخر ، الى قطعان الخيل

السماويــة ... ونظر تاناباي الى الحصـان الشهيـد واستحوذ عليه العجب والدهشة . كان غولساري يرقد على جنبه برأس ملقى بتشنج ، رأسه الذي كانت تُرى عليه نُقَر عميقة ، هي آثار الأعنة . وقد تتات أقدامه الممدودة ، غير المثنيـة بحداو بـاليـة على حـوافر متصدعة . لم يَعُد بامكانها ان تطأ الأرض ، او تطبع أثرها في الطرق . كان يلزم المضيّ . وانحنى تاناباي على الحصان للمرة الأخيرة ، وأطبق جفنيه على عينيه البـاردتين ، وأخذ اللجام ، ودون أن يلتفـت ، مضى لا يلوي على شيء .

مضى هو عبر السهب الى الجبال . مضى مواصلا تاملاته وخواطره الكثيرة . وفكر هو في أنه قد أصبـح شيخا بالفعل ، وأن أيامه آخذة بالأفول . ولم يُرد ان يموت طيرا وحيدا ، منفردا ، منفصلا من سربـه ذي الأجنحـة السريعـة . أراد أن يمـوت في الطيران ، لأجل ان يتحلق حولـه بهتافات الوداع اولئك الذين نَشا معهم في عش واحد ، والذين سلك معهم وواصل ذات الطريق .

«ساكتب الى سامنصور ،ـ قرّر تاناباي .ـ وساكتـب في الرسالـة مـا يلي : أفلا تذكرن الرهوان غولساري ؟ ينبغي أن تتذكره . فعلى ظهره نقلتُ أنا

الى لجنة المنطقة بطاقة والدك الحزبية . انك نفسك وجهتني في ذلك الطريق . وهكذا ، ففي الطريق ، وقد رجعت البارحة من قرية الكساندروفكا ، خرّ رهواني المجيد . وقد جلست طوال الليل بجنب الحصان ، وقد تفكّرت متأملا في حياتي كلها . وفي ساعة تعسة كهذه ، سأخرّ أنا أيضا في الطريق ، مثلما خرّ الرهوان غولساري . فعليك أن تساعدني ، يا ابني سامنصور ، في أن أرجع الى صفوف الحزب . لقد تبقى لي القليل لأعيشه . الا اني أريد أن أكون من كنتُه سابقا . وكما أتفهّم الأمر الآن ، فليس عبثا ان اوصاني ابوك بأن أنقل بطاقته الحزبية الى لجنة المنطقة . أما أنت فنجله ، وانت تعرفني ، أنا الشيخ تاناباي باكاسوف ...»

مضى تاناباي في السهب ، ملقيا بالأعنة عبر كتفه . كانت دموعه تجري في وجهه ، وقد اخضلت لحيته . ولكنه لم يجففها . لقد كانت دموعه التي يذرفها من أجل الرهوان غولساري . ونظر الشيخ عبر الدموع الى الصبح الجديد ، الى الأوزّة الشهباء ، الطائرة وحدها سريعا فوق التلال السفحية . كانت الأوزة الشهباء تطير مسرعة ، للحاق بسرب طيور الأوز .

ـ طيري ! طيري ! ـ همس تاناباي . ـ الحقي بذويك ، طالما لم يَهْوِ جناحاك من التعب . ـ ثم تنهد وقال : وداعا ، يا غولساري !

ومضى ، وطافت في مسامعه أغنية قديمة .

... تركض الناقة أياما كثيرة . تبحث ، وتنادي وليدهـا . أين أنت أيها الحوار الأسـود العينين ؟ أجب ! فالحليب يتدفق من الضروع ، من الضروع الممتلئة ، ويشخب جداول على القدمين . أين أنت ؟ أجب . يجري الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة ، الحليب الابيض ...

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٥٢٨ لسنة ١٩٨٤

مطبعة واوفسيت المشرق ٨٨٨١٧٤٠



هذا الكتاب

«وداعا يا غولساري !» تحكي عن معاصرنا الراعي الكولخوزي تاناباي باكاسوف . وكما كتبت جريدة «الازفستيا» ، «... فان بطل آيتماتوف ، تاناباي ليتماثل ، من حيث طبيعة الشخصية ، القوية والكبيرة ، مع أندري سوكولوف (بطل شولوخوف) في القصة المشهورة للعالم كله «مصير إنسان» . فعندهما نبع واحد للرجولة ولصلابة الروح وعدم انكسارها ـ فكلاهما مشبعان بعصير الارض الحبيبة ، وكلاهما يحملان في نفسيهما الملامح الحقيقية للشخصية الشعبية ...»